النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم
في القرآن الكريم

سماحة المرجع الديني
الشيخ محمد اليعقوبي دام ظله

هوية الكتاب

اسم الكتاب: ..... النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله) في القرآن الكريم

تأليف: .....الشيخ محمد اليعقوبي

الطبعة : .....الأولى

السنة: ..... ١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤م

الناشر: ..... دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

النجف الاشرف/ شارع الرسول(صلى الله عليه وآله)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ﴿الأحزاب:٥٦﴾

فضل الصلاة على النبي وآله وآثارها المباركة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٦).

أُطلق لفظ النبي ولم يُذكر اسمه بينما ذُكرت أسماء الأنبياء الآخرين؛ تعظيماً لشأنه ولِتفرّده بسموّ المنزلة حيث لا يشاركه ولا يدانيه ملكٌ مقرّب ولا نبي مرسل.

ومعنى الصلاة عليه من الله تعالى حسن الثناء عليه في الملأ الأعلى والأدنى وزيادة نوره وبركته ورفع درجاته حتى يبعثه المقام المحمود الذي وعده، والصلاة من الملائكة طلب إنجاز ذلك له، ومن المؤمنين الدعاء من الله تعالى له بذلك، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (صلوات الله عليه تزكية له وثناء عليه، وصلاة الملائكة مدحهم له، وصلاة الناس دعاؤهم له والتصديق والإقرار بفضله)[1].

وبذلك يلتحم الكون في حركة ودّيّة دؤوبة تلهج بعظمة هذا الوجود المبارك والنعمة العظيمة والرحمة المهداة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، أما من يسيئون إليه وينتقصون منه ويشوّهون صورته ويفترون عليه فهم محرومون من الحضور في هذا العالم الجميل الطيب السعيد ولا يظلمون إلا

(١) نور الثقلين: ٤/ ٣٠٠/ ح٢١٢.

أنفسهم.

فالآيةُ الكريمة تبيّن أن رسول الإسلام محمداً أعظم المخلوقين منزلةً وأرفعهم مقاماً في الملأ الأعلى وفي الملأ الأدنى، وهذه الصلوات مستمرة دائمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ وليست مختصة بحياته الشريفة، ومع تكرار هذه الصلوات واستمرارها يزداد النبي رفعةً وعلواً.

ولم يُذكَر متعلّق هذه الصلاة من الله تعالى ومن الملائكة على النبي فهي مطلقة ومفتوحة على كل ما يُوجب المقام المحمود عند الله تعالى، أما صلاة الله تبارك وتعالى وملائكته على الناس فقد ذُكر متعلّقها وهي الهداية من الظلمات إلى النور ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ (الأحزاب:٤٣)، فهذه ليست كتلك والفرق بينهما واضح، فإن النبي كله نور ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة:١٥)، ويزداد نوراً بهذه الصلوات.

وفي الآية أمرٌ من الله تبارك وتعالى بالتسليم على النبي وأيضاً التسليم له تسليماً مطلقاً، إذ لم يذكر متعلق التسليم فيحتمل فيه المعنيان، روى الشيخ الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (وأما قوله عز وجل ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فإنه يعني التسليم له فيما ورد عنه)[1]، وعلى رأسها الولاية، امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥).

(١) وسائل الشيعة: ١٩٦/٧، عن معاني الأخبار: ٣٧٦.

والقدر المتيقن من الوجوب ذكرها في تشهّد الصلاة وفي خطبة الجمعة والأذان، روي عن عائشة قالت: سمعت رسول الله يقول: (لا تُقبَل صلاة إلا بطهور وبالصلاة عليَّ)[1]، ونظم الشافعي ذلك شعراً فقال:

يا آل بيت رسول الله حبكمُ ... فرضٌ من الله في القرآن أنزلهُ

كفاكمُ من عظيم القدر أنكمُ ... مَن لا يصلي عليكم لا صلاة له[2]

ولتأكيد هذا الأمر والحث عليه فقد بدأ الله تعالى نسبة القيام بالفعل إليه سبحانه تعظيماً لشأن النبي ، ثم ثنّى بالملائكة امتثالاً لأمره، ثم دعا المؤمنين إليها تحبيباً للنبي ، وأن توفيقهم للصلاة من الآثار المباركة لصلاة الله تعالى وملائكته وأنَّ الله تعالى هو أصل هذا الفعل ومبعثه، مضافاً إلى ما فيه من الترغيب والتشجيع للمؤمنين حين يشعرون بأنهم وهم يصلّون على النبي تقترن صلاتهم بصلاته سبحانه، ويقفون في صف الملائكة ممتثلين لإرادة الله تبارك وتعالى، وكفى ذلك تشريفاً لهم، روى في الدر المنثور بسنده عن أنس قال: (قال رسول الله : إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم عليّ في دار الدنيا صلاةً، أنه قد كان في الله وملائكته كفاية ولكن خصَّ المؤمنين بذلك ليثيبهم عليه)[3].

وتوجيه الخطاب لهم بعنوان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يكشف عن أنَّ من علامات صدق إيمانهم هذه الصلوات على النبي والتسليم له، والاعتقاد بأنه يسمع هذه

---

(١) بحار الأنوار: ٨٢/ ٢٧٨ (باب التشهد وأحكامه).

(٢) قال في تفسير (الأمثل: ١٠/ ٤٧٥): ذكر العلامة الأميني في كتابه النفيس (الغدير) نسبة هذه الأشعار إلى الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني: ٧/ ٧ وجماعة آخرين.

(٣) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٣.

الصلوات بعد موته ويشكرها من أصحابها، روى البيهقي في شعب الإيمان وغيره بإسنادهم عن أبي هريرة قال: (من صلّى عليَّ عند قبري سمعته ومن صلّى عليَّ نائياً كفي أمر دنياه وآخرته وكنتُ له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة)[١].

ولا تخلو هذه البداية من درس بأن مَن يدعو إلى الخير لا بد أن يبدأ بنفسه وبمن يرتبط به أولاً فيفعله، ليكون صادقاً في دعوته ويطابق قوله فعله.

كما أن فيها ضبطاً لعقيدة المسلم بأن لا يغلو في نبيّه فيعتقد فيه الربوبية والألوهية فهو في صلاته عليه يتوجّه إلى الله تعالى بأن يصلّي على نبيه ويرفع درجته وبذلك ينصهر في التوحيد الخالص ويذوب في محبة نبيه الأكرم .

لا تتم الصلاة على النبي الا بالصلاة على آله:

وقد روى الفريقان بما لا يحصى كثرةً أنَّ حقيقة الصلاة على النبي إنما تتم بضمِّ آله إليه، وننقل ما رواه البخاري في تفسير هذه الآية عن كعب بن عجرة عنه (قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[٢]، والغريب أن علماء العامة يروون عشرات الروايات في هذا المعنى ولكنهم لا يذكرون الآل في الصلوات.

ووصف النبي الصلاة عليه بدون الآل بالبتراء ونهى عنها فقد روى ابن

---

(١) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٤.

(٢) صحيح البخاري: باب قوله إن الله وملائكته يصلون على النبي...، ص١٨٠٢/ ح٤٥١٩، وأخرج في الدر المنثور: ٦/ ٦٤٦-٦٥٦ عشرات الأحاديث من طرق عديدة في هذا المعنى.

حجر في صواعقه أن النبي قال: (لا تصلّوا عليَّ الصلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللهم صلِّ على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد)[١]، ولم تفرّق الصلوات بين النبي وآله بـ(على) لتدل على أن الصلاة عليهما واحدة.

وفي أمالي الصدوق أن رسول الله قال: (من صلى عليَّ ولم يصلِّ على آلي لم يجد ريح الجنة، وإنّ ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام)[٢]، وروى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (سمع أبي رجلاً متعلقاً بالبيت وهو يقول: اللهم صلِّ على محمد، فقال له أبي (عليه السلام): لا تبترها، لا تظلمنا حقنا، قل: اللهم صلّ على محمد وأهل بيته)[٣]، وروى السيد المرتضى عن تفسير النعماني بسنده عن علي (عليه السلام) عن رسول الله قال: (لا تصلّوا عليَّ صلاة مبتورة، بل صِلوا إليَّ أهل بيتي، ولا تقطعوهم)[٤]، وروى الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال بسنده عن عمار بن موسى قال: (كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فقال رجل: اللهم صلِّ على محمد وأهل بيت محمد، فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): يا هذا لقد ضيّقت علينا، أما علمت أنَّ أهل البيت خمسة أصحاب الكساء: فقال الرجل كيف أقول؟ قال: قل اللهم صلّ على محمد وآل محمد فسنكون نحن وشيعتنا قد

---

(١) الصواعق المحرقة: ١٤٤.

(٢) سفينة البحار: ٥/ ١٧١، عن أمالي الصدوق: ١٦٧/ ح٩، وسائل الشيعة: ٧/ ٢٠٣ ط. أهل البيت (عليهم السلام).

(٣) وسائل الشيعة: ٧/ ٢٠٢، عن الكافي: ٢/ ٣٥٩/ ح٢١.

(٤) وسائل الشيعة: ٧/ ٢٠٧/ ح١٧.

دخلنا فيه)[١].

وقد وردت أحاديث متواترة من طرق الفريقين في الحث على الصلاة على النبي وآله والإكثار منها في كل زمان ومكان، لما فيها من بركات في الدنيا والآخرة، روى في كنز العمال عن رسول الله قوله: (حيثما كنتم فصلّوا عليَّ فان صلاتكم تبلغني)[٢]، وقال : (الصلاة عليَّ نور على الصراط)[٣]، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (بالشهادتين تدخلون الجنة وبالصلاة تنالون الرحمة فأكثروا من الصلاة على نبيّكم وآله)[٤].

وروى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن عبد السلام بن نعيم قال: (قلتُ لأبي عبد الله (عليه السلام) إني دخلت البيت ولم يحضرني شيء من الدعاء إلا الصلاة على محمد وآله، فقال (عليه السلام): أمَا أنّه لم يخرج أحدٌ بأفضل مما خرجت به)[٥].

روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) قال: (ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيُخرجُ عليه فيضعها في ميزانه فترجح)[٦]، وروى في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (قال رسول الله : من

---

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ٢٠٥، عن ثواب الأعمال: ١٨٩/ ح٢.

(٢) كنز العمال: ٢١٤٧، ٢١٤٩.

(٣) بحار الأنوار: ٩١/ ٦٤، مستدرك الوسائل: ٥/ ٣٣٥.

(٤) نور الثقلين: ٤/ ٣٠٢/ ح٢٢٤.

(٥) وسائل الشيعة: ٧/ ١٩٣، عن الكافي: ٢/ ٣٥٧/ ح٦.

(٦) وسائل الشيعة: ٧/ ١٩٢، عن الكافي: ٢/ ٣٥٨/ ح١٥.

صلى عليَّ صلى الله عليه وملائكته، فمن شاء فليُقِلّ ومن شاء فليُكثِر)[١].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله قال: (إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم عليَّ صلاة في الدنيا، من صلى عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا، ثم يُوكِلُ الله بذلك ملكاً يدخله في قبري كما يدخل عليكم الهدايا يخبرني بمن صلّى عليَّ باسمه ونسبه إلى عشرة فأثبته عندي في صفحة بيضاء)[٢].

وروى الشيخ الصدوق في العيون عن الرضا (عليه السلام) قوله: (مَن لم يقدر على ما يكفِّر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً)[٣].

وبالمقابل فقد ذمّت الأحاديث الشريفة من تكاسل عن هذا الفعل الكريم، روي عن النبي قوله: (إن أبخل الناس من ذُكِرت عنده ولم يصلِّ عليَّ)[٤]، ويُخشى على تاركها أن يكون منافقاً، فقد روى الكليني بسند صحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله : الصلاة عليَّ وعلى أهل بيتي تُذهِبُ النفاق)[٥].

---

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ١٩٤، عن الكافي: ٢/ ٣٥٨/ ح١٣-ح٨.

(٢) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٤.

(٣) سفينة البحار: ٥/ ١٧٠، عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٢/ ٢٦٥.

(٤) كنز العمال: ٢١٤٤.

(٥) وسائل الشيعة: ٧/ ١٩٣، عن الكافي: ٢/ ٤٩٢/ ح٨.

وروى في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن رسول الله قوله: (من ذُكِرت عنده فنسي أن يصلي عليَّ أخطى الله به طريق الجنة)[١]، أي جعله يتخطاه أي يتعداه، وروى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما اجتمع في مجلس قوم لم يذكروا الله ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرةً عليهم يوم القيامة، قال أبو جعفر (عليه السلام): إن ذكرنا من ذكر الله وذكر عدوّنا من ذكر الشيطان)[٢].

وروى أيضاً عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا ذُكر النبي فأكثروا الصلاة عليه فإنه من صلى على النبي صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلى على العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته)[٣].

ويستحب إعلان الصلاة والإجهار بها لتثبيت الانتماء والهوية والصدع بها والتزام الطاعة والتسليم للقائد الديني، روى عن الإمام الصادق (عليه السلام) بنفس السند قوله: (قال رسول الله : ارفعوا أصواتكم بالصلاة عليَّ فإنها تُذهب النفاق)[٤]، وكان الطغاة والحكام المنحرفون يعرفون هذا المعنى ويقلقون منها، وحكم على كثير من المؤمنين بالسجن بضع سنوات في عهد النظام البائد لأنهم رفعوا أصواتهم

---

(١) بحار الأنوار: ١٧/ ٣١.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ١٩٨، عن الكافي: ٢/ ٣٦٠/ ح٢.

(٣) سفينة البحار: ٥/ ١٧٣، عن الكافي: ٢/ ٤٩٢/ ح٦.

(٤) وسائل الشيعة: ٧/ ١٩٣/ ح٢، عن الكافي: ٢/ ٤٩٣/ ح١٣.

بالصلوات، عندما أعلن عبدالله بن الزبير دولته في مكة ذكرت الأخبار (تحامل عبد الله بن الزبير على بني هاشم تحاملاً شديداً، وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد في خطبته، فقيل له: لم تركت الصلاة على النبي؟ فقال: إن له أهل سوء يشرئبون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به)[1].

إن صلاتنا لا قيمة لها في جنب صلاة الله تعالى، لكن بفضله وكرمه أراد تشريفنا وتكريمنا بذلك، وأن ينشئ هذه العلاقة الوثيقة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين المعصومين الهداة (صلوات الله عليهم أجمعين) وبين أتباعهم وأن تكون هذه العلاقة متبادلة ومستمرة ﴿يُصَلُّونَ﴾ فهم يصلّون على نبيّهم ويسلّمون له وعليه، وفي ذلك اعتراف بفضله على الناس جميعاً وإظهار لعظمته وسموّ منزلته، وردٌّ على مَن يسيئون إليه وينتقصون منه، وهو كذلك يصلي ويسلّم عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام:٥٤)، وقال تعالى:﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة:١٠٣).

والصلاة على النبي وآله تستنزل كل خير وتدفع كل شرّ، قال النبي : (صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم وزكاة لأعمالكم)[2]، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (كل دعاء محجوب حتى يُصلّى على النبي صلى الله عليه وآله)[3]، فبها نبدأ وبها نختم لأنها

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٦١.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ٩٦.

(٣) كنز العمال: ٢١٥٣.

دعاء حتمي القبول ولا يرَدُّ، وحاشا لكرم الله تعالى أن يقبل الطرفين ويردّ ما بينهما، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (من كانت له إلى الله حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله ثم يسأل حاجته ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد فإن الله عز وجل أكرمُ من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط إذا كانت الصلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه)[1].

أعمالنا بين القبول وردّها إلا الصلاة على النبي محمدِ

(١) بحار الأنوار: ٩٠/ ٣١٦.

بسمه تعالى

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]

سورة الكوثر أقصر سور القرآن، روى الشيخ الصدوق في فضل السورة بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (مَن كانت قراءته: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ في فرائضه ونوافله، سقاه الله من الكوثر يوم القيامة وكان مُحَدَّثه عند رسول الله صلى الله عليه وآله في أصل طوبى)[1].

والسورة منها تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) وتطييب لنفسه من الضيق والألم والحزن الذي سبّبه الخصوم وتذكير له (صلى الله عليه وآله) ببعض نعم الله تعالى العظيمة عليه، وتكليفه إزاء هذه النعم بالصلاة والنحر، وتكليفنا أيضاً لأننا نحن المستفيدون من هذا الكوثر والمتنعمون به في الدنيا والآخرة.

روي في سبب نزولها عن ابن عباس قال: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل من باب الصفا وخرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: مَن استقبلك يا أبا عمرو آنفاً؟ قال: ذلك الأبتر، يريد به النبي صلى الله عليه وآله، حتى أنزل الله هذه السورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ يعني عدوك العاص بن وائل هو الأبتر من الخير، لا أذكرُ في مكان إلا ذُكرتَ معي يا محمد، فمَن ذكرني ولم يذكرك ليس له في الجنة نصيب)[2] وفي تفسير القمي (وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له ولد

---

(١) ثواب الأعمال:١٢٦.

(٢) الدر المنثور:٨/٦٤٦.

سمي أبتر، ثم قال عمرو: إني لأشنأ محمداً أي أبغضه، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك عمرو بن العاص وهو الأبتر يعني لا دين له ولا نسب)[١].

ونقل في تفسير البرهان أن عمرو بن العاص لما ولي مصر من قبل معاوية بذل مائتي ألف درهم لمحو آية ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ فلم يفلح، (فبلغ ذلك معاوية فكتب إليه: قد بلغني ما قلت على منبر مصر ولست هناك)[٢].

ويظهر من بعض الروايات أنها نزلت في المدينة أيضاً مرة أو أكثر، فقد روي عن ابن عباس قال: (قدم كعب بن الأشرف[٣] مكة فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابئي المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة؟ قال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ونزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١-٥٢])[٤].

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٤٤٥.

(٢) البرهان في تفسير القرآن: ١٠/ ٢٥٣، ح ١٩.

(٣) من زعماء اليهود في المدينة كان يحرّض قريشاً على حرب النبي (صلى الله عليه وآله) والقضاء عليه ويتعرض لنساء المسلمين فدبر له أحد الصحابة مكيدة وقتله.

(٤) الدر المنثور: ٨/ ٦٥٢.

والكوثر ((فوعل من الكثرة، وهو الشيء الذي شأنه الكثرة))[١] على نحو نوفل وهو كثير النوافل، فهو من صيغ المبالغة، لذا قيل في معناه أنه الخير الكثير كما في معجم مقاييس اللغة وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وقيل أنه ((الخير العظيم الذي أُعطيه النبي صلى الله عليه وآله))، ويقال: تكوثر الشيء كثر كثرة متناهية، قال الشاعر: (وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا) كما في المفردات، هذا بلحاظ الفعل وقد يطلق بلحاظ الفاعل فيقال للرجل المعطاء السخي: (الكوثر) كما في المقاييس والمفردات، وعلى هذا فالنبي (صلى الله عليه وآله) كوثر في نفسه لأنه أعظم الخلق بركة وخيراً على كل المخلوقات ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وكذا أهل بيته المطهرون فهم (أولياء النعم) و (مساكن بركة الله ومعادن حكمة الله) (والرحمة الموصولة) وغيرها من المعاني الواردة في زيارة الجامعة الكبيرة وفيها (بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزّل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)[٢]، ولسنا فقط من نروي ذلك فقد روى عدد من علماء العامة ذكرهم في المراجعات أن الحسين بن علي صعد إلى عمر بن الخطاب، فقال له: انزل عن منبر أبي واصعد منبر أبيك، قال: فقال: إن أبي لم يكن له منبر. [قال:] فأقعدني معه فلما نزل ذهب بي إلى منزله فقال [لي]: أيْ بني، مَن عَلّمك هذا؟ قال: قلت: ما علمنيه أحد، قال: أي بني لو جعلت تأتينا وتغشانا؟ قال: فجئت يوماً وهو خال بمعاوية، وابن عمر بالباب ولم يأذن له، فرجعت فلقيني بعد فقال لي: يا بني لم أرك أتيتنا؟ فقلت: قد جئت وأنت خالٍ بمعاوية فرأيت ابن عمر

(١) مجمع البيان: ١٠/ ٢٥٨.

(٢) مصابيح الجنان: ٤٥٤.

رجع فرجعت. فقال: أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر، إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى الله ثم أنتم، قال: ووضع يده على رأسه)[١].

وأعطي الكوثر أي الخير الكثير بكل معنى سامٍ، يليق بمقامه الكريم، ومنه ما ورد في الروايات أن الكوثر نهر في الجنة[٢]، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داوود والنسائي وابن جرير والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: (أغفي رسول الله صلى الله عليه وآله إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، فقال: إنه نزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأها حتى ختمها، قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربّي في الجنة عليه خير كثير ترده أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك)[٣].

أقول: يروون هذا وغيره ثم يعتقدون بعدالة كل الصحابة وأن الله تعالى قد رضي عنهم جميعاً، وأخرج في الدر المنثور عن أنس قال: (دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: قد أعطيتُ الكوثر، فقلت: يا رسول الله وما الكوثر؟ قال: نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب، لا يشرب منه أحد فيظمأ، ولا يتوضّأ أحد منه فيشعث أبداً، لا يشربه إنسان أخفر ذمتي وقتل أهل بيتي).

---

(١) كنز العمال: ج ٧ ص ١٠٥، تأريخ دمشق، لابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله: ج ١٤ ص ١٧٦، ط. دار الفكر.

(٢) راجع الروايات ومصادرها في تفسير البرهان: ٢٤٧/١٠، والدر المنثور: ٨/ ٦٤٧.

(٣) الدر المنثور: ٦٤٧/٨.

ويمكن أن يكون معنى الكوثر: الحكمة، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والكوثر هو الخير الكثير فالحكمة من مصاديق الكوثر، وقد أوتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) الحكمة كأتمّ ما تكون قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ومن مصاديق الكوثر القرآن فإنه كتاب مبارك فيه صلاح الخلق وهدايتهم وخيرهم وفوزهم وفلاحهم، روى الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) قال: (قال النبي صلى الله عليه وآله: أُعطيت جوامع الكلم، قال الراوي: فسألت أبا جعفر عليه السلام: ما جوامع الكلم؟ قال: القرآن)[١].

وروى الطبرسي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في معنى الكوثر أنه الشفاعة، أو هو كثرة الأتباع.

وهكذا تتعدد المصاديق، روى البخاري والحاكم وغيرهما عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: ((الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه، قال الراوي: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه))[٢].

قال الطبرسي: ((وجميع هذه الأقوال تفصيل للجملة التي هي الخير الكثير في الدارين)).

---

(١) الأمالي: ٢/ ٩٩.

(٢) الدر المنثور: ج ٨/ ص ٦٤٩.

ومن أجلى مصاديق الكوثر السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) فهي الكوثر في نفسها لأنها المعصومة المطهرة سيدة نساء العالمين وتنعم الأمة ببركة عطائها إلى قيام الساعة، وهي الكوثر لأنها سبب تكاثر رسول الله (صلى الله عليه وآله) مادياً ومعنوياً لأنها البنت الوحيدة للنبي (صلى الله عليه وآله) ومنها كانت ذريته الطيبة المباركة المعصومة وهم الأئمة الطاهرون وسادة الخلق أجمعين حجج الله تعالى على خلقه ومنهم تَكثّر نسل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليبلغ الملايين بينما انقطع نسل أعدائه ومبغضيه مصداقاً لقوله (صلى الله عليه وآله): (كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي)[1] وقوله (صلى الله عليه وآله): (إن الله عز وجل جعل ذرية كل نبي من صلبه خاصة وجعل ذريتي من صلبي ومن صلب علي بن أبي طالب، إن كل بني بنت ينسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة فإني أنا أبوهم)[2].

وهذا المعنى هو أوضح المعاني بشهادة ما نقلناه من سبب النزول، وبمقتضى المقابلة مع وصف مبغضيه بالأبتر وهو مقطوع النسل والخير، فإنهم بعد أن عجزوا عن مواجهة النبي (صلى الله عليه وآله) والقضاء على دين الإسلام علّقوا آمالهم على وفاته (صلى الله عليه وآله) لينتهي أمره باعتباره أبتراً لا ولد له، فأعطاه الله الكوثر مادياً بكثرة نسله من ابنته الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ومعنوياً بتنصيبه علياً (عليه السلام) خليفة له وحاملاً لرسالته وهكذا حفظ الدين.

---

(١) تفسير الميزان: ج ١٥ / ص ٧٥، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٢١/ ص ٦٧ باختلاف يسير.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٣ / ص ٢٨٤.

قال العلامة الطبرسي (رضوان الله عليه): ((وفي هذه السورة دلالات على صدق نبينا (صلى الله عليه وآله) وصحة نبوته أحدها: إنه أخبر عمّا في نفوس أعدائه، وما جرى على ألسنتهم، ولم يكن بلغه ذلك، فكان على ما أخبر.

وثانيها: إنه قال ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فانظر كيف انتشر دينه، وعلا أمره، وكثرت ذريته، حتى صار نسبه أكثر من كل نسب، ولم يكن شيء من ذلك في تلك الحال.

وثالثها: إن جميع فصحاء العرب والعجم، قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها مع تحديه إياهم بذلك، وحرصهم على بطلان أمره، منذ بعث النبي (صلى الله عليه وآله) إلى يومنا هذا. وهذا غاية الإعجاز.

ورابعها: إنه سبحانه وعده بالنصر على أعدائه، وأخبره بسقوط أمرهم، وانقطاع دينهم، أو عقبهم، فكان المخبر على ما أخبر به.

هذا وفي هذه السورة الموجزة من تشاكل المقاطع للفواصل، وسهولة مخارج الحروف، بحسن التأليف، والتقابل لكل من معانيها، بما هو أولى به، ما لا يخفى على من عرف مجاري كلام العرب))[1].

أقول: في الآية وعد مؤكد بأن مبغضي النبي (صلى الله عليه وآله) ورسالتِه العظيمة والمسيئين إليه وإلى دين الإسلام والقرآن بالكلام أو بالرسوم أو بحرق المصحف أو بافتراء الأحاديث وتشويه السمعة سيكون مصيرهم انقطاع ذكرهم واندثار أمرهم وبتر وجودهم وهذا ما أثبتته الوقائع سابقاً ولاحقاً، ولو كان عنده شيء من متاع الدنيا الزائلة فإنه لا قيمه له مقابل ما خسره من خير الدنيا والآخرة.

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠/ ص ٢٥٩-٢٦٠.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾ ﴿آل عمران:١٦٤﴾

السيدة الزهراء (عليها السلام) تذكّر الأصحاب بنعمة[١] النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

(المنّ) ما يوزن به للأثقال الكبيرة[٢]، وأشير به إلى ثقل هذه النعمة، وهي بعثة النبي بالرسالة الإلهية، والمنّ من الله حسن لأنه إنعام فعلي، وكذا يحسن من الانبياء (صلوات الله عليهم اجمعين) ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص: ٣٩)؛ لان عطاءهم بغير جزاء، وإنما قبح المنّ من الناس لأنه بالقول والكلام مما يسيء للآخر ويوجب مهانته ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (والمَنّ مفسدة للصنيعة)[٣].

ففي الآية تذكير مؤكّد باللام و(قد) بالمنّة العظيمة التي وهبها الله تعالى لعباده المؤمنين جميعاً من أول الإسلام إلى نهاية الدنيا لأن لفظ المؤمنين عام، ولا تختص هذه المنّة بمن كانوا على عهد النبي وإن كانوا هم المخاطبين لوضوح

---

(١) قبس من نور القرآن ضمن درس التفسير الأسبوعي الذي ألقاه سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على فضلاء وطلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف يوم الأربعاء ٧/جمادي الأولى/١٤٤٥هـ- الموافق ٢٠٢٣/١١/٢٢م.

(٢) أنظر: لسان العرب- ابن منظور: ١٣/ ٤١٩.

(٣) الإرشاد: ١/ ٣٠٧، بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٢١.

أثر هذه النعمة في حياتهم، بل لا تختص المنّة بالمؤمنين وإنما تعمّ جميع البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان: ١)، وإنما ذكر المؤمنون خاصة لأنهم شكروا هذه النعمة قولاً وعملاً فتنعموا بها فعلاً حينما حَرَم الآخرون أنفسهم منها بالتمرد والعصيان.

وهذه المنة العظيمة هي ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ هذا النبي العظيم بالرسالة الإلهية الخاتمة، فصفة هذا الرسول أنه يعيش في أوساطهم، يأكل الطعام مثلهم ويمشي في الطرقات معهم ويشاركهم في شؤون حياتهم، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٦) ليكون مثالاً عملياً، وأسوة حسنة لهم، ولو كان من غير جنس البشر ويعيش في غير عالمهم لاستوحشوا منه وأنكروه، وما تأثروا به حيث يدَّعون أن له خصوصية كالملائكة مثلاً.

كما أنه ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وليس فقط منهم ومثلهم في طبيعته البشرية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠) فصِلته بكم وثيقة وارتباطه النفسي بكم عميق، وفي ذلك تحفيز للمؤمنين أن يطيعوه ويعملوا بشريعته أكثر حتى تتعمق هذه الصلة النفسية به .

وذكرت الآية الكريمة مظاهر هذه المنّة العظيمة، فهو ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ التي تنزل من ربه، فهو واسطة الوحي الإلهي والفيض الرباني بين الناس وخالقهم ويوصل إليهم رسائله تعالى متتابعة حسبما تصل إليه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّر قلوبهم من الامراض المعنوية كالغلّ والحقد والانتقام ويهذّب نفوسهم من رذائل الشهوة والغضب والحرص والاستكانة والعبودية،

ويحسِّن أخلاقهم بالعلاجات الروحية التي يفيضها الله تعالى عليه فهو (طبيب دوار بطبه)[1] كما وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يشرح لهم هذا القرآن العظيم المنزل ويفسّر آياته ويبين أسراره بالسنة الشريفة، فالحكمة إما من باب ذكر الخاص بعد العام لأن من صفات الكتاب أنه حكيم، أو أنها السنة مقابل الكتاب، حيث يفتح لهم من كنوز العلوم والمعارف ما فيه سعادتهم وهدايتهم واستقامتهم وحمايتهم من الضلال والانحراف، وصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥) ﴿الرَحمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ٢).

﴿وإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فقد كانوا قبل بعثة النبي في جاهلية ظلماء، تفتك بهم الحماقات والأهواء والخرافات والحروب والصراعات، وهذا الفرق بين حال الضلال المبين الذي كانوا عليه وحالهم في الإسلام من الوحدة والتآلف والسمو والسعادة واضح لمن قارن بين الوضعين.

ووقوع هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن القرح الذي أصاب المؤمنين في أُحُد فقتل من قتل وجرح من جرح، وما أعقبه من الهزيمة النفسية والشكوك التي سرت إلى عقيدتهم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٥-١٦٦) فيه تخفيف على المسلمين وتسلية عن مصائبهم، بأنهم مهما أصيبوا في

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٧، الخطبة (١٠٨).

أموالهم وأنفسهم وسائر أحوالهم الدنيوية فعليهم أن يصبروا ويحتسبوا ويتساموا على الجراح والمصائب بالتفاتهم إلى هذه النعمة العظيمة التي حباهم الله تعالى بها فتهون عليهم مصائبهم.

هذه النعمة وهي الإسلام وكمالها وتمامها ولاية أهل البيت (عليهم السلام) بحسب آية التبليغ في سورة المائدة وقوله تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1] (لقمان : ٢٠)، يلفت الإمام الصادق (عليه السلام) إليها نظر أحد المعدمين ليخفّف عنه شعوره بالحرمان، روى الشيخ الطوسي (رضوان الله تعالى عليه) في كتابه الأمالي بسنده عن الإمام الهادي (عليه السلام) عن آبائه عن موسى بن جعفر (صلوات الله عليهم أجمعين) قال (إن رجلاً جاء إلى سيدنا الصادق (عليه السلام) فشكا إليه الفقر، فقال (عليه السلام): ليس الأمر كما ذكرت وما أعرفك فقيراً. قال – الفقير ظناً منه أن الإمام (عليه السلام) يكذبّه في ما ادعى من الفقر–: والله يا سيدي ما استبنتَ – أي ما حقّقتَ في حالي وما استوضحتها لتتأكد من صدق كوني فقيراً – وذكر من الفقر قطعة والصادق (عليه السلام) يكذّبه، إلى أن قال (عليه السلام) له: خبّرني لو أعطيت بالبراءة منّا مائة دينار – والدينار يساوي مثقالاً من الذهب – كنت تأخذ؟ – أي تتبرأ من الإسلام وولاية أهل البيت (عليهم السلام) بهذا الثمن – قال: لا – وبدأ الإمام يزيد المبلغ – إلى أن ذكر الإمام (عليه السلام) ألوف الدنانير والرجل يحلف أنه لا يفعل، فقال (عليه السلام) له: مَن معه سلعة يعطى بها هذا المال وهو لا يبيعها هل هو فقير؟)[2].

لقد كان النبي سبباً لإفاضة نعم عظيمة على البشرية لا تعدّ ولا تحصى:

---

(١) راجع تفسير الآية في كتاب (من نور القرآن: ٥/ ٢٥٠).

(٢) الأمالي، للشيخ الطوسي: ٢٩٨، المجلس (١١)، ح ٥٨٤.

١-به هدانا الله للإيمان والتوحيد وأخرجنا من ظلمات الكفر والإلحاد وظلم الشرك وذلّ عبادة الآلهة المزيفة ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (الحجرات: ١٧) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ (النور: ٢١) ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٣).

٢-علّمنا الشريعة السمحاء التي تكفل كرامة الإنسان وسعادته وتضمن العدالة الاجتماعية لكل الناس ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧) ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)، وكلما ابتعد الناس عن القانون الإلهي ووضعوا لأنفسهم قوانين وقعوا في التيه والتخبّط والانحطاط وجرّوا الويلات على البشرية ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤).

٣-إنه وحّد الأمة وألّف بين قلوبهم بعد أن كانت الفرقة والتشتت والتنازع والتخاصم يفتك بهم ويفنيهم ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣) ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللَّه أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣).

٤-إنه خلّف لنا الثقلين كتاب الله وعترته أهل بيته المعصومين المطهرين (سلام الله عليهم) ليواصلوا أداء رسالته الإلهية حتى تترسخ في عقول وقلوب ونفوس الناس؛ لأن عمر النبي القصير وعدم الاستعداد الكافي للأمة حتى تتكامل بسرعة لم يسمحا بحصول التحول الكامل.

٥-اقتلع من المجتمع الأغلال الفكريّة والانحرافات العقائدية والتقاليد الاجتماعية البالية التي كانت تكبّل عقول الناس وتعيق تكامل المجتمع وتوجّه سلوكه نحو الدمار والفناء كالعصبية والجهل والتخلف والانتقام والظلم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

٦-هذّب النفوس بالأخلاق الفاضلة وطهر القلوب من الرذائل والأمراض المعنوية التي كانت تجلب الشقاء والنكد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، وضرب لهم مثلاً أعلى في الأخلاق الحميدة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) وأسوة حسنة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١) قال: (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[١].

٧-إنه الرحمة الواسعة المهداة إلى جميع المخلوقات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

٨-أكرمه الله تعالى بالشفاعة في أمته وهي من بركات المقام المحمود الذي وعده ليساعد الذين خلطوا أعمالهم الصالحة بأخرى سيئة حتى تُغفر لهم فيدخلون الجنة بلا منغصّات ولا عوائق؛ روى الشيخ الطوسي في أماليه عن أنس بن مالك قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً مقبلاً على علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يتلو هذه الآية ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩) فقال: يا علي إن ربي عز وجل ملّكني الشفاعة في أهل التوحيد من أمتي وحظر ذلك على مَن ناصبك أو ناصب ولدك من بعدك)[١].

٩-ما ورد عنه في تفسير قوله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥) أنه قال: (حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، قالوا: يا رسول الله وكيف ذلك؟ فقال صلى الله عليه وآله: أما حياتي فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وأما مفارقتي إياكم فإن أعمالكم تعرض عليَّ كل يوم فما كان من حسن استزدت الله لكم، وما كان من قبيح استغفرت الله لكم، قالوا: وقد رممت يا رسول الله؟ يعنون

(١) مجمع البيان: ١/ ٣٣٣، بحار الانوار: ٦٨/ ٣٨٢.

صرت رميماً فقال: كلا إن الله تبارك وتعالى حرّم لحومنا على الأرض أن تطعم منها شيئاً)[١].

١٠- أنه سبب لمغفرة الذنب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤).

لقد ذكّرت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) أصحاب أبيها بهذه المنّة العظيمة واحتجّت بها عليهم لتحثَّهم على الالتزام بوصية رسول الله التي بلّغها عن الله تعالى في أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، ولكي يفوا لرسول الله بأجر رسالته في أهل بيته ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣) فقالت (عليها السلام) بعد أن وصفت أحوالهم في الجاهلية: (فأنار الله بأبي محمد ظُلَمَها، وكشف عن القلوب بُهَمها، وجلّى عن الأبصار غُمَمها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم)[٢].

وقالت (عليها السلام): (وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله بعد اللتيا والتي)[٣].

---

(١) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ١/ ١٩١.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٢٧.

(٣) الاحتجاج: ١/ ١٢٩.

لكن القوم صمّوا أسماعهم عن نداء الحق ومضوا إلى تنفيذ إرادة شياطين الجن والإنس وزعيمهم يقول بنصّ العبارة: (اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت)[1] متحدياً قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: ٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾ (الأحزاب: ٣٦).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه المتبّعين للرسول الكريم .

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ٤٠٨، عن تأريخ الطبري وغيره.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾﴿القلم:٤﴾

معجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخلاقه

الآية تخاطب رسول الله وهي تقع ضمن مجموعة من الآيات الكريمة التي يظهر منها أنها نزلت لتسليته وتطييب خاطره والدفاع عن حريمه المقدَّس بعد الهجمات الشرسة التي شنها عليه طواغيت قريش فرموه بكل وصف قبيح لتنفير الناس عنه وعدم الاصغاء اليه﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (القلم:٢-٣) فالآية تعطيه أعظم المقامات واختار الله تعالى من بينها أن يصفه بهذه الخصلة العظيمة.

وفي الآية تأكيد بعد تأكيد على اخلاقه العظيمة باستعمال ﴿إِنَّ﴾ و(اللام) ثم صيغة الوصف ﴿عَلَى خُلُقٍ﴾ لتدل على رسوخها وثباتها فيه بحيث أنه تمكّن منها واستعلى عليها وجعلها تحت سلطته وتحولت الى ملكات وسجايا ذاتية، ولو قال (إن لك خلقاً عظيماً) فانها تدل على الاتصاف من دون إفادة الثبات واللزوم إذ ان ما يملك يمكن ان يفقد.

وكيف لا يكون على هذه الاخلاق العظيمة وقد صنعهُ ربه بيديه وأدّبه وربّاه وبلغ به الغاية فيما يريد قال (أدبني ربّي فأحسن تأديبي)[1]، حتى بلغ الكمال، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (إن الله تبارك وتعالى أدبَّ نبيّه فلما انتهى به الى ما أراد قال الله تعالى له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وفي رواية أخرى

(١) مجمع البيان: ٥٠/١٠، بحار الأنوار: ٣٨٢/٦٨.

(٢) أصول الكافي: ٢٦٦/١.

عنه (عليه السلام) قال: (إن الله عزوجل: أدبَّ نبيه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وقال تعالى في ذلك ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٥٩)) فما ناله النبي كان برحمة الله تعالى وحسن رعايته.

وعنوان حسن الخلق وان كان عاماً يشمل كل الاخلاق الحسنة والسجايا الكريمة، الا انه يطلق غالباً على جزء خاص منها وهو حسن المعاشرة مع الناس ومخالطتهم بالجميل والإحسان وبهذا اللحاظ يذكر حسن الخلق في عرض اخلاق حسنة أخرى رغم أنه يشملها بعنوانه العام كقول الإمام الصادق (عليه السلام): (اربع من كنّ فيه كمل ايمانه وإن كان من قرنه الى قدمه ذنوباً لم ينقصه ذلك قال:وهو الصدق وأداء الأمانة والحياء وحسن الخلق)[2] ولعل مراده (عليه السلام) بقوله: (وإن كان) مجرد فرض او المبالغة والا فأن صاحب هذه الخصال لا يكون كذلك، لأن كل صفة من الأربع كفيلة بمعالجة الكثير من الذنوب كما هو واضح.

وتشير الروايات أيضاً إلى ان هذا المعنى الذي ذكرناه لحسن الخلق هو المقصود في الآية فقد روى البرقي في بصائر الدرجات عنهم (عليهم السلام) (إن الله أدبّ نبيّه فأحسن تأديبه فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩) فلما كان ذلك انزل الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

(١) أصول الكافي: ٢٦٦/١.

(٢) أصول الكافي: ٩٩/٢، ح٣/ باب حسن الخلق.

عَظِيمٍ﴾)[١]، مع ان تلك الصفات داخلة في حسن الخلق بمعناه الاعم فهي قسم منه وليست قسيماً له الا ان يراد به المعنى الخاص.

وروي أيضاً (ان رسول الله كان يمشي ومعه بعض أصحابه فأدركه اعرابي فجذبه جذباً شديداً، وكان عليه بُرد نجراني غليظ الحاشية فأثرّت الحاشية في عنقه من شدة جذبه، ثم قال: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك، فالتفت اليه رسول الله فضحك ثم أمر باعطائه، ولما اكثرت قريش اذاه وضربه قال :اللهم اغفر لقومي فأنهم لا يعلمون فلذلك قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾)[٢].

ويؤيد كون المراد من الآية هذه الاخلاق وليست كل الاخلاق الحسنة التي اتصف بها رسول الله أنها الأنسب بسياق السورة التي تقارن بين سلوكه وسلوك المشركين وعاقبة كل منهما، قال السيد الطباطبائي (قدس سره) ((والآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه وتعظمه غير أنها بالنظر الى خصوص السياق ناظرة الى اخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على اذى الناس وجفاء اجلافهم والعفو والاغماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك))[٣].

أقول: لكن هذا كله لا يقيّد اطلاق وصف كل الاخلاق الحسنة التي اتصف بها رسول الله العظيمة على جميع المستويات.

---

(١) بصائر الدرجات: ٣٧٨.

(٢) تنبيه الخواطر: ٩٩/١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٣٨٥/١٩.

وبهذه الاخلاق كسب قلوب الناس فاهتدوا ببركتها الى الإسلام، في الرواية (كان رسول الله أجود الناس كفّاً وأكرمهم عِشرة، من خالطه فعرفه أحبَّه)[1] وكان اعداؤه قبل اتباعه يعلمون عظمة اخلاق رسول الله ، لما فتح النبي مكة ومكّنه الله تعالى من قريش التي اذاقته القتل والتجويع والتهجير والوان الأذى والعذاب (ودخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون أن السيف لايرفع عنهم، فأتى رسول الله البيت وأخذ بعضادتي الباب ثم قال: لا إله إلا الله أنجز وعده، ونصر عبده، وغلب الاحزاب وحده، ثم قال: ما تظنون؟ وما أنتم قائلون؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن عم، قال: فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:﴿٩٢﴾))[2].

وروى في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (نزل رسول الله في غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه فرآه رجل من المشركين والمسلمون قيام على شفير الوادي ينتظرون متى ينقطع السيل فقال رجل من المشركين لقومه: أنا أقتل محمداً فجاء وشد على رسول الله بالسيف، ثم قال: من ينجيك مني يا محمد؟ فقال: ربي وربك فنسفه جبرئيل (عليه السلام) عن فرسه فسقط على ظهره، فقام رسول الله وأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك مني يا غورث فقال جودك وكرمك يا محمد، فتركه فقام

(١) بحار الأنوار: ٢٣١/١٦.

(٢) بحار الأنوار: ٢١/ ١٣٢.

وهو يقول: والله لانت خير مني وأكرم)[١]، وقال : (أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً وخيركم لأهله)[٢].

وان أهم الشواهد على عظمة أخلاقه تلقيه هذا الثناء وهذه الشهادة من الخالق العظيم دون ان يأخذه العجب او يشمخ بأنفه ويتعالى على الاخرين كأغلب الناس حينما يحصلون على ثناء وتبجيل من كبرائهم، ولم تضطرب أفكاره أو يفقد اتزان شخصيته او يتملكه عارض غير حسن، فتلقى هذا التكريم من ربّه العظيم بنفس مطمئنة راضية متواضعة وقد حفلت كتب السيرة والحديث والتاريخ بشواهد لا تحصى من أخلاقه العظيمة.

إن هذه الاخلاق السامية التي اتصف بها رسول الله دليلٌ واضحٌ على نبوته ورسالته وانه من صنع الله تعالى فحسب ولم يكن من صنع بيئته وظروفه أو تلقيّه من أحد لأن هذه المسمّيات كلها عاجزة عن انتاج مثل شخصية رسول الله حيث كانت تلك البيئة والمجتمعات غارقة في الانحراف والفساد والجهل والضلال والتخلف.

إن أخلاق النبي معجزة يتحدى بها الله تعالى من يدعون من دونه ليأتوا بنسخة مماثلة له وأنى لهم ذلك، فالآية نظير قوله تعالى ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (لقمان:١١) وهذه اخلاق الله تعالى المتمثلة بالنبي فأروني هي أخلاق الذين من دونه؟ حيث لم يكونوا الا على النقيض من ذلك، وقد صوّرت السورة بعد أن بيّنت ما عليه رسول الله من الخلق العظيم والأجر غير

---

(١) الكافي: ٨/ ١٢٧/ ح٩٧، بحار النوار: ٢٠/ ١٧٩/ ح٦.

(٢) عيون اخبار الرضا (عليه السلام): ٢/ ٣٨.

المنقطع الذين يتصدون لمقاومته بما يستحقون من الأوصاف القبيحة ونهت عن اتباعهم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ[1] مَهِينٍ۞ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ۞ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ۞ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ۞ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم:١٠-١٦)، وهذه هي اوصاف المستهزئين برسول الله أمس واليوم كما هو واضح.

ان اختيار هذه الصّفة في رسول الله لتمجيدها والثناء عليها دليل على ثقل الاخلاق الحسنة في الميزان الإلهي والأمر كذلك حتى انك لتجد الغرض المطلوب من العقائد والتشريعات هو الاتصاف بهذه الاخلاق الحسنة وتربية الأمة عليها وقد لُخّص الغرض في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)وقد صرّح النبي بهذا الغرض بقوله:(إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)[2]،ولخّص شريعة الإسلام بالأخلاق الحسنة قال: (الإسلام حسن الخلق)[3].

---

(١) (حَلَّافٍ) كثير الحلف واليمين (مَهِينٍ) وضيع ضعيف الرأي حقير، (هَمَّازٍ) طعّان في اعراض الناس عيّاب (مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) يمشي بالنميمة بين الناس فيفرّق بينهم ويلقي العداوة والبغضاء (مَنَّاعٍ) ممسك عن الانفاق بخيل (مُعْتَدٍ) ظالم متجاوز الحدود (أَثِيمٍ) كثير الأثم والخطايا (عُتُلٍّ) غليظ جافي (زَنِيمٍ) دعيّ لا يُعرف أبوه.

(٢) مجمع البيان: ١٠/ ٥٠٠.

(٣) كنز العمال: ٥٢٢٥، ميزان الحكمة: ١٣٣/٣.

وكان يحث اتباعه على حسن الخلق كأفضل ما يدعو اليه، روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: (قال رسول الله ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق)[١]، وقال : (إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم)[٢]، ونقل الإمام الصادق (عليه السلام) قول جده رسول الله : (أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق)[٣]، وقال : (ثلاث من لم تكن فيه فليس مني ولا من الله عزوجل، قيل: يا رسول الله وما هنَّ، قال :حِلْمٌ يرد به جهل الجاهل، وحُسن خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معاصي الله عزوجل)[٤].

وقال (أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً)[٥]، وقال لزوجه ام سلمة (يا أم سلمة ان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة)[٦].

ان حسن الأخلاق ليس أمراً ترفياً أو كمالياً بل فيه قوام الحياة، قال : (لو يعلم العبد ما في حسن الخلق لعلم أنه محتاج أن يكون له خلق حسن)[٧]، وبه سعادة الآخرة كما تقدم في الأحاديث الشريفة مع سعادة الدنيا، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (لا عيش أهنأ من حسن الخلق)[٨]، وتزداد الحاجة اليه لمن يكون في

---

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٣٧/ ٩٨.

(٢) أصول الكافي: ٢/ ١٠٠/ ح٤، باب حسن الخلق.

(٣) أصول الكافي: ٢/ ١٠٠/ ح٦، باب حسن الخلق.

(٤) الخصال: ١/ ١٤٥/ ح١٧٢.

(٥) تفسير البرهان: ح٩، عن تفسير علي بن ابراهيم.

(٦) الخصال: ١/ ٤٢.

(٧) بحار الأنوار: ١٠/ ٣٦٩/ ح٢٠.

(٨) علل الشرائع: ٥٦٠/ ح١، ميزان الحكمة: ٣/ ١٣٤.

مواقع المسؤولية على اختلاف درجاتها كرب الأسرة ومدير الدائرة والمعلم في مدرسته والمربي والحاكم وغيرهم، روى الإمام الجواد (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء فاني سمعت رسول الله يقول:إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)[1] وفي أحاديث أخرى خاطب بني هاشم بهذا.

وأساس الأخلاق الحسنة الإسلام والايمان بالله تعالى، ففي معاني الأخبار عن الإمام الباقر (عليه السلام) في قول الله عزوجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال: (هو الإسلام)[2]، وروي ان الخلق العظيم هو الدين العظيم[3] فان النبي جسّد القرآن وتعاليم الإسلام في حياته فكان أعظم الناس أخلاقاً حتى وصفه الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان رسول الله خلقه القرآن)[4]، وهذا يعني ان طريق الوصول الى المقامات الرفيعة يمرّ من خلال القرآن، وكل شخص يرتفع سهمه من الاخلاق كلما ازداد اتباعاً للقرآن والتزاماً بالإسلام مما يدل على أنَّ الاخلاق التي يدعو اليها الإسلام ليست مقتصرة على الاخلاق الشخصية كالصدق والأمانة والشجاعة والكرم والإحسان ونحو ذلك وإنما يسعى إلى تأسيس منظومة اخلاقية اجتماعية متكاملة تؤسس لمنهج عادل قويم يحفظ كرامة الانسان ويكفل له سعادته.

---

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) : ٢/ ٥٣، امالي الصدوق: ٣٦٢/ المجلسي: ٦٨/ ح٩

(٢) معاني الأخبار: ١/ ١٨٨.

(٣) تفسير البرهان: ٣/ ٢٣٧/ ح٢٥، عن تفسير علي بن ابراهيم.

(٤) تنبيه الخواطر: ٧٢، ميزان الحكمة: ٣/ ١٣٥.

ومن هنا ينفتح الحديث عن الاخلاق الاجتماعية أي اخلاق الأمة كأمة غير اخلاق الأفراد كأفراد ويجعل الأمة كلها مسؤولة عنها ومن تلك الاخلاق، القيام بواجبات المواطنة وحفظ مصالح الدولة والشعب وحقوق الأقليات والتكافل والتعاون على البِّر والتقوى والعدالة الاجتماعية والتناصح والتواصي بالحق والصبر والمرابطة في ثغورها وتحصين الأمة فكرياً وعقائدياً وثقافياً وسلوكياً والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى رأس الاخلاق الاجتماعية إقامة الدين وحفظ وحدة الأمة وتماسكها ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى:١٣) وقد سمّينا في بعض بحوثنا مثل هذه الواجبات بالواجبات الاجتماعية في مقابل مصطلح الوجوب الكفائي[١] الذي يردده المشهور وشرحنا الوجه في ذلك.

ان سلوك الانسان وعاداته وصفاته قابلة للإصلاح والتغيير فليس صحيحاً ما يقال من انها غير قابلة لذلك وإن الانسان مسيَّر وفق ما جبلت عليه نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١) ولذا تواترت الأنبياء والرسل لهداية الخلق وإصلاحهم، وألفّ العلماء كتباً في تهذيب الأخلاق واودعوها برامج في سلوك هذا الطريق، نقل العلامة المجلسي (قدس) عن الراوندي (رحمه الله) قال: ((الخلق السجيّة والطبيعة ثم يستعمل في العادات التي يتعودها الانسان من خير أو شر، والخُلق ما يوصف العبد بالقدرة عليه، ولذا يُمدَح ويُذّم، ويدل على ذلك قوله خالق الناس بخلق حسن))[٢].

---

(١) راجع: فقه الخلاف: ٨/ ١٥٩، ط. الثانية

(٢) بحار الأنوار: ٧١/ ٣٧٤.

إن مساحة الأخلاق الحسنة كلما اتسعت في المجتمع فانها تعود بالخير على الجميع، وقد يمنّ الله تعالى على اعدائه ببعض الاخلاق الحسنة لمصلحة اوليائه ففي الكافي ان الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ان الله عزوجل أعار اعدائه اخلاقاً من اخلاق اوليائه لتعيش اولياؤه مع اعدائه في دولاتهم، وفي رواية أخرى:ولو لا ذلك لما تركو ولياً لله عزوجل الا قتلوه)[1].

(١) الكافي: ٢/ ١٠١.

تطبيق: معجزة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) تبيّن أخلاقه

روى لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) معجزة تحققت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان شاهداً عليها، نذكرها تبركاً وإحياءاً لهذه المنقبة العظيمة ولنأخذ منها بعض الخصائص النفسية والسمو الأخلاقي عند رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فمن خطبة جليلة لأمير المؤمنين(عليه السلام) تسمى القاصعة قال: (ولَقد كُنتُ مَعَهُ لَمّا أتاهُ المَلأُ مِن قُرَيشٍ، فَقالوا لَهُ: (يا مُحَمّدُ، إنّكَ قَدِ ادّعَيتَ عَظيما لَم يَدّعِهِ آباؤكَ، ولا أحَدٌ مِن بَيتِكَ، ونحنُ نَسألُكَ أمرا إن أنتَ أجَبتَنا إلَيهِ، وأرَيتَناهُ عَلِمنا أنّكَ نَبِيٌّ ورسولٌ، وإن لَم تَفعَل عَلِمنا أنّكَ ساحِرٌ كَذّابٌ). فَقالَ (صلى الله عليه وآله): (وما تَسألونَ؟) قالوا: (تَدعو لَنا هذهِ الشّجَرَةَ حَتّى تَنقَلِعَ بِعُروقِها وتَقِفَ بَينَ يَدَيكَ)، فَقالَ : (إنّ اللّهَ عَلى كُلّ شَيءٍ قَديرٌ، فَإن فَعَلَ اللّهُ لَكُم ذلِكَ أتُؤمنونَ وتَشهَدونَ بِالحَقّ؟) قالوا: (نَعَم). قالَ: (فَإنّي سَأُريكُم ما تَطلُبونَ، وإنّي لَأعلَمُ أنّكُم لا تَفيؤونَ إلى خَيرٍ، وإنّ فيكُم مَن يُطرَحُ فِي القَليبِ، ومَن يُحَزّبُ الأحزابَ) ثُمّ قالَ : (يا أيّتُها الشّجَرَةُ إن كُنتِ تُؤمنينَ بِاللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وتَعلَمينَ أنّي رَسولُ اللّهِ، فَانقَلِعي بِعُروقِكِ حَتّى تَقِفي بَينَ يَدَيَّ بِإذنِ اللّهِ!) فَوَالّذي بَعَثَهُ بِالحَقّ لَانقَلَعَت بِعُروقِها، وجاءَت ولَها دَوِيٌّ شَديدٌ، وقَصفٌ كَقَصفِ أجنِحَةِ الطّيرِ، حَتّى وَقَفَت بَينَ يَدَي رَسولِ اللّهِ مُرَفرِفَةً، وألقَت بِغُصنِها الأعلى عَلى رَسولِ اللّهِ ، وبِبَعضِ أغصانِها عَلى مَنكِبي، وكنتُ عَن يَمينِهِ . فَلَمّا نَظَرَ القَومُ إلى ذلِكَ قالوا عُلُوّا وَاستِكبارا: (فَمُرها فَليَأتِكَ نِصفُها ويَبقى نِصفُها)، فَأمَرَها بِذلِكَ، فَأقبَلَ إلَيهِ نِصفُها كَأعجَبِ إقبالٍ وأشَدِّهِ دَوِيّا، فَكادَت تَلتَفُّ بِرَسولِ اللّهِ ، فَقالوا كُفرا وعُتُوّا: (فَمُر هذا النِّصفَ فَليَرجِع إلى نِصفِهِ كَما كانَ، فَأمَرَهُ فَرَجَعَ، فَقُلتُ أنا: (لا إلهَ إلا اللّهُ، إنّي أوّلُ مُؤمنٍ بِكَ يا رَسولَ اللّهِ، وأوّلُ مَن أقَرّ بِأنّ

الشّجَرَةَ فَعَلَت ما فَعَلَت بِأمرِ اللّهِ تَعالى تَصديقا بِنُبُوّتِكَ، وإجلالا لِكَلِمَتِكَ)، فَقالَ القَومُ كُلُّهُم: (بَل ساحِرٌ كَذّابٌ، عَجيبُ السِّحرِ خَفيفٌ فيهِ، وهَل يُصَدِّقُكَ في أمرِكَ إلا مِثلُ هذا؟) (يَعنونَني)[1].

ما الذي نستفيده؟

أقول: مما نستفيده منها باختصار:-

١- أدبه (صلى الله عليه وآله) مع ربه تبارك وتعالى ومعرفته التامة بالله تعالى وأنه لا يملك شيئاً أمام ربّه وأنّه (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) فيقول للمشركين لما سألوه (فإن فعل الله لكم ذلك) ولم ينسب الفعل إلى نفسه فما من شيء يتحقق له إلا بلطف الله تعالى وفضله وكرمه، بعكس منطق الغافلين والبعيدين عن الله تعالى فإنّهم يرون لأنفسهم شيئاً ويتبجحون به ويتفاخرون ويطغون، كما حكى الله تعالى عن قارون قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص:٧٨)، ويأتي التعليق الإلهي ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص:٧٨).

والقرآن الكريم حرص كثيراً على ترسيخ هذه المعرفة قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧)، وقال تعالى في فرعون وقومه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء:٥٧-٥٨)، مع أن فرعون وجيوشه هم الذين قرروا الخروج لكن بتدبير إلهي.

٢- عدم اليأس من هداية الناس والدعوة إلى الله تبارك وتعالى وإصلاح

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٤١٢/ الخطبة: ١٩٠.

الأمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والإرشاد والتوجيه، حتى لو كان يعلم بعناد الآخر وإصراره على الخطأ فيقول (صلى الله عليه وآله) (وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير) فلم يتوقف ويقول ما الفائدة من دعوة هؤلاء وهم لا يُرجى منهم خير؟ لأن الأمور والنتائج والعواقب بيد مدبّرها الحقيقي، وليس على الإنسان إلا السعي الحثيث بكل ما أتاه الله تعالى، وقد مدح الله تعالى قوماً وأنجاهم من العذاب لأنّهم لم يتقاعسوا عن أداء وظائفهم الإلهية مع اليأس ظاهراً من هدايتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:١٦٤).

٣- اعتماد لغة الحوار والحجة والبينة مع الآخر لتحصيل القناعة بالأمر وعدم إكراههم على شيء أو استخدام وسائل العنف والضغط لإجبارهم على اعتناق ما تعتقد به، ولو كنت تملك القوى الخارقة الغيبية، وهذا هو منطق القرآن الكريم ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦) ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف:٤).

٤- قساوة القوم الذين بُعث لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهمجيتهم بحيث يجري لهم كل هذه المعجزات وهم يصرّون على عنادهم واستكبارهم قال تعالى فيهم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾ (البقرة:٧٤) وقلوب أولئك كانت من القسوة بحيث لم تسمح بتفجير شيء من ينابيع المعرفة والإيمان فيها، فالجبل يتصدع من هذه الكلمات وهم موتى لا حراك فيهم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ

خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢١) وإلى اليوم نرى مثل هؤلاء الأقوام الذين تقام عليهم الحجج والبيّنات الدامغة، ولا جواب لهم إلا العناد والاستكبار والمضي على منهجهم المنحرف ومثل هؤلاء أتذكرهم عندما أصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٧٥).

٥- شفقة رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي لا حدود لها وقلبه الكبير بحيث لا يتوانى عن تقديم أي عمل ما دام يُرجى منه صلاح الآخرين وهدايتهم رحمةً بهم لانقاذهم مما هم فيه من الضلال حتى لو كانوا من أسوأ خلق الله تعالى وأقساهم فلم يكن (صلى الله عليه وآله) كأسلافه الصالحين من الأنبياء الذين دعوا على أقوامهم بالهلاك ﴿لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح:٢٦) وغاية ما كان يقول (صلى الله عليه وآله) عندما يصيبوه بالأذى والتكذيب (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[1] ولم يثنه (صلى الله عليه وآله) عن المضي معهم استهزاؤهم وسخريتهم الواضحة من مطلبهم التعجيزي وكأنهم يتهكمون برسول الله (صلى الله عليه وآله) ويسفّهون دعوته.

إن وجود مثل هذا القلب الشفيق الرحيم خير حافز على العمل الإنساني النبيل، وهو موجود لدى الكثيرين ولكنه يحتاج إلى تحريك وإثارة والدليل على ذلك انه عندما يوجد انسان مبتلى أو مصاب بنكبة أو عاهة أو معدم يحتاج إلى مساعدة فإن الكثيرين تهتز قلوبهم بالشفقة والرحمة ويهبون لنجدته ومساعدته، وهذا عمل عظيم ولكن أليس أهم منه أن نهَّب لهداية الضّال وفاقد البصيرة

(١) إقبال الأعمال- الشيخ الصدوق: ٣٨٥.

والمنحرف والجاهل وهؤلاء أولى بالمساعدة والشفقة والرحمة، لأن حياتهم الباقية الدائمة في خطر، وهي أهم من حياتهم الدنيا.

٦- والدرس الأخير نأخذه من أمير المؤمنين (عليه السلام) بروايته لهذه المنقبة النبوية الشريفة، ولعلها كانت تضيع علينا لو لم ينقلها لنا أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلنتعلم منه أن لا نبخل على الناس بما نتعلمه من مسألة شرعية أو موعظة أو نصيحة أو منقبة وفضيلة لأهل البيت (عليهم السلام) أو شيء من سيرتهم الصالحة وأخلاقهم السامية، أو كلمات العلماء ومواقفهم ومآثرهم وبذلك تنتشر الهداية ويزكو العلم والعمل الصالح وينمو ففي الحديث (العلم يزكو بالإنفاق)[1].

(١) البحار: ٧٥/ ٧٦.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ﴿الأحزاب:٢١﴾

دعوة الى التأسي برسول الله (صلى الله عليه وآله)

الاسوة بمعنى القدوة الذي يُتبَّع في الأقوال والأفعال والصفات الشخصية، فالأسوة لك هو من لك به اقتداء والأسوة من الاتسّاء كالقدوة من الاقتداء فهو اسم وضع موضع المصدر على وزنُ فعله كاللُقمة والأُكلة حيث تقال لما يُفعل به فالأسوة ما يؤتسى به وأصلها (أسو) بمعنى المداواة والإصلاح لذا يوصف الطبيب بأنه (آسي)، ويصلح به من الأفعال والصفات[١].

والآية وإن كانت بصيغة الأخبار الا انها تتضمن الدعوة والالزام بالتأسي برسول الله في أقواله وأفعاله وغاياته وأهدافه وصفاته وملكاته لأن الانسان لابد له من أسوة وقدوة ليتعلم منه ويأخذ عنه، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (الا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه)[٢] فعليه أن يتحقق من كون الأسوة حسنة صالحة ليتبعها قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من توفدون في دينكم وصلاتكم)[٣].

وتضيف الآية بأنه لا يستجيب لهذه الدعوة ولا ينتفع بها الا من وثق بالله تعالى وما عنده من الثواب الجزيل وخاف الآخرة وحرص على جلب الخير

---

(١) أنظر: تفسير مجمع البيان – الشيخ الطبرسي: ٨/ ١٤٤.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٤٥، من كتابه الى عثمان بن حنيف.

(٣) ميزان الحكمة : ١/ ١٢٤، عن البحار: ٢٣/ ٣٠/ ٤٦.

والسعادة والكمال والفوز في الآخرة لنفسه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١).

ومن الطبيعي أن يختار الله تعالى لنا رسوله الكريم ليكون الأسوة الحسنة لنا لأنه أكمل الخلق وأرقى نماذج الإنسانية وقد اجتمعت فيه كل صفات الكمال، وكيف لا يكون كذلك وقد تولى الله تعالى صنعه وتربيته وتأديبه بحسب الحديث الشريف (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[١]، ومن بعده الائمة المعصومون (عليهم السلام) من اهل بيته، قال (صلى الله عليه وآله): (من سره أن يحيى حياتي، ويموت مماتي ويسكن جنة عدن التي غرسها الله فليوال عليا من بعدي، وليوال وليه، وليقتد بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي، رزقوا فهما وعلما)[٢]، وعنه قال في بيان منزلة الائمة (عليهم السلام): (هم أبواب العلم في امتي، من تبعهم نجا من النار، ومن اقتدى بهم هدي الى صراط مستقيم، لم يهب الله عز وجل محبتهم لعبد الا ادخله الجنة)[٣].

وبذلك يكون اتخاذ رسول الله أسوة حسنة طريقاً لتطبيق الآية ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل:٦٠) فقد صنعه الله تعالى ليكون وسيلة تحقيق هذا الغرض فهو كتاب الله الناطق، حتى وصفه الإمام الصادق (عليه السلام) بذلك قال: (كان رسول الله خلقه القرآن)[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢١٠، ٦٨/ ٣٨٢، ١٠٨/ ٢٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ١٣٩/ ح٨٥.

(٣) ميزان الحكمة: ١/ ١١٦، عن امالي الصدوق: ٧٤/ ٤٢.

(٤) تنبيه الخواطر: ٧٢، ميزان الحكمة: ٣/ ١٣٥.

فالتأسي به (صلى الله عليه وآله) اتباع للقران الكريم، قال (صلى الله عليه وآله): (الا واني تارك فيكم الثقلين: احدهما كتاب الله عز وجل، هو الحبل الى الله، ومن تبعه كان على هدى، ومن تركه كان على الضلالة) فاصل ما يُتأسى به القرآن الكريم وسنة رسول الله(صلى الله عليه وآله) (فهما صنوان لا يفترقان)[1].

وكما ان القرآن شفاء وهدى ورحمة ونور وبيان وذكر ومبارك وحكيم ونحو ذلك مما ذكره القرآن الكريم فان رسول الله كذلك، وان القرآن وصف نفسه بأن فيه ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩) و﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)، فكذلك رسول الله سفر واسع يجد فيه التواقون الى الكمال وطالبو السعادة والفلاح والنجاة كل ما يريدون.

أن التأسي يعني جعل حياة الأسوة الحسنة معياراً وميزاناً لسلوك المتأسي وصفاته ويجعلها فرقاناً في حياته يميزّ به بين ما يصح فعله وما لا يصح، ويسعى المتأسي الى ان يكون مثالاً ونسخة من الاسوة.

وصّور امير المؤمنين(عليه السلام) اكمل صور التأسي برسول الله قال (عليه السلام): (وقد كنت أتبعَهُ إتباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه عَلَما، ويأمرني بالاقتداء به)[2].

إن تقديم النبي كأسوة حسنة يتطلب دراسة سيرته المباركة وتحليلها وعدم الاكتفاء بالسرد التاريخي والروائي، لتشخيص جوانب التأسي سواء على

(١) ميزان الحكمة: ١/ ١١٥، عن صحيح مسلم: ٤/ ١٨٧٤/ ح٢٤٠٨.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة رقم: ١٩٢.

صعيد حياته الشخصية وملكاته وصفاته الذاتية أو على صعيد منهجه في سياسة الأمة ورعاية شؤونها وقد قمتُ بمحاولة في هذا المجال وطبعت في كتاب (الأسوة الحسنة).

وبالعودة إلى الآية الكريمة محل البحث نقول انها وقعت في سياق الحديث عن معركة الأحزاب وما رافقها من أهوال وكوارث ومخاوف حتى قال تعالى ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب:١٠-١١)، لكن اقتحام النبي بنفسه الشريفة ميدان العمل فيضرب بالمعول هنا ليحفر الخندق، ويحمل التراب هناك، ويشارك المجاهدين في اهازيجهم واشعارهم الحماسية، رفع من الروح المعنوية لهم وسكب عليهم الطمأنينة حتى أنه كان أحياناً يلاطفهم ويرطب الأجواء فهو أسوة في شجاعته[1] وثباته وتواضعه وصدقه وتسليمه وعمله الدؤوب وحسن تخطيطه وتفانيه في سبيل الحق وغير ذلك مما افرزته سيرته المباركة والصبر على ذلك كله، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (ولأن الصبر على ولاة الأمر مفروض لقول الله عز و جل لنبيه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٣٥) وإيجابه مثل ذلك على أوليائه وأهل طاعته بقول ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾)[2].

---

(١) روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (كنّا اذا احمّر البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله) فما يكون أحد أقرب الى العدو منه) (بحار الأنوار: ١٦/ ٢٣٢).

(٢) نور الثقلين: ٤/ ٥٣٥/ ح٣٨.

ولا يصح حصر مفاد الآية في تلك الأحداث بل هي دعوة عامة ﴿لَكُمْ﴾ أي لجميع البشرية أن تتأسى بالنبي قال امير المؤمنين (عليه السلام): (اقتدوا بهدي نبيّكم فإنه افضل الهدي، واستنوا بسنته فإنها اهدى السنن)[1]، و﴿كَانَ﴾ هنا ليست كان الناقصة التي تعني ثبوت الوصف في زمان وارتفاعه في زمان آخر، بل هي كان التامة التي تفيد الثبات، لأنه من شأنه ذلك وقد سبقتها (اللام) و(قد) لتفيد التحقق والتأكيد.

قال امير المؤمنين (عليه السلام): (فتأسَّ بنبيك الأطيب الأطهر، ، فإن فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزى. وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه، والمقتص لأثره.

قضم الدنيا قضما، ولم يعرها طرفا. أهضم أهل الدنيا كشحا، وأخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله تعالى أبغض شيئا فأبغضه، وحقر شيئا فحقره، وصغر شيئا فصغره.

ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله لكفى به شقاقا لله تعالى ومحادة عن أمر الله تعالى)[2].

وروى في مجمع البيان إن ثعلبة بن حاطب وكان رجلاً من الأنصار قال للنبي : (ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، اما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت)[3]، فلم يتأسَّ بنبيه وآل أمره إلى الخسران وروي

(١) نهج البلاغة: خطبة ١١٠.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦٠.

(٣) مجمع البيان: ٥/ ٥٢، نور الثقلين: ٤/ ٥٣٥/ ح٣٩.

أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة:٧٥)

ولا شك في عدم قدرة أحد على الوصول إلى منزلة رسول الله لكننا مطالبون ببذل الوسع في تحقيق الحالة قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن اعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد)[1]، وكلما اتسعت حالة التأسي ارتقت منزلة المتأسي، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم:٣٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (آل عمران:٦٨).

إن التأسي به لا يقتصر على حياته الشخصية فنستفيد منها في حياتنا كأفراد، بل على القادة أن يتاسوا به كأعظم قائد ومصلح عرفته البشرية واستطاع تأسيس خير أمة أخرجت للناس، وإن في سلوكه مع أصحابه في معركة الأحزاب درساً لكل المصلحين والقادة والزعماء والمسؤولين، وهكذا على الآباء أن يتأسوا به كأب والأزواج كزوج والأصدقاء كصديق والمربّين كمربي والسائرين الى الكمال كأفضل خلق الله تعالى، فهو طبيب آسي حقاً كما وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام) (طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّه قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَه - وأَحْمَى مَوَاسِمَه يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْه - مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ وآذَانٍ صُمٍّ - وأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ - مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِه مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ - ومَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ)[2].

---

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٧٠/ رقم: ٤٥، من كتابه الى عثمان بن حنيف.

(٢) نهج البلاغة: ٢٠٧/ خطبة رقم: ١٠٨.

لقد ورد لفظ الأسوة الحسنة في القرآن الكريم في موضع آخر، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا﴾ (الممتحنة:٤)، وقال تعالى بعدها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الممتحنة:٦)، لكنها دعوة للتأسي بموقف محدد ذكرته الآية، اما الأسوة المحمدية فهي مطلقة في كل شيء، ولذا استدل بعضهم بالآية على عصمة النبي لأن الله تعالى لا يدعو الى التأسي والاقتداء بأحد في كل شيء الا اذا كان معصوماً من الخطأ والزلل، وتدل بالتبع على عصمة أئمة اهل البيت (عليهم السلام) لأن النبي امر باتباعهم والاقتداء بهم كما في الاحاديث المتقدمة.

ولا يخفى ما في الآية من تعريض بكثير من المسلمين الذين كانوا جزءاً من المجتمع الإسلامي الملتصق برسول الله الا أنهم لم يحسنوا التأسّي برسول الله وخالفوه عن علم وعمد والشواهد كثيرة من سيرة الصحابة في حياته وبعدها كصلاة التراويح التي أقاموها رغم نهي النبي عن صلاة الجماعة في المستحبات[١]، وتحريم المتعة رغم إقرارهم بترخيص النبي فيها[٢]، والفرار من المعارك وترك النبي محاطاً بالأعداء[٣]، والانقلاب على الاعقاب في حياته وعند وفاته ، واقصاء أمير المؤمنين (عليه السلام) من بعده رغم أخذه البيعة منهم على ولايته بعده[٤] وظلم أهل بيته وغيرها.

---

(١) أنظر: صحيح البخاري: ٧/ ٩٩.

(٢) أنظر: بحار الأنوار- المجلسي: ٣٠/ ٦٣٧- ٢٨/٥٣.

(٣) أنظر: مسند أحمد- أحمد بن حنبل: ٩/ ٢٨٢، ط. الرسالة.

(٤) أنظر: الكافي- الشيخ الكليني: ٨/ ٣٤٤.

ان وجود الأسوة الحسنة على الأرض من أعظم وسائل الاقناع برسالة الإسلام، وان كثيراً من الناس دخلوا الإسلام من دون ان يقرأوا أو يسمعوا عنه شيئاً لكنهم رأوا سيرة الأسوة الحسنة وهو النبي والأئمة المعصومين (عليهم السلام) من أهل بيته فاقتنعوا بأحقية ما يدعون إليه.

وان تأثير رسول الله في أصحابه مما شهد به اعداؤه حتى تملكهم الرعب وملأهم يأساً واحباطاً، ولنأخذ شاهداً على ذلك قول زعيم ثقيف عروة بن مسعود الثقفي لما أرسلته قريش ليستطلع خبر رسول الله عندما نزل الحديبية هل يريد زيارة البيت الحرام أم قتالهم، روى ابن هشام قال: (فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق الا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء الا أخذوه، فرجع الى قريش فقال:يا معشر قريش:اني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم)[1].

وهذا يبرز أهمية وجود الأسوة الحسنة في حياة الأمة، لعدم إمكان التفكيك بين الرسالة وحاملها وقد عبرّ أمير المؤمنين (عليه السلام) عن هذه الملازمة بقوله (عليه السلام): (اني والله ما أحثكم على طاعة الا وأسيقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية الا واتناهى قبلكم عنها)[2] فعلى من يتصدى لشأن من شوؤن الناس يجعله في مقام الاسوة والقدوة ان يؤهل نفسه أولا لهذا المقام، روي عن امير المؤمنين (عليه السلام)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٢٠١ ط. دار الجيل.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥٠/ الخطبة: ١٧٥.

قال: (من نصب نفسه للناس إماما فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه)[١].

ولذا قالوا:ان الواعظ إذا لم يكن متعظاً فلا يؤثر في القلوب ولا يهذب النفوس، ومن وصايا الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) لشيعته: (اتقوا الله وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، جرّوا إلينا كل مودة وادفعوا عنا كل قبيح)[٢]، ولا يجرّون المودّة إلى أئمتهم (عليهم السلام) الا عندما يعكسون صورة الأسوة الحسنة في حياتهم وقد بيّن الإمام (عليه السلام) ذلك في نفس الوصية فقال (عليه السلام): (فان الرجل منكم اذا ورع في دينه وصدق في حديثه وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل:هذا شيعي فيسرّني ذلك).

وفي ضوء هذه الملازمة نفهم خطورة وجود القدوة السيئة والمنحرفة، قال امير المؤمنين (عليه السلام): (ولا يجنح بكم الغي فتضلوا عن سبيل الله باتباع أولئك الذين ضلوا وأضلوا)[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا۠ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب:٦٧-٦٨).

خصوصاً التي تحمل عنوان الاسلام وتدّعي العمل به كالمجاميع الإرهابية واجندات التعصب والتكفير والعنصرية فان خطرها عظيم على الإسلام وينفر الناس من الشريعة الإلهية السمحاء، وقد اتخذ اعداء الإسلام هذا الاسلوب

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٥٦/ ح٣٣.

(٢) تحف العقول: ٣٦١ ط. مؤسسة الأعلمي.

(٣) بحار الأنوار: ٩٤/ ١١٦، مصباح المجتهد: ٨٤٣/٧٥٦.

لمحاربة الاسلام ومحاصرته من خلال صناعة مثل هذه النسخ الضالة المنحرفة، وخلق ما يعرف بالإسلام فوبيا أي الخوف من الإسلام، من كتاب امير المؤمنين (عليه السلام) الى معاوية (لبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم)[1].

ان الأسوة الحسنة قد لا يحتاج إلى الكلام مع الناس ليصلحهم ويهديهم وإنما يؤثر فيهم بسلوكه وأخلاقه وقد حثّ الأئمة (عليهم السلام) على ذلك بقولهم: (كونوا لنا دعاة صامتين)[2] و(كونوا لنا دعاة بأفعالكم لا بأقوالكم) وهكذا أثر أهل البيت (عليهم السلام) في الأمة بحيث تكفي دقائق من اللقاء بهم أو الاطلاع على سيرتهم والاستماع إلى حديثهم لانقلاب العدو الحاقد إلى صديق حميم وهو يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:﴿١٢٤﴾) تصديقا لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:﴿٣٤﴾) والشواهد على ذلك كثيرة ومعروفة نذكر منها واحداً من حياة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فقد روى الشيخ المفيد في الارشاد وصاحب اعلام الورى، انه (عليه السلام) قد سجن عند القائد التركي (علي بن اوتامش وكان شديد العداوة لآل محمد غليظاً على آل ابي طالب وقيل له افعل به وافعل - أي شدّد عليه وعامله بقسوة - قال فما اقام الا يوماً واحداً حتى وضع خدَّه له وكان لا يرفع بصره إليه اجلالاً واعظاماً وخرج من عنده وهو أحسن الناس بصيرة وأحسنهم قولاً فيه)[3].

وقد عاتب العباسيون القائد التركي المتنفذ في الدولة صالح بن وصيف

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ١٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ١١٦/١ ، ٣١٠/٨.

(٣) بحار الأنوار: ٥٠/ ٣٠٧/ ح٤، عن الارشاد للمفيد: ٢/ ٣٢٩ – ٣٣٠ وإعلام الورى:١٥٠/٢.

لعدم التضييق على الإمام (عليه السلام) فقال لهم صالح: (ما أصنع به وقد وكلّت رجلين شر من قدرت عليه فقد صاروا من العبادة والصلاة إلى أمر عظيم، ثم أمر بإحضار الموكلين فقال لهما:ويحكما ما شأنكما في أمر هذا الرجل فقالا له:ما نقول في رجل يصوم نهاره ويقوم ليله كله لا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة فاذا نظر الينا ارتعدت فرائصنا وداخلنا مالا نملكه من أنفسنا)[1].

ان التأسي برسول الله في حياته الشخصية والاجتماعية كفيل بإحداث نقلة إصلاحية عظيمة في حياة الأمة كالتي أحدثها هو حين صنع من القبائل العربية المتخلّفة الجاهلة المتناحرة المنحطّة خلقياً أمة واحدة متماسكة حضارية قادت ما لا يقل عن نصف العالم المعروف آنذاك، وصنع من افراد المسلمين افذاذاً نادرين.

إن استيعاب السيرة الحسنة للنبي وتمثّلها في حياتنا ليس فقط مسؤولية فردية لتحصيل القرب من الله تبارك وتعالى ونيل الكمالات وانما هي مسؤولية اجتماعية على الأمة أن تتحرك باتجاهها في ضوء التحديات الكثيرة التي تواجهنا ومنها:

١ - تسافل العالم الى مستوى من الجاهلية انحطّ كثيراً عن الجاهليات السابقة[2] وهو يلزمنا بانبعاث رسالي جديد في موازاتها.

٢ - اننا مسؤولون عن التمهيد للدولة الكريمة المنتظرة وتعجيل الظهور الميمون، ومن متطلّباته اقناع البشرية بالإسلام المحمدي الأصيل وهو المشروع الذي

---

(١) بحار الأنوار: ٥٠/ ٣٠٨/ ح٥، عن الارشاد للمفيد: ٢/ ٣٣٤ وإعلام الورى:٢/١٥٠- ١٥١.

(٢) راجع المقارنة بين الجاهليتين في ملحق (شكوى القرآن)، من نور القرآن: ٣/ ٢٨٣.

ينهض به الإمام (عليه السلام) وأفضل وسيلة لتحصيل هذه القناعة هو تجسيد الأسوة الحسنة في حياتنا، وقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: (فان الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)[1] وقد علّمنا الإمام الحجة المنتظر (عليه السلام) في دعاء الافتتاح أن نقول: (اَللّهُمَّ اِنّا نَرْغَبُ اِلَيْكَ في دَوْلَة كَريمَة تُعِزُّ بِهَا الْاِسْلامَ وَاَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِهَا النِّفاقَ وَاَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنا فيها مِنَ الدُّعاةِ اِلى طاعَتِكَ، وَالْقادَةِ اِلى سَبيلِكَ، وَتَرْزُقُنا بِها كَرامَةَ الدُّنْيا وَالْاخِرَةِ)[2]، وهذه مرتبة عظيمة لا تنال الا بالتأسي برسول الله وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين).

٣ - إن المسلمين اليوم ضائعون ممزقون متخلفون قد استمرؤا التبعية والعبودية لاعدائهم ومن يكيد لهم فهذا متخندق مع الغرب وذاك مع الشرق حتى تحالفوا مع اعدائهم ضد اخوانهم وأحد الأسباب المهمة في بلوغهم هذا الانحطاط فقدان الأسوة الحسنة فلابد من إيجادها ليعودوا إلى حياة العزة والكرامة والانعتاق من العبودية الا لله تبارك وتعالى.

---

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ١/ ٣٠٧، معاني الاخبار: ١٨٠.

(٢) مفاتيح الجنان: دعاء الافتتاح.

ملحق (١)

كراهة عدم الاتيان بسنن النبي (صلى الله عليه وآله) ولو مرة واحدة في العمر

روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إني لأكره للرجل أن يموت وقد بقيت خلة من خلال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يأت بها)[١].

وجعل الإمام (عليه السلام) سنن النبي (صلى الله عليه وآله) وسيرته ميزاناً يعرف بها الإنسان درجة صلاحه، فقد روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إنّ الله خصّ رسوله (صلى الله عليه وآله) بمكارم الأخلاق فامتحنوا أنفسكم، فإن كانت فيكم فاحمدوا وارغبوا إليه في الزيادة منها)[٢].

وهذا يدعونا إلى البحث والتحري عن سنن النبي (صلى الله عليه وآله) حتى نتمكن من التأسي بها، ونحن لا نتوقع التمكن من الإتيان بها جميعاً، لكن علينا أن نسعى إلى تحقيق أكبر مقدار نستطيعه ونحافظ عليه وعندئذٍ يوفّقنا الله تعالى لا زيد من ذلك فنلتزم به ونحافظ عليه فنوفّق للمزيد وهكذا بالتدريج.

وسنن النبي (صلى الله عليه وآله) ومكارم أخلاقه تفوق حد الحصر، وما بين أيدينا هو ما نقل لنا منه عبر الروايات أما مقاماته وخصاله وملكاته فلا يعرفها إلا الله تبارك وتعالى.

ونحاول في هذه العجالة أن نقف عند بعض هذه السنن وأول مصدر لسننه (صلى الله عليه وآله) وآدابه التي أدّبه بها ربّه هو القرآن الكريم، وقد سجّل لنا جملة منها كقوله

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٥٤، عن مكارم الأخلاق للطبرسي: ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة كتاب جهاد النفس أبواب جهاد النفس باب ٤/ ح ١.

تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران:١٥٩)

وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩)

وقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (النمل:٩١)

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم:٦٠)

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴾ (الكهف:٢٣)

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ (الإسراء:٧٩)

وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥).

ومن الروايات الجامعة لمكارم أخلاقه (صلى الله عليه وآله) وسننه: وصيته لأمير المؤمنين (عليه السلام) التي رويت في الكتب المعتبرة عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): يا علي اوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ثم قال: اللهم اعنه، اما الاولى فالصدق لا يخرجن من فيك كذبة ابدا، والثانية الورع لا تجترأنّ على خيانة ابدا، والثالثة الخوف من الله كأنك تراه، والرابعة كثرة البكاء من خشية الله عزّ وجلّ يبني لك بكل دمعة بيت في الجنة، والخامسة بذل مالك ودمك دون

دينك، والسادسة الاخذ بسنتي في صلاتي وصيامي وصدقتي، اما الصلاة فالخمسون ركعة، واما الصوم فثلاثة ايام في كل شهر خميس في اوله، وأربعاء في وسطه، وخميس في آخره، واما الصدقة فجهدك حتى يقال: اسرفت ولم تسرف، وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الزوال، وعليك بقراءة القرآن على كل حال، وعليك برفع يديك في الصلاة، وتقليبهما، عليك بالسواك عند كل صلاة، عليك بمحاسن الاخلاق فاركبها، عليك بمساوئ الاخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومن الا نفسك)[1].

وقد تضمنت هذه الوصية عدّة محاور من سنته الشريفة منها على صعيد الصفات القلبية -كالورع والخوف من الله تعالى- ومنها على صعيد الخصال النفسية -كالصدق- ومنها على صعيد الأعمال الخارجية كالصوم والصلاة والصدقة.

ويعلمنا النبي (صلى الله عليه وآله) أن العمل بهذه السنن والأخذ بها لا يتحقق إلاّ بألطافٍ إلهية خاصة، لذلك فإنّه (صلى الله عليه وآله) يدعو لأمير المؤمنين (عليه السلام) (اللهمّ أعنه).

وقد علمنا الأئمة المعصومون (عليهم السلام) أن ندعو نحن أيضاً بهذا الدعاء كالذي ورد في الدعاء اليومي لشهر شعبان (اللهم فأعنّا على الاستنان بسنته (صلى الله عليه وآله) فيه)[2].

كان (صلى الله عليه وآله) يجتهد في العبادة فقيل له: (يا رسول الله غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخّر وأنت تجهد هذا الاجتهاد؟ فقال (صلى الله عليه وآله): أفلا أكون عبداً

---

(١) وسائل الشيعة كتاب الجهاد أبواب جهاد النفس، باب ٤/ ح ١.

(٢) مفاتيح الجنان: ٢٠٨.

شكورا)[١]، وصفة العبودية لله تعالى وحده والتحرّر من طاعة غيره هي مصدر كل الكمالات الأخرى لذلك اختارها الله لتكون الصفة التي يسلّم عليه بها يومياً في صلواتنا (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله).

وأذكر لكم عملاً عبادياً بسيطاً لو واظبتم عليه تكونون ممن أخذ بسنة النبي (صلى الله عليه وآله) وجدّه إبراهيم الخليل (عليه السلام) حيث أمرنا بالتأسي به أيضاً قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (الممتحنة:٤) وهي صلاة ركعتين يوم الجمعة بين الظهر والعصر، تقرأ في كلٍ منهما بالحمد مرة والتوحيد سبع مرات فإذا فرغت منها تقول (اللهمّ اجعلني من أهل الجنة التي حشوها البركة وعمّارها الملائكة مع نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) وأبينا إبراهيم (عليه السلام)، روي عن الأئمة (عليهم السلام): أنّ من صلاّها لم تضره بليّة ولم تصبه فتنة إلى الجمعة الأخرى، وجمع الله بينه وبين محمدٍ وبين إبراهيم (عليهما السلام)[٢].

ومن سنن النبي (صلى الله عليه وآله) التي أكّد عليها وذمّ تركها الزواج وحبذا أن يكون مبكّراً روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (تزوّجوا فإنّ التزويج سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فإنّه كان يقول:من كان يحبّ أن يتّبع سنتي فإنّ من سنّتي التزويج، واطلبوا الولد فإنّي مكاثر بكم الأمم)[٣].

ومن سننه (صلى الله عليه وآله) منع نقل أي كلام عن الآخرين يؤدي إلى إيجاد حزازة في الصدر على الإخوان لذلك روى عن ابن مسعود عنه (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: (لا يبلغني

---

(١) وسائل الشيعة كتاب الجهاد أبواب جهاد النفس، باب٤/ ح٢.

(٢) مفاتيح الجنان: ٩٠ أعمال يوم الجمعة فقرة ٢٦.

(٣) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، أبواب مقدماته، باب١/ ح٦.

أحدٌ منكم عن أصحابي شيئا فإنّي أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)[١].

وكانت أبغض خصلة له (صلى الله عليه وآله) الكذب فقد رُوي عن أمّ المؤمنين عائشة قولها: (كان أبغض الخلق إليه الكذب) وقالت: (كانت (صلى الله عليه وآله) إذا اطّلع على أحدٍ من أهل بيته كذبَ كذبةً لم يزل معرضاً عنه حتى يحدث توبة)[٢].

وكان يحبّ صفة الرحمة للناس والشفقة عليهم والعفو عن إساءاتهم وقضاء حوائجهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

وكان (صلى الله عليه وآله) يقول: (أيّها الناس إنّما أنا رحمة مهداة)[٣].

وسُئلَ الإمام الصادق (عليه السلام) بِمَ ساد النبي (صلى الله عليه وآله) الخَلق، فأجابَ بما مضمونه: بخصلتين العفو عمن ظلمه وأنّه لا يرد سائلاً[٤].

تصوروا لو أنّ هذه الصفات (الصدق، الرحمة، العفو إلى المسيء، العمل على تحقيق مصالح الناس وإسعادهم) توفّرت في قادة البلاد هل تصل الحال إلى ما نحنُ عليه الآن من التمزّق والتناحر والصراع الطائفي والعرقي والفساد والعبث بأموال الشعب، فإذا أردنا الحل فإنّه يبدأ من الالتفات إلى هذه المبادئ السامية والأخلاق الكريمة حتى تتحوّل إلى خلق ثقافة عامة مبنيّة عليها، والعمل الجاد لترسيخها والله تعالى وليّ التوفيق.

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٣١ عن مكارم الأخلاق: ١٧.

(٢) ميزان الحكمة: ٨/ ٥٧١ عن كنز العمال: ح١٨٣٧٩ و١٨٣٨١.

(٣) ميزان الحكمة: ٥٤٢/٨ عن الطبقات الكبرى: ١/ ١٩٢.

(٤) أنظر: بحار الأنوار- المجلسي: ١٧/ ١٠٢،- كشف الغمّة في معرفة الأئمّة- الإربلي: ٢/ ٤٢٤.

ومن سُننه (صلى الله عليه وآله) ما روته السيدة الزهراء (صلوات الله عليها) قالت: (دخل عليَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد افترشتُ فِراشي للنوم، فقالَ لي يا فاطمة: لا تَنامي إلاّ وقد عملتِ أربعة: ختمتِ القرآن، وجعلتِ الأنبياء شُفعائكِ، وأرضيتِ المؤمنين عن نفسكِ، وحججتِ واعتمرتِ، قال هذا وأخذَ في الصلاة، فصبرتُ حتّى أتمّ صلاته، قلت: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أمرتَ بأربعة لا أقدر عليها في هذا الحال، فتبسّم (صلى الله عليه وآله)، وقال: إذا قرأتِ ﴿قُل هُوَ اللَّه أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات فكأنكِ ختمتِ القرآن، وإذا صلّيتِ عليَّ وعلى الأنبياء قبلي كُنّا شُفعائكِ يوم القيامة، وإذا استغفرتِ للمؤمنين رضوا كلّهم عنكِ، وإذا قُلتِ: سُبحانَ الله، والحمدُ لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر فقد حججتِ واعتمرتِ)[1].

ومن مستحبات ما قبل النوم تسبيح الزهراء (عليها السلام) والنوم على طهور وقراءة سورة التكاثر للوقاية من فتنة القبر كما رويَ عنه (صلى الله عليه وآله)[2].

(١) صحيفة الزهراء (عليها السلام)- الشيخ جواد القيومي: ١٦٤.

(٢) أنظر: الكافي- الشيخ الكليني: ٤٦٨/٣، بحار الأنوار- المجلسي: ٣٣٥/٨٢، ثواب الأعمال- الصدوق ١٢٥.

ملحق (٢)

حاجتنا الى الاسوة الحسنة[١]

أن أي رسالة إصلاحية ومنها رسالة الإسلام، لابد لها لكي تنجح في بناء أمة من شكلين من المقومات سميناهما الذاتية والموضوعية، وقلنا إن الذاتية منهما لها دعامتان:

الأولى: ما يرجع إلى ذات الرسالة، أعني شريعة الإسلام التي توفرت فيها كلّ عناصر الكمال من الاستيعاب لكلّ شيء، كما قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)، ومن خطابها للجميع في قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦)، ومن خلودها قوله : (حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة)[٢]، ومن صيانتها من الانحراف والتغيير، قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) وغيرها مما لا يحتاج إلى بيان، لأنها صنعة الله تبارك وتعالى الذي له الأسماء الحسنى.

الثانية: ما يرجع إلى ذات الرسول وهو النبي محمد وهو أكمل الخلق، رَبته يد الرعاية الإلهية، لعدم وجود من هو أكمل منه حتى يُربيه ويأخذ بيده في

---

(١) محاضرة القيت على حشد من فضلاء الحوزة العلمية وطلبتها في مسجد الرأس الشريف يوم ١٦/ربيع الأول/ ١٤٢٣هـ - المصادف ٢٠٠٢/٥/٢٨م، في ذكرى المولد النبوي الشريف، ونشرت في موسوعة خطاب المرحلة:١/٢٩٠ ثم تلتها محاضرة أخرى في تلك الفترة واعيد تسجيلها كمحاضرات لقناة الانوار الفضائية سنة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، وقد طبعت في كتاب (الاسوة الحسنة).

(٢) تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي: ١٤/ ٣٢٢،- بحار الأنوار- المجلسي: ٣٨/ ٢٩.

مدارج الكمال، وعن ذلك قال رسول الله : (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[١].

ولا تكون الرسالة فاعلة ومؤثرة وتؤدي دورها في حياة الأمة إذا لم يكن حاملها مستوعباً لها قد أُشرب بها وتمثلها في حياته وجسدَها في سلوكه وواقعه، حتى عاد صورة خارجية لها وعادت صورة نظرية له، لذا لما سُئِلت إحدى أمهات المؤمنين عن سيرة رسول الله وأخلاقه قالت باختصار: (كان خلُقه القرآن)[٢].

ولعدم إمكان التفكيك بين النظرية - ولا أقصد بالنظرية ما يراد منها في المصطلح أعني المعلومة القابلة للصحة والخطأ، وإنما أعني مجموع ما احتوت عليه الرسالة من أصول وفروع وأخلاق التي أسسها القرآن الكريم - والتطبيق، أي بين الرسالة وسلوك القائمين عليها، صار الناس لا يقتنعون بأي رسالة مهما كانت ترفع من مبادئ ومثل وأخلاق عالية ونبيلة إذا كان حاملوها والقائمون عليها أول من يخالفها.

وهذا أحد أسباب انحطاط المسلمين وتشوه صورة الإسلام، فكيف يقتنع الناس بحرمة شرب الخمر إذا كان حاكم المسلمين أو ولاته يشربونها على منابر المسلمين؟ وكيف يقتنعون بحرمة الغناء أو السفور أو ممارسة الفاحشة إذا كان الخليفة يعقد الليالي الحمراء لإقامتها؟

ونحن - الحوزة العلمية وكل مؤمن رسالي - حملة رسالة إصلاحية كيف نستطيع أن نردع الناس عن الغيبة وإهانة المؤمن إذا كنا نلوكها بألسنتنا؟ وكيف نمنعهم من مشاهدة الأفلام والمسلسلات إذا كان هذا الجهاز اللعين في بيوتنا؟

---

(١) كنز العمال: ١١ / ٤٠٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لإبن ابي الحديد: ٦/ ٣٤٠.

وكيف نأمرهم بالصلاة في أوقاتها إذا كنا ننام عن صلاة الصبح؟ وكيف نحثهم على صلاة الليل ونحن لا نؤديها؟ أو نحثهم على إفشاء السلام ونحن لا نرد التحية بمثلها؟ فضلاً عما هو أحسن منها، وكيف نقنعهم بترك التدخين ونحن نزاوله ونصرف الأموال في سبيله بدلاً من أن ننفقها في قضاء حوائج المؤمنين وما أكثرهم اليوم.

هذا الترابط الوثيق بين الرسالة وسلوك حاملها عبّر عنه أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما أمرتكم بطاعة إلاّ كنت أول من يؤديها، ولا نهيتكم عن معصية إلاّ كنت أول من يجتنبها)[1]، ولذا قالوا: إنّ الواعظ إذا لم يكن متعظاً لم يؤثر في القلوب ولم يهذب في النفوس.

لا قيمة للعلم إذا لم يقترن بالعمل:

ومن هنا أكدت أحاديث المعصومين (عليهم السلام) على ضرورة اقتران العلم بالعمل، وأنهّ لا قيمة للعلم إذا لم يقترن بالعمل، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) قال:(يعني بالعلماء من صدَق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم)[2]، وعن سليم بن قيس الهلالي قال: (سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام) يحدَث عن النبي أنه قال في كلام له: العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناجٍ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار

(١) تفسير كنز الدقائق: ٢/ ١٩٤.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ١/ ٣٦/ ح٢.

ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة)[١]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ أرتحل عنه)[٢]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أيها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلكم تهتدون، إن العالم العامل بغيره كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق عن جهله، بل قد رأيت أن الحجة عليه أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه منها على هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما حاير باير)[٣]، وعن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:٩٤) قال (عليه السلام): (هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره)[٤].

هذه الوشيجة بين النظرية والتطبيق أو قل بين الرسالة وسلوك حاملها نخرج منها بعدة نتائج:

١ - إن الشريعة كلما كانت أكمل فحاملها يكون أكمل، ولما كانت شريعة الإسلام أكمل الشرائع الإلهية فيكون رسول الله أكمل الخلق وأشرفهم.

---

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ١/ ٤٤/ ح١.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ١/ ٤٤/ ح٢.

(٣) الكافي - الشيخ الكليني: ١/ ٤٥/ ح٦.

(٤) الكافي - الشيخ الكليني: ١/ ٤٧، ح٤.

٢ – إن شريعة الإسلام خالدة ودائمة، فيكون وجود المعصوم (عليه السلام) دائمياً ومستمراً، وهو ما نعتقد به ودلت عليه الأحاديث الشريفة التي مضمونها: (لا تخلو الأرض من حجة قائم مشهور أو خفي مستور)[١]، وما جاء في حديث الثقلين: (إنيّ تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً:كتاب الله، وعترتي أهل بيتي)[٢].

٣ – إن الاعتداء على حامل الرسالة وممثليها من أنبياء أو أئمة إنما هو اعتداء على الشريعة نفسها، وبالعكس فإن أي اعتداء على الشريعة بتحريفها أو تمييعها أو مخالفتها إنما هو اعتداء على حامل الرسالة نفسه، لذا ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ (البقرة:٦١) أي بتحريف تعاليمهم ومخالفتها وتشويهها، فليعلم هؤلاء الذين يعصون الله تبارك وتعالى بترك الصلاة أو الخمس أو السفور أو التبرج أو ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يشيعون الفاحشة في المجتمع المسلم بنشر الصور الخلاعية وفتح محلات الفسق والفجور إنما يقتلون بها رسول الله وأمير المؤمنين والأئمة الطاهرين (عليهم السلام).

٤ – إن الإسلام إنما يتقدم وينتشر وتحصل القناعة به بتقدم أبنائه – خصوصاً العلماء والحوزة الشريفة والمؤمنين الرساليين – وتكاملهم وحسن تجسيدهم له، فحينما يقول الحديث: (العلماء أمناء الرسل، وحصون الإسلام)[٣]، إنما

---

(١) الأمالي – الشيخ الصدوق: ٢٥٣.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت): ٢٧/ ٣٣/ ح٩.

(٣) ميزان الحكمة – الريشهري: ٣/ ٢١٠١.

يشير إلى هذه المسؤولية المزدوجة (أعني المسؤولية النظرية أو قل العلمية، ببيان محاسن الإسلام وعظمة تشريعاته وتكاملها وقدرتها على قيادة البشرية نحو السعادة والصلاح، والمسؤولية العملية بتمثيل الإسلام في سلوكهم وتفاصيل حياتهم) فهاتان مسؤوليتان لا تنفكان عن بعضهما.

وقد وعدت الأحاديث الشريفة بأنّ الله تعالى يقيّض لهذا الدين في كلّ زمان من يمثله هذا التمثيل، ليكون حصناً حقيقياً للإسلام، قال (عليه السلام): (فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[1]، فكونوا من هذا الخلف، فإنها فرصة متاحة لأي أحد يعمل بجد واجتهاد لتأهيل نفسه لهذا الموقع، والله تعالى لا يبخل بإعطاء المستحق حقه وهو القائل: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف:٨٥).

أهمية الأسوة الحسنة:

لأجل هذه النقاط ركز القرآن الكريم على أهمية الأسوة الحسنة في تربية البشر وهدايتهم وإصلاحهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١) فقد يؤثر الأسوة الحسنة في حياة الناس أكثر مما تؤثر فيهم كتب كثيرة، وأكدته الأحاديث الشريفة كما في قوله (عليه السلام): (كونوا لنا دعاة صامتين... كونوا لنا دعاة بأفعالكم لا بأقوالكم)[2].

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ١/ ٣٢/ ح٢.

(٢) مستدرك الوسائل: ١/ ١١٦.

وبمقدار ذلك تكون خطورة القدوة السيئة[١] والعياذ بالله، لذا ورد التهديد الكبير للعلماء إذا نكبوا عن الصواب وفارقوا الطريقة المثلى، لأن هذا يؤدي إلى إعراض الناس عن الشريعة، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم، فإن كلّ محب لشيء يحوط ما أحب، وقال : أوحى الله إلى داود (عليه السلام): لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم)[٢]، وعن حفص بن غياث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (يا حفص، يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد)[٣]، وعنه إنّه قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): قال عيسى بن مريم (عليه السلام): (ويل لعلماء السوء كيف تلظى عليهم النار)[٤]، وقد اشتهرت كلمة بعضهم: (إذا فسد العالِم فسد العالَم).

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى عرض صورة الأسوة الحسنة في حياتنا، فنحن مسؤولون أكثر من أي وقت مضى عن دراسة حياة رسول الله وسيرته دراسة تحليلية، لكي نتمثلها في حياتنا وتكون نبراساً لنا، ليس فقط في حياته الشخصية الخاصة لكونه أكمل المخلوقات وأشرفها وأحقها بالإقتداء في حياته العامة، بل لكونه أعظم مصلح اجتماعي عرفته البشرية، ولكونه مؤسس خير أمة أخرجت

---

(١) كالمطرب والممثل والرياضي.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ١/ ٤٦/ ح٤.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ١/ ٤٧/ ح١.

(٤) الكافي- الشيخ الكليني: ١/ ٤٧/ ح٢.

للناس من العدم، ولكون قيادته المباركة وفرت للبشرية أسعد عصر من عصورها، هذه الأبعاد المتعددة في شخصيته جعلته أولى الناس بالتأسي والاقتداء لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وأراد السعادة لنفسه ولأمته.

وقد ذكرت في بعض المناسبات وجهاً لمعنى الكلمة العامية: (إن سفرة الحسين واسعة)، ويمكن أن يراد بها عدة معانٍ بحسب ما أراد بها قائلوها، لكنني أفهم لها معنى واقعياً غير ما ذكروه، وهو أن حياة الحسين (عليه السلام) سِفرٌ مبارك يتسع كل ما يريده الطامحون إلى الكمال التواقون إلى السعادة الفارون من الحضيض، وجدُّه أولى بهذه السعة منه (عليه السلام)، فلنأخذ من هذا السِفر المبارك ما يعيننا على مسؤولياتنا التي قلنا إنها أضخم من إي يوم مضى من أكثر من جهة:

مسؤوليتنا اليوم أضخم من الماضي:

١- إننا نواجه جاهلية عاتية تضرب بإطنابها أرجاء الأرض في أفكارها واعتقاداتها وفي سلوكياتها وأهوائها ونزعاتها[١]، بل إن جاهلية اليوم جمعت كل مساوئ جاهليات الأمس القريب والبعيد، وقد عقدت فصلاً طويلاً في كتاب (شكوى القرآن) لبيان مفهوم الجاهلية بحسب ما يستفاد من القرآن، وذكرت خمس عشرة نقطة التقاء بين الجاهليتين[٢] وخرجنا بنتيجة أن الجاهلية ليست فترة زمنية ومرحلة

---

(١) من فاسقات نصبن فخاخ الفتنة والإغراء، إلى بورصات اقتصادية يسيل لها اللعاب، إلى فنانين لا عمل لهم إلا تدمير الأخلاق والقيم الاجتماعية، إلى قوانين وضعية تبيح اللواط وتجيز الزواج بين الذكور، إلى الزنا الذي يفوح برائحته الكريهة وأمراضه الفتاكة كالإيدز.

(٢) تجدها في بحث (شكوى القرآن)، الملحق بقبس الآية: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠) في من نور القرآن: ٣/ ٢٨٤.

تأريخية انتهت بظهور الإسلام، وإنما هي نمط من أنماط الحياة تتردى إليه البشرية وتسقط فيه كلما ابتعدت عن شريعة الله تبارك وتعالى.

فما أحوجنا إلى أن نستلهم من سيرته كيفية مواجهة هذه الجاهلية بحيث استطاع أن ينقلهم في مدة ضئيلة من عمر الزمن هي ثلاثة وعشرون عاماً، من حضيض الجاهلية إلى قمة الإسلام السامقة[١]، وقد ذكرت في نفس الكتاب عدة دروس مستفادة من هذه التجربة[٢].

٢ - إننا نقترب بسرعة من يوم الظهور المبارك لبقية الله الأعظم، ومن شروطه وصول البشرية إلى قناعة كاملة بالإسلام، وقد قلنا قبل قليل:إن القناعة بالإسلام كنظام ورؤية للحياة لا تنفك عن القناعة بسلوك حامليه ومعتنقيه، فكلما كان التطبيق أكثر صدقاً كان أسرع في حصول هذه القناعة، وقد وردت التطمينات بأن الإسلام لا يحتاج إلى جهد كبير من أبنائه لتحصل قناعة الآخرين به، لأنه يغلب العقول ويفتح القلوب بلا عناء كثير، بخلاف المبادئ الأرضية التي لا تستطيع أن تُحَصّل هذه النتيجة بكل أساليب الإغراء أو البطش والتهديد، وقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام): (إن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)[٣]، و(كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً)[٤].

---

(١) فحاشا لله تعالى أن يترك جاهلية اليوم سدى ولا يبعث لها مصلحاً معصوماً هو الحجة ابن الحسن المهدي أرواحنا لمقدمه الفداء.

(٢) تجدها في كتاب (شكوى القرآن): وقد تقدم.

(٣) بحار الأنوار: ٢/ ٣٠.

(٤) بحار الأنوار: ٦٥/ ٢٦١.

والتأريخ شاهد على ذلك، فإن المغول - وهم أكثر الشعوب وحشية- ما لبثوا أن دخلوا الإسلام بعد أن اكتسحوا بلاده قتلاً ونهباً وتدميراً، وها هو ذا الغرب ينتابه القلق من إقبال أبنائه على الإسلام، فتقول إحصائية في بريطانيا:إن عشرين ألف امرأة بريطانية اعتنقت الإسلام إحداهن أستاذة جامعية أعلنت إسلامها في كلمة ألقتها في تجمع في حدائق هايد بارك الشهيرة في قلب لندن، وسوف ترى عن قريب كيف أن الإسلام يفتح قلوب أعدائه إلاّ من ضرب عليها إبليس بالأغلال كالصهاينة.

ألسنا ندعو الله تبارك وتعالى أن ينتصر بنا لدينه وأن يجعلنا من أنصار وليه الأعظم؟ بل نقرأ في دعاء الافتتاح أن نكون من الدعاة إلى طاعته تبارك وتعالى والقادة إلى سبيله في دولته الكريمة؟ فها هي الخطوة الأولى والمهمة التي رسمها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١) وشرحها أمير المؤمنين نفس رسول الله بقولة (عليه السلام): (ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسداد)[1].

الحرب التي يعيشها الإسلام اليوم:

٣- إننا نعيش حرباً شعواء على الإسلام بأشكال مختلفة، أحدها الحرب العسكرية التي يسمونها الحرب ضد الإرهاب، وقد اتحدوا جميعاً وتناسوا خلافاتهم وكل عداوات الأمس ليكونوا يداً واحدةً في هذه الحرب، وقد أعلنت الأخبار اليوم

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٧٠.

(٢٠٠٢/٥/٢٨م) - وأنا أكتب هذه السطور - أنهم وضعوا المسمار الأخير في نعش الحرب الباردة بالاشتراك في اتخاذ القرار بين روسيا وحلف شمال الأطلسي.

وهذا الشكل من الحرب واضح وملتفت إليه، لكن الأخطر منه هو الحرب الخفية بتشويه صورة الإسلام وتمييع أحكامه وإفراغه من مضامينه والاكتفاء بالشكليات، فيسوّقوا لنا أنه لا مانع من أن تتحجب المرأة ولكن على الطريقة الأمريكية أو الفرنسية، ولا بأس بأن يلتزم الشاب بالصلاة والصوم مادام غربياً في أفكاره وولائه ومظهره، وأن يكون اهتمام الناس منصباً على الازدياد من المظاهر الدنيوية فلا يستقر في دار حتى يطمح إلى أحسن منها، وسرعان ما يبدل سيارته إلى أحدث موديل أو أثاثه، أو يتفاخر بكثرة أمواله، هذا غير ضياعه في المتع المتنوعة من رياضة وفن، فلا يلبث أن يمل من متعة حتى يأتوه بغيرها، ليبقى في هذه الدوامة والدائرة المفرغة، ولا يلتفت إلى أهدافه الحقيقية رغم أن القرآن صريح وواضح: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤).

ومحل الشاهد إننا لو درسنا أسباب هذا الضياع لوجدنا أن أهمها غياب القدوة الحسنة التي تبهر العقول وتدخل القلوب وتقنعهم بالاتباع والتأسي وتلغي كل ما سواها، وقد دأب الإنسان على المتابعة والمشاكلة للشخصيات التي ينبهر بها حتى في الأشياء التي لا علاقة لها بسبب انبهاره، فمثلاً هو يعجب به كبطل أفلام أو رياضي إلا أنه يقلده في ملبسه وحركاته ومظهره، بل حتى أفكاره ومعتقداته

أحياناً، فإذا غابت عن حياته الأسوة والقدوة الحسنة، فإنه سينجذب إلى الأسوة السيئة من رياضي أو فنان أو بطل فلم وهمي ونحوه.

علينا ألا نتبوّأ موقعا إلا بجدارة:

لذا تجد من أهم العوامل التي جذبت الناس إلى الإسلام الانبهار والذوبان في شخصية رسول الله ، التي ظلت مؤثرة في نفوس أصحابه حتى بعد وفاته بل إلى اليوم، فإن الكثير ممن اعتنقوا الإسلام إنما اعتنقوه إعجاباً بسيرة رجاله، كرسول الله وأمير المؤمنين والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء والحسن والحسين (عليهم السلام).

وهذا - أي تأثير شخصية النبي في نفوس أصحابه - مما شهد به الأعداء وجعل الرعب يتملكهم ويملؤهم الشعور بالإحباط واليأس من المواجهة، وعندما خرج وفد من قريش لاستطلاع أخبار النبي وأصحابه فوجدهم محدقين به يتبركون بتراب أقدامه، ولا يدعون ماء وضوئه يسقط إلى الأرض بل يتقاسمون قطراته[1].

وقد اقتضت المشيئة الإلهية أن لا يتبوأ النبي هذا المقام الرفيع إلاّ بعد أن ملك القلوب وخطف الألباب بأخلاقه وحسن سيرته، حتى سمّوه في الجاهلية بالصادق الأمين، وما وجدوا له خطلة في قول ولا زلة في فعل، وألقى عليهم الحجة بذلك حين أعلن دعوته قائلاً: (لو قلت لكم أن وراء هذه الأكمة جيش جاءوا للإغارة عليكم أتصدقونني؟ قالوا بأجمعهم: نعم، لأنك الصادق الأمين، قال:

(١) أنظر: مسند أحمد: ٤/ ٣٢٤،- السنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ٢١٩،- بحار الأنوار: ١٧/ ٣٢- ٣٣.

فإني رسول الله إليكم ونذير لكم من بين يدي عذاب أليم، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا)[١].

وهذا درس يمكن أن نستفيده من سيرة رسول الله غير ما ستأتي الإشارة إليه أن لا نتبوأ موقعاً اجتماعياً إلاّ حينما نكون أهلاً له، بحيث تتوفر القناعة الكاملة لدى الأمة باستحقاق هذا الموقع.

وحياته حافلة بالكثير مما يتأسى به، وكيف لا يكون كذلك وهو صنو القرآن الذي هو ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩) و﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨) وهو كذلك، والقرآن شفاء وهدى ورحمة ونور وبيان وذكر ومبارك وحكيم وهو كذلك، وقد أشبعنا البحث عن هذه الملازمة في كتاب (شكوى القرآن).

ما هي الأمور التي يمكن أن نتأسى بها؟

ولكي نختصر الوقت ونخفف عنكم المؤونة نلفت أنظاركم إلى بعض ما يمكن أن نتأسى به من حياته ويعيننا على أداء مسؤولياتنا، وسنجعله على شكل نقاط، وهي عبارة عن سلسلة محاضرات بعنوان (الأسوة الحسنة في بناء الذات وإصلاح المجتمع)[٢] لكني أختصرها لكم بذكر عناوينها وقد ذكرت بعضها في مناسبات متعددة، لكن تذكرها ضروري، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ومنها:

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٩.

(٢) طبعت لاحقاً في كتاب بعنوان (الأسوة الحسنة للقادة والمصلحين).

١ - المعرفة بالله تعالى والإخلاص له، فما من كلمة يقولها أو فعل يفعله أو ترك يتركه إلا لله تبارك وتعالى، ولو خيَر بين أمرين اختار أرضاهما لله، وكان على ذكر دائم لله دلَّ عليه ما روي من مكارم أخلاقه، حيث تجد له في كل حالٍ ذكراً، فللأكل دعاء، وللنوم دعاء، وللتخلي دعاء، وللوضوء دعاء، وللسفر دعاء، فكانت حياته كلها عبادة وفناء تام في الله سبحانه، وإذا اقتضت طبيعته البشرية وجسده المادي أن يعطيه حقه من النوم والأكل ونحوهما مما يراه غفلة عن الله تبارك وتعالى وتقصيراً في وظائف العبودية، فكان يستغفر الله سبحانه من ذلك حتى نزل الوعد من قبل المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح:١-٢) وإن كان الاعتقاد أنهم (عليهم السلام) إذا ناموا نامت أعينهم فقط، أما قلوبهم فهي واعية متصلة ببارئها، كما هو المنقول عنهم (عليهم السلام)[١].

وقد رَبى أصحابه المخلصين على هذه العبودية الكاملة، فيوصي أبا ذر (رضي الله عنه): (يا أبا ذر، اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢]، ويقول له ما معناه: يا أبا ذر إنك تستطيع أن تجعل كل حياتك طاعة لله تبارك وتعالى حتى أكثر الأمور ارتباطاً بشهوات النفس كإتيانك امرأتك، فقال أبو ذر (رضي الله عنه): وكيف يا رسول الله ؟ - فبينها له -: أليس في هذا العمل إدخال السرور على

(١) أنظر: ميزان الحكمة- الريشهري: ٤/ ٣٠٢٠.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٧٤/ ٧٤.

أهلك وتحصين نفسك وزوجتك من الحرام وزيادة عدد النسمات الموحدة لله، وكل تلك النيات وغيرها طاعات وقربات إلى الله تعالى)[١].

ولمعرفته بحقيقة العبودية لله سبحانه كان كثير العبادة لا يفتر عنها[٢]، وقد قال: (قرة عيني الصلاة)[٣] لأنها معراجه وقربانه واتصاله بالحبيب، يصلي حتى تتورم قدماه فيقف على واحدة ويرفع الأخرى لتستريح قليلاً فأشفق الله عليه بقوله: ﴿طه۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه:١-٢).

الإعراض عن الدنيا المحللة:

٢ - الإعراض عن الدنيا وعدم الاغترار بها، وطبعاً نقصد بالدنيا المحللة منها لا المحرمة، لأن اجتناب المحرمات من أول شروط العصمة المتحققة فيه والاهتمام بالأعمال الصالحة، يوصي قيس بن عاصم المنقري: (يا قيس، إن مع العز ذلاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكلّ شيء حسيباً وعلى كل شيء رقيباً، وإن لكل حسنة ثواباً، ولكلّ سيئة عقاباً، وإن لكلّ أجل كتاباً، وإنه يا قيس لا بدَّ لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك، لا يحشر إلاّ معك ولا تحشر إلاّ معه، ولا تُسأل إلاّ

---

(١) شعب الإيمان- البيهقي: ٧/ ٥١٤.

(٢) واعلم أن باب الله تعالى مفتوح للجميع حيث لا بخل في ساحته تعالى ولكن الأمر يحتاج شيئاً من الالتفات والهمة والمواظبة على العبادة وخصوصاً قراءة القرآن وأدعية المعصومين (عليهم السلام) فإنها تؤثر تأثيراً نورانياً في النفس وإن لم تقرأ بخشوع.

(٣) الخصال- الشيخ الصدوق: ١٦٥/ ح٢١٨.

عنه، ولا تبعث إلاّ معه، فلا تجعله إلاّ صالحاً، فإنه إن كان صالحاً لم تأنس إلا به، وإن كان فاحشاً لا تستوحش إلاّ عنه، وهو عملك)[١].

نزل جبرائيل الأمين (عليه السلام) على رسول الله يوماً وقال له: (إنّ العلي الأعلى يُقرؤك السلام ويخصك بالتحية والإكرام وهو يقول لك أن لو شئت صيرت لك تهامة ذهباً وفضةً وأنت على ما أنت عليه من المقام الرفيع عند الله تبارك وتعالى، فقال رسول الله : حبيبي جبرائيل ثم ماذا؟ قال: الموت، قال : إذن دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، أما اليوم الذي أجوع فيه فأسأل ربي وأصبر، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأشكر ربي)[٢]، فما الذي يضرنا لو قللنا إقبالنا على الدنيا واكتفينا منها بالضروري لنكون من المخفين الذين يقال لهم جوزوا، لا المثقلين الذين يقال لهم حطوا.

٣ - قوة الإرادة والثبات على الحق، فلا يحيد عنه مهما كانت المغريات أو الضغوط، وهو القائل لعمه أبي طالب (عليه السلام) لما جاءته قريش وعرضت عليه عروضاً مقابل تخليه عن الدعوة إلى الله، إن شاء ملكاً ملّكناه أو مالاً جمعنا له أو امرأة زوجناه أجمل نسائنا، قال : (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أموت دونه)[٣].

ويقول عن إيمان المؤمن بأنه (أقوى من الجبل. قيل: وكيف يا رسول الله؟ قال : لأن الجبل يُستقل منه بالمعاول ولا يُستقل من إيمان المؤمن شيء)[٤]، لم

---

(١) الخصال: ١١٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٧٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٦٧، - السيرة النبوية - ابن كثير: ١/ ٤٧٤.

(٤) الكافي - الشيخ الكليني: ٥/ ٦٣/ ح ١.

يثنه الأذى الجسدي ولا المعنوي عن مواصلة رسالته، فقد وصفوه بأسوء الصفات:ساحر، كذاب، مجنون، واتهموه بأشنع التهم حتى لم يسلم من الطعن في شرفه كما في حديث الإفك الذي تقصه سورة النور.

٤ – الاهتمام بأمور المسلمين وهو القائل: (من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع منادياً ينادي بالمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم)[١]، أين نحن من هذا الشعور بالمسؤولية وتذويب الأنانية لمصلحة الأمة، وهل يسوغ لنا أن نهتم بأنفسنا ونعتني بمصالحنا الخاصة ونترك حبل المجتمع على غاربه ولا تتحرك مشاعرنا لما يُعانيه فنعمل على مساعدته بما نستطيع، حتى إنه كان يسعى بمشاريع الزواج والتوسط والشفاعة لانجاز هذا الامر، فيبعث جويبر إلى الدلفاء أشرف نساء قومها بني بياضه من الأنصار لتزوجه بوساطته .

٥ – الاهتمام بالقرآن الكريم شغفاً به، لأنه رسالة الحبيب وهل تُمَل رسالة الحبيب؟ وامتثالاً لأمره تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاّ قَلِيلاً۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل:١-٥).

وكان يطلب من ابن مسعود أن يتلو القرآن عليه، فيقول ابن مسعود:اقرأه عليك وقد نزل عليك، فيقول : (أحب أن أسمعه منك)، يريد أن يمتع جميع جوارحه بكلام الله تعالى، فيقرأ ابن مسعود وعين رسول الله تفيض من الدمع[٢].

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ٣٣٧/١٦ / ح٣.

(٢) أنظر: صحيح مسلم: ٢/ ١٩٦.

وكان لا ينام حتى يقرأ سور المسبّحات، أي التي تبدأ بكلمات التسبيح، ويوصي بتلاوة القرآن وتدبر معانيه والعمل به، ويبين الثواب العظيم لذلك، وقد بينا بعضاً منه في كتاب (شكوى القرآن).

وإنك لتشعر أنّ أي مصلح اجتماعي أو قائد عظيم لا يكون ناجحاً إلا إذا عاش في ظل القرآن وتربى في أحضانه وتفاعل مع آياته.

٦ – التواضع[١] بحيث كان الأعرابي يدخل إلى المسجد فيقول:أيكم محمد؟[٢] لأنه لم يتميز عن أصحابه بمجلس أو ملبس أو أي شيء آخر، يواسي في حياته أدناهم، وهو يفعل ذلك أدباً مع الله تعالى واستشعارا للحقارة في حضرة الربوبية.

٧ – عدم الاستماع إلى النميمة ونقل الكلام السيئ عن أصحابه خصوصاً من المتزلفين وضعيفي النفوس، فكان إذا أراد أحد أصحابه أن ينقل كلاماً سيئاً عن أحد منعه، وقال له : (أحب أن أمضي عنكم وأنا سليم الصدر)[٣].

٨ – عدم اتخاذ بطانة وحاشية غير مخلصة لله تعالى، أو تفكر في الانتفاع من مواقعها وجني مكاسب شخصية ولو على حساب الدين والأمة كما في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً

---

(١) روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في كتاب غرر الحكم هذه الروايات:

١ – لو رخص الله سبحانه في الكبر لأحد من الخلق لرخص فيه لأنبيائه لكنه كره إليهم التكبر ورضي لهم التواضع.

٢ – ثلاث يوجبن المحبة حسن الخلق حسن الرفق و لتواضع.

٣ – أشرف الخلائق التواضع الحلم ولين الجانب.

(٢) سنن أبي داود: ١/ ٢٦١/ ح٤٨٦.

(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٣١، عن مكارم الأخلاق: ١٧.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران:﴿١١٨﴾).

٩ - الالتزام بالأخلاق الفاضلة، وقد امتدحه الله تبارك وتعالى عليها قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:﴿٤﴾)، وفي وصيته لأمير المؤمنين (عليه السلام): (عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، عليك بمساوئ الأخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومنَّ إلا نفسك)[١]، وقد جعلها محور رسالته قائلاً: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٢]، وهذه النقطة وحدها تستوعب مجلدات من الكلام والمصادر حافلة بالشواهد التفصيلية[٣].

١٠ - التركيز على أداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير الشديد من التقاعس عن أدائها، فقد قال: (كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له:ويكون ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٨/ ٧٩/ ح٣٣.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٦٨/ ٣٨٢.

(٣) جاء في كتاب أخلاق أهل البيت (عليهم السلام) تعريف حسن الخلق: هو حالة نفسية تبعث على حسن معاشرة الناس ومجاملتهم بالبشاشة وطيب القول، وكما عرّفه الإمام الصادق (عليه السلام) حينما سئل عن حده فقال: (تلين جناحك وتطيب كلامك وتلقى أخاك ببشر حسن). وقال (عليه السلام): (إن شئت أن تُكرَم فَلِن وإن شئت أن تُهان فأخشن) تحف العقول. وقال (عليه السلام): (إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم). من لا يحضره الفقيه.

إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)[١] وهذه المراحل الثلاث كلها وصلتها الأمة كما هو واضح، وعنه : (إنّ الله عز وجل ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له، قال: الذي لا ينهى عن المنكر)[٢]، وكان يقول: (إذا أمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من الله)[٣]، فاحذروا أيها الأخوة من التواكل والتخاذل والتقاعس عن أداء هذه الوظيفة الإلهية العظيمة.

١١ - الاهتمام بنشر العلم والمعرفة في جميع الحقول، وكان يوصي أمته قائلاً:(اطلبوا العلم ولو في الصين)[٤] باعتبارها أبعد نقطة مقصودة يومئذ، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: سمعت رسول الله يقول: (طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم من مظانه واقتبسوه من أهله، فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة فيه تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله تعالى لأنهّ معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والتزين عند الأخِلاّء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، تُقتبس آثارهم ويهتدي بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم...)[٥]

---

(١) الكافي:٥/ ٥٩.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٥/ ٥٩/ ح١٤.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٥/ ٥٩/ ح١٣.

(٤) وسائل الشيعة (آل البيت): ٢٧/ ٢٧/ ح ٢٠.

(٥) الأمالي- الشيخ الطوسي: ٤٨٧/ ٣٨.

إلى آخر الحديث، وفي معركة بدر جعل مما يفدي الأسير نفسه أن يعلم عشرة من المسلمين. فأين أدعياء الحضارة اليوم من هذا التفكير الواعي في ذلك الزمان البعيد؟

١٢ – احتضان الشباب ورعايتهم فقد أوصى : (أوصيكم بالشباب خيراً فأنهم أرق أفئدة)[١]، لأنّ قلوبهم ما زالت نقية وقريبة العهد بالفطرة، ولم تتكدر بالذنوب فتحرم من نور المعرفة، فلا عجب أن يكون أسبق الناس إلى اتباعه هم الشباب، وفي رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) يسأل أحد أصحابه: كيف حال دعوتكم في الكوفة؟ فأخبره بأنها تواجه صعوبات كثيرة وقلّة استجابة، فقال (عليه السلام) ما معناه: (عليكم بالأحداث، فإن قلب الحدث كالأرض الطيبة)[٢]، وقد بسطت الكلام نسبياً عن ذلك في محاضرات (الحوزة ومشاكل الشباب).

١٣ – محاربة العادات الاجتماعية السيّئة والقضاء عليها، فمثلاً كانت قريش لا تزوج نساءها لغيرها، فزوج ضباعة بنت عمه الزبير بن عبد المطلب وهي من أشرف بيوتات قريش إلى المقداد بن الأسود، وزوج زينب ابنة عمته من متبناه زيد بن حارثة، ثم تزوجها بعده، وقد كان العرب لا يتزوجون زوجات متبنيهم، ويوصي بالبنات ويقول:إنهن حسنات، ويبين عظمة ابنته الزهراء وشرفها في قوم

(١) جواهر الحكمة– الريشهري: ٢٠.

(٢) تحف العقول– ابن شعبة الحراني: ٧٠.

كانوا يئدون البنات ويعتبرونهن عاراً، بل إن الله سمّى ابنته الكوثر وجعل نسله منها، والأبتر هو من عيّره بعدم الولد[١].

١٤ - الحث على الحضور في المساجد وصلاة الجماعة والشعائر الدينية، فعن الصادق (عليه السلام) قال: (اشترط رسول الله على جيران المسجد شهود الصلاة)[٢]، وقال: (لينتهين أقوام لا يشهدون الصلاة أو لآمرن مؤذناً يؤذن ثم يقيم ثم أأمر رجلاً من أهل بيتي وهو علي (عليه السلام) فليحرقن على أقوام بيوتهم بحزم الحطب، لأنهم لا يأتون الصلاة)[٣].

ويحذر الأمة من أن يشكوهم المسجد والقرآن والعترة يوم القيامة، فعن جابر قال: سمعت رسول الله يقول: (يجيء يوم القيامة ثلاث يشكون لله عز وجل: المصحف، والمسجد، والعترة، يقول المصحف: يا رب حرفوني ومزقوني، ويقول المسجد: يا رب عطلوني وضيعوني، وتقول العترة: يا رب قتلونا وطردونا وشردونا، فاجثوا للركبتين للخصومة، فيقول الله جل جلاله لي: أنا أولى بذلك)[٤].

وقد حررنا شكويين[٥] منها بعنوان (شكوى المسجد) و(شكوى القرآن)، ويصل الاهتمام إلى درجة أنّ رجلاً أعمى يأتيه فيقول له: أنا ضرير البصر وربما أسمع

---

(١) للوقوف على مصادر هذه الاحداث أنظر: الكافي - الشيخ الكليني: ٥/ ٣٤٤/ ح١و٢، - المستدرك على الصحيحين - الحاكم: ٤/ ٢٤، - تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني: ١٢/ ٤٢٠، - ميزان الحكمة الريشهري: ٤/ ٣٦٧٢، - تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٢٢.

(٢) ثواب الأعمال - الشيخ الصدوق: ٢٣٢.

(٣) الأمالي - الشيخ الصدوق: ٥٧٣.

(٤) الخصال - الشيخ الصدوق: ١٧٥.

(٥) ثم حررت الثالثة بعنوان: (شكوى الإمام (عليه السلام)).

النداء ولا أجد من يقودني إلى الجماعة والصلاة معك، فقال له النبي : (شُد من منزلك إلى المسجد حبلاً واحضر الجماعة)[١].

١٥ – التشديد على الوحدة بين المسلمين وعدم إعطاء أية فرصة لإيقاع الفرقة بينهم، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ (آل عمران:١٠٣) وفسر النبي حبل الله الذي بالاعتصام به تحفظ وحدة المسلمين فقال : (وإني تارك – مخلّف – فيكم الثقلين: الثقل الأكبر القرآن والثقل الأصغر عترتي أهل بيتي، هما حبل الله ممدود بينكم وبين الله عز وجل ما إن تمسكتم به لم تضلوا، سبب منه بيد الله وسبب بأيديكم)[٢].

وذات يوم عمل بعض اليهود على الوقيعة بين الأوس والخزرج، وذكرهم بعداواتهم في الجاهلية ومن قتل من أشرافهم، حتى ثارت عصبيتهم فتواعدوا القتال كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، فبلغ رسول الله ذلك، فخرج مسرعاً يجر رداءه حتى وافى القوم قبل أن يقع السيف بينهم، فوعظهم وذكرهم، فتابوا وعادوا إلى رشدهم[٣]. فاحفظوا وحدتكم أيها الأحبة ولا تعطوا فرصة للأعداء ليوقعوا بينكم فلا يوجد شيء يستحق الاختلاف بيننا.

---

(١) تهذيب الأحكام– الشيخ الطوسي: ٣/ ٢٦٦/ ح٧٣.

(٢) كتاب الغيبة– النعماني: ١/ ٤٨.

(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ١٥٥.

١٦ – الإكثار من ذكر الموت[١]، وكان يسميه هادم اللذات، ويقول : (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قيل:وما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن)[٢]، وكان يقول : (إنّي ما أطبقت عينيَّ إلاّ وظننت إنّي لا أفتحهما، ولا فتحتهما إلاّ وظننت إني لا أطبقهما)[٣]، ولذكر الموت فوائد عديدة:العظة والاعتبار وتحقير الدنيا وعدم الإكتراث بها، ترقيق القلوب، استباق الخيرات، والإكثار من الأعمال الصالحة، وغيرها.

١٧ – الاهتمام بالمرأة من حيث تثقيفها وتعليمها وإعطاؤها حقوقها وهو بذلك يرد على الأفكار والمعتقدات الجاهلية التي تمتهنها وتجعلها سلعة بيد الرجل يقضي

---

(١) إتماماً للفائدة نورد هذه الرواية من كتاب مصباح الشريعة ص ١٧١: قَالَ الصَّادِقُ (عليه السلام): (ذِكْرُ الْمَوْتِ يُمِيتُ الشَّهَوَاتِ فِي النَّفْس وَيَقْطَعُ مَنَابِتَ الْغَفْلَةِ وَيُقَوِّي النَّفْسَ بِمَوَاعِدِ اللَّهِ وَيُرِقُّ الطَّبْعَ وَيَكْسِرُ أَعْلامَ الْهَوَى وَيُطْفِئُ نَارَ الْحِرْص وَيُحَقِّرُ الدُّنْيَا وهُوَ مَعْنَى مَا قَالَ النَّبِيُّ(صلى الله عليه وآله) فِكْرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ وَذَلِكَ عِنْدَ مَا يَحُلُّ أَطْنَابَ خِيَامِ الدُّنْيَا وَيَشُدُّهَا فِي الآخرة وَلا تَسْكُنْ بِزَوَالِ الرَّحْمَة عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَمَنْ لا يَعْتَبِرْ بِالْمَوْتِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ وَطُولِ مُقَامِهِ فِي الْقَبْر وَتَحَيُّرِهِ فِي الْقِيَامَةِ فَلا خَيْرَ فِيهِ قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) اذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ قِيلَ وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ الْمَوْتُ فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي سَعَةٍ إِلا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَلا فِي شِدَّةٍ إِلا اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَالْمَوْتُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ وَآخِرُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الدُّنْيَا فَطُوبَى لِمَنْ أُكْرِمَ عِنْدَ النُّزُولِ بِأَوَّلِهَا وَطُوبَى لِمَنْ أُحْسِنَ مُشَايَعَتُهُ فِي آخِرِهَا وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ الأَشْيَاءِ مِنْ بَنِي آدَمَ وَهُوَ يَعُدُّهُ أَبْعَدَ فَمَا أَجْرَأَ الإنسان عَلَى نَفْسِهِ وَمَا أَضْعَفَهُ مِنْ خَلْقٍ وَفِي الْمَوْتِ نَجَاةُ الْمُخْلِصِينَ وَهَلاكُ الْمُجْرِمِينَ وَلِذَلِكَ اشْتَاقَ مَنِ اشْتَاقَ الْمَوْتَ وَكَرِهَ مَنْ كَرِهَ قَالَ النَّبِيُّ(صلى الله عليه وآله) مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءهُ).

(٢) عوالي اللئالي– ابن أبي جمهور: ١/ ٢٧٩.

(٣) جامع الأحاديث– السيوطي: ٦/ ٣٣/ ح ٤٦٤١.

بها حاجته ثم يرميها في سلة المهملات، فبيّن تعالى أن المرأة كالرجل في المسؤولية وتحمل التكليف في قوله تعالى: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (آل عمران:١٩٥).

وربّى ابنته الزهراء (عليها السلام) لتكون سيدة نساء العالمين، وكان يبيّن لها تفاصيل رسالته العظيمة كما كانت هي تلتقط أخبار أبيها أولاً بأول من خلال ولديها الحسنين (عليهما السلام)، وكان يستقبل النساء ويجيبهن عن أسئلتهن وقد صدرت منه كلمات ثناء وإطراء على عدد منهن كأم سلمة وأم أيمن وأسماء بنت عميس وهند أخت عبد الله والد جابر الأنصاري وغيرهن، وبذلك أعطاهن دورهن الكامل في الحياة بشكل لم تعطيه لهن أي شريعة أو نظام، حتى المتشدقين بحقوق المرأة اليوم وهم يريدونها بذلك أن تكون وسيلة لإشباع شهواتهم وغرائزهم ويمتهنون بذلك كرامتها.

اللهم أحينا حياة محمد وآل محمد وأمتنا مماتهم، رب أدخلني في كل خير أدخلت فيه محمداً وآل محمد وأخرجني من كل سوء أخرجت منه محمد وآل محمد برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ ﴿يوسف:١٠٨﴾

البصيرة بوصلة السلوك الإنساني

تبّين الآية واحدة من وظائف الأنبياء والرسل والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومن تبعهم وحمل رسالتهم من العلماء العاملين الرساليين، وهي الدعوة الى الله تبارك وتعالى قولاً وفعلاً وعرض المشروع الإلهي على الناس واقناعهم به وهدايتهم.

وتبّين الآية ايضاً واحدة من مميزات هؤلاء القادة وخصائصهم التي تميزّهم عن غيرهم من الزعامات وتُعرِّف الأمة كيف يفرزون قياداتهم الحقة عن طلاب الدنيا ولو بأسم الدين.

وهذه الخصوصية هي الصراحة والشفافية مع الأمة ﴿هَـٰذِهِ سَبِيلِى﴾ وامتلاك الرؤية الثاقبة والنظر الدقيق ووضوح الأهداف وآليات العمل لديه المعبّر عنها في الآية بـ (البصيرة) وهي البوصلة التي ترسم المسار الصحيح للإنسان في كل حركاته وسكناته، وهذه البصيرة من الله تعالى والى الله تعالى، وما دام على بصيرة من ربّه فلا تخبّط في مسيرته ولا تناقض في أهدافه ولا تحرّكه الشهوات والانفعالات ولا تؤثر عليه هتافات الناس ولا تزويق المتزلفين ولا تخدعه المكائد والحيل وهذا لا يُدرك إلا بلطف الله تعالى.

والبصر والبصيرة أصلهما واحد وهي النظر والرؤية المدركة المنتجة للعلم والمعرفة وليست كل رؤية ونظر قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:١٩٨) فهم كالحيوانات لها عيون تنظر بها لكنها لا تفيدها

علماً ولا معرفة، عن النبي قال: (ليس الاعمى من يعمى بصره، إنما الاعمى من تعمى بصيرته)[١].

وكم من حالة او موقف ينظر اليه كثيرون لكن القليل ممن ينظر اليه بفكر واعتبار وتأمل ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف:﴿١٧٩﴾) وإن كانت مفتوحة وينظرون بها الى الأشياء، وإنما يستفيد مما حوله في الحياة من كان له بصرٌ وبصيرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (آل عمران:﴿١٣﴾) وليس لكل من لديه عين ينظر بها، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (بالاستبصار يحصُلُ الاعتبار)[٢].

والفرق بين البصر والبصيرة ان الأول بالعين والثانية بالقلب والعقل فقوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي على حجة بينةٍ واضحةٍ من ربي ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:﴿٢٠٣﴾).

واضافة ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ اليه تشريف لهم بالحاق دعوتهم بدعوته المباركة، وأعلى مراتب البصيرة التامة ما عند المعصومين (عليهم السلام) لذا فأنهم القدر المتيقن من قوله تعالى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وفي أصول الكافي بسنده عن أبي جعفر (عليه السلام) في تفسير هذه الآية قال: (ذاك رسول الله وأمير المؤمنين (عليه السلام) والاوصياء (عليهم السلام)

---

(١) كنز العمال: ١٢٢٠.

(٢) غرر الحكم: ٤٣٥١.

من بعدهما)[1].

فهؤلاء القمم من أهل البصائر هم من يجب اتباعهم والأخذ عنهم ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس:٣٥).

ثم تتفاوت مراتب البصيرة عند اتباعهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في حمل الرسالة المباركة والدعوة الى الله تعالى بحسب درجة تقواهم وقربهم من الله تعالى وبحسب نقاوة فطرتهم وسلامة عقولهم وتفكيرهم وطهارة نفوسهم وقلوبهم ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة:١٤)، فهذه باختصار المقتضيات الذاتية أي من نفس الانسان لتحصيل البصيرة وتهيئة الانسان نفسه لها وهي (التقوى، طاعة الله تعالى، نقاء الفطرة، سلامة العقل والفكر، طهارة النفس والقلب).

وخير وسيلة لتحصيل البصيرة التدبر في القرآن الكريم ومعرفة آياته، وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بهذا، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام:١٠٤) وقال تعالى: ﴿هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٣)، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٢٠)، وقال تعالى: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص:٤٣)، وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (بالهدى يكثُرُ

(١) البرهان في تفسير القرآن:٥/ ١٧٨.

الاستبصار)[١].

ومن أهم وسائل تنوير البصيرة مراقبة النفس وإصلاح عيوبها وأخطائها، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أبصر الناس من أبصر عيوبه وأقلع عن ذنوبه)[٢]، وعنه (عليه السلام) قال: (ألا وإنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير في طرفُه، ألا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التّذكير و قَبِلَه)[٣].

ومن موجبات البصيرة الاستفادة من المواعظ والعبر وتذكّر أيام الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص:٤٣).

لذا لا نستغرب ممن فقد هذه الأدوات لتحصيل البصيرة وتنويرها أن يضلَّ بنفس القرآن الكريم الذي هو زادُ المستبصرين، ويستعمل القرآن نفسه لإضلال الناس وصرفهم عن اهل البصيرة، روي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٢) بسنده عن عمر بن الخطاب قال: (كنا عند رسول الله مجتمعين وأنا أعرف الحزن في وجهه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قلت: يا رسول الله! إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا قال ربنا؟ قال: أتاني جبريل آنفاً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فمم ذاك يا جبريل؟ قال: إن أمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، فقلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين

(١) غرر الحكم: ٤٨١٦.

(٢) غرر الحكم: ٣٠٦١.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة/ ١٠٥.

يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون ويتبع القراء أهواء الأمراء فيمدون في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل؟ فبم سلم من سلم منهم؟ قال: بالكف والصبر، إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه)[1].

لقد عانى النبي والأئمة (عليهم السلام) من فقدان البصيرة لدى أكثر الناس ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣) وابتلي أمير المؤمنين (عليه السلام) بحرب أناس يحوطون بالجمل ويتبركون بخروجه ويشمونه ويقولون ما أطيب ريح روث جمل أمّنا أم المؤمنين، وابتلي (عليه السلام) بقتال اناس في صفين لا يفرقّون بين الناقة والجمل ويصدّقون كل شيء يقال لهم وان علياً لا يصلي، ومثل هؤلاء الاقوام من فاقدي البصيرة موجودون في كل زمان ومكان يُبتلى بهم القادة المصلحون ويكونون عقبة كؤود في طريقهم.

ولذا كان الأئمة (عليهم السلام) يشكون من ندرة أهل البصيرة في اتباعهم، ففي الحديث المعروف لأمير المؤمنين (عليه السلام) مع كميل (يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ إِنَّ هَذِهِ اَلْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا) الى أن قال (عليه السلام) (إن ههنا لعلماً جماً - وأشار إلى صدره - لم أصب له خزنة[2] بلى أصيب لقنا غير مأمون، مستعملا آلة الدين في طلب الدنيا، يستظهر بحجج الله على أوليائه وبنعم الله على معاصيه أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، اللهم لا

---

(١) الدر المنثور للسيوطي:٣/ ٦٣٣.

(٢) من هنا يصنّف (عليه السلام) أنواع الناس الى أربعة أصناف غير جديرين بحمل علمه (عليه السلام).

ذا ولا ذاك، أو منهوما باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرما بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين ولا من ذوي البصائر واليقين)[١].

إن أوضح ما يميّز الاتباع الحقيقيين للنبي وآله الكرام (عليهم السلام) أنهم على بصيرة من امرهم ومنهم أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) فمما خاطبه به الإمام الصادق (عليه السلام) في زيارة وارث المعروفة قوله: (وأنك مضيت على بصيرة من امرك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبيين)[٢] وهكذا كان أصحاب ابي عبد الله (عليه السلام) المستشهدين بين يديه يشهد بذلك العدو قبل الصديق، فقد روى أصحاب التواريخ والمقاتل انه لما كثرت المبارزة بين أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) وجيش يزيد وكان النصر لأصحاب ابي عبد الله، صاح عمرو بن الحجاج الزبيدي (يا حمقى أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين لا يبرزَّن لهم منكم أحدٌ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم)[٣].

وهكذا إذا كنّا صادقين في موالاتنا للإمام الحسين (عليه السلام) ونصرتنا له (ونصرتي لكم معدّة)[٤] (يا ليتنا كنا معكم)[٥] وصادقين في انتظار امامنا المهدي الموعود (عليه السلام) والمشاركة في بناء دولته المباركة فعلينا أن نستزيد من البصيرة في علاقتنا مع ربنا، وهذا ما ورد في أدعية الغيبة وتعجيل الظهور، وفي احدها

---

(١) نهج البلاغة (من كلامه (عليه السلام) لكميل بن زياد).

(٢) مفاتيح الجنان: ٥١١.

(٣) مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: ٢/ ١٥.

(٤) مفاتيح الجنان: ٥٤٤-٥٠١.

(٥) مفاتيح الجنان: ٥٤٤-٥٠١.

(وارزقنا مرافقة اوليائك ووليك الهادي المهدي الى الهدى وتحت لوائه وفي زمرته شهداء صادقين على بصيرة من دينك إنك على كل شيء قدير)[1].

فقدان البصيرة سمة المجتمع غير الإيماني:

يستفاد من القرآن الكريم أن من سمات المجتمع البعيد عن التربية الإيمانية هو فقدان البصيرة والقدرة على تمييز الحق من الباطل، وانقلاب موازين النظر عنده في الأمور كلها.

ولنأخذ مثالاً على ذلك حيث نجد المجتمع الجاهلي البعيد عن النظرة الإلهية يعيش لدنياه ويراها غاية أمله فيصارع من أجل الاستزادة منها ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤).

لكن المجتمع الرباني يعتقد بوجود الآخرة ويعمل لها لأنها الحياة الباقية، ويرى الحياة الدنيا مزرعة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤).

والمورد الآخر اغترارهم بما عندهم من قوة وإمكانيات ماديّة هائلة فيظنون أنهم الرب الأعلى المدبّر لأمور الناس ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشعراء:٤٤).

أما المنطق الرباني فيؤكد حقيقة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨) و ﴿إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (البقرة:١٦٥)

---

(١) البحار : ٩٨/ ٣٠٢، عن اقبال الاعمال والبلد الأمين والتهذيب.

ويصف أولئك المغرورين بأنّهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٤١).

التحذير من فقدان البصيرة:

وقد حذّر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمته من الرجوع إلى هذه الحالة بعد أن أنقذهم الله تعالى بالإسلام، ووقوعهم مرة ثانية في فتنة فقدان البصيرة وإنقلاب موازين النظر في الأمور واعتبرها (صلى الله عليه وآله) الحالة الأشد خطورة من وقوع المنكر والفساد نفسه، ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال النبي (صلى الله عليه وآله): كيف بكم إذا فسدت نساءكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال: نعم وشرٌّ من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشرٌّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)[1].

تصحيح المفاهيم المقلوبة:

وقد وقعت الأمة في هذه الفتنة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبلغت ذروتها في عهد يزيد بن معاوية، ولهذا كان من الأدوار المهمّة التي أدّتها ربيبة القرآن والنبوّة والإمامة العقيلة زينب (عليها السلام) هي إعادة الأمة إلى وعيها وبصريتها، وتصحيح موازين النظر عندها، ولنأخذ مثالاً على ذلك جانباً من خطابها، فقد كان يزيد وابن

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب١ ح١٢.

زياد وأزلامهم يعتقدون أنّهم هم المنتصرون فأخذتهم سكرة الغلبة ونشوتها كما وصفتهم العقيلة زينب (فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا)[1].

وتصبح مشكلة المفاهيم المقلوبة أخطر حينما تُستغل لخداع الناس وتُجعل دليلاً على شرعية حكم أولئك الطواغيت وسلطتهم، وهذا ما نبّهت إليه العقيلة زينب (صلوات الله عليها) (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء أنّ بنا على الله هوناً وبك عليه كرامة!! وأنّ ذلك لعظيم خطرك عنده، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله عز وجل: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨))[2].

السيدة زينب (عليها السلام) تبين من هو المنتصر الحقيقي:

فهي (سلام الله عليها) لم تكتفِ بالإدلاء بحقيقة أنّ هذا ملكنا وسلطاننا خاصة ونحن أحقّ بالأمر من هذا الظالم المدّعي، ولكن فضحت هذه الأساليب لخداع الناس وأيقظتهم بأنّ هؤلاء المتسلّطين ليسوا هم أصحاب الحق، ولا يزال إلى اليوم من يموّه على الناس ويكتسب شرعيته من كثرة الأتباع وشهرة العنوان وإغداق الأموال لفرض الأمر الواقع وإقناعهم بأنّ سلطته شرعية وإبعاد الحق عن أهله.

---

(١) الاحتجاج: ٢/ ١٢٣، والبحار: ٤٥/ ١٥٧.

(٢) الاحتجاج: ٢/ ١٢٣، والبحار: ٤٥/ ١٥٧.

فتواجه العقيلة زينب الطاغية يزيد بالحقيقة الدامغة وبيان المنتصر الحقيقي (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحونَّ ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترخص عنك عارها. وهل رأيُك إلاّ فند، وجمعك إلاّ بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة)[١].

ووقفت نفس الموقف في الكوفة أمام الطاغية عبيد الله بن زياد حينما قال شامتاً: (الحمدُ لله الذي فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم).

فتصدت له بشجاعة وبلاغة أخذتهما من أبيها أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلة: (الحمدُ لله الذي أكرمنا بنبيّه، وطهّرنا من الرجس تطهيرا، إنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا بن مرجانة).

وحاول أن يغطي فشله وهزيمته بمزيد من الشماتة قائلاً: (كيف رأيتِ صنع الله بأخيكِ) فأجابت (سلام الله عليها): (ما رأيتُ إلاّ جميلاً، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجَّ وتخاصم، فانظر لمن الفلح يومئذٍ، ثكلتك أمّك يا بن مرجانة)[٢].

هكذا أعادت العقيلة زينب الأمور إلى نصابها وبيّنت من هو المنتصر الحقيقي وهزمت هؤلاء الطواغيت وجيوشهم الجرّارة التي غلبت بالسيف لكنّها هُزِمت بالبيان والحجة الدامغة فقلبت أفراحهم أحزاناً.

---

(١) انظر: الاحتجاج: ٢/ ١٢٣، والبحار: ٤٥/ ١٥٧.

(٢) المصدر السابق.

علينا أن نستفيد من الدرس الزينبي:

وعلينا نحن أن نستفيد من هذا الدرس الزينبي ونُصحِّح جملة من المفاهيم والرؤى والنظريات التي أُريد بها خداع الناس وتسييرهم بالاتجاه الذي يريده أصحاب تلك الأجندات الهدّامة، ولنأخذ على ذلك مثالاً من عالم المرأة ممّا حاولوا به خداعها ودفعوها إلى ما يريدون من الانحلال والفساد ومزاحمة الرجال وترك وظيفتها الأساسية في بناء الأسرة الصالحة وتنشئة الجيل الصالح وهو شعار (المساواة).

أبواق المساواة بين الرجل والمرأة:

فهل المساواة مطلب عقلائي؟ وتعبير آخر هل إن المساواة حق دائماً؟ والجواب هو النفي، نعم إذا كان المطلوب مساواة الرجل والمرأة بالاستحقاق والجزاء فهذا حق وقد كفله الشارع المقدّس ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) سواء كان ذكراً أو أنثى.

فلسفة التمايز بين الرجل والمرأة:

أما إذا أرادوا بالمساواة مماثلة المرأة للرجل في الوظائف والأعمال التي يؤديانها فهذا مطلبٌ غير عقلائي، بل فيه ظلمٌ للمرأة، لأن طبيعة خلقها وفسيولوجيتها وسايكولوجيتها تنسجم مع وظائف غير ما كُلّف به الرجل، فالمساواة هنا من الظلم وليس من العدالة، ومثله كمثل الطبيب الذي يعطي نوعاً واحداً من الدواء إلى مرضى متنوعين، وكالمدرّس الذي يعطي درجة واحدة

لكل طلبته في الامتحان مع تفاوت إجاباتهم، وهذا هو الظلم بعينه والمطلوب تحقيق العدالة وهي قد تقتضي المساواة وقد لا تقتضي المساواة بحسب الموارد وهذا ما كفلته الشريعة المقدسة، فلو أعطينا للولد ميراثاً بقدر البنت لكان ظلماً، لأن الرجل هو الذي يصرف على المرأة ويكفل لها كل احتياجاتها فهي تشاركه في حصته، ولا يشاركها في حصتها فكيف يتساويان في الاستحقاق.

فهذه المراعاة لتكوين كل من الرجل والمرأة وطبيعة وظائفهما مما تقتضيه الفطرة، وجرت عليه سيرة العقلاء، ويشهد به الواقع وخذ نماذج عشوائية من تركيبة مجتمعات الغرب المدعيّة للتحضّر وانظر هذه المراعاة، كتشكيلة الحكومة أو عدد الطيارين أو عدد قادة الوحدات العسكرية وقيادات الجيش وانظر نسبة النساء إلى الرجال ستجدها ضئيلة فأين المساواة التي يريدون تسويقها إلينا؟

مصطلح سن اليأس:

وبهذه المناسبة نشير إلى مصطلح متداول يخصّ المرأة وهو ((سنّ اليأس)) الذي يراد به عمر الخمسين للمرأة وتُسمى المرأة باليائس، وهو قد يكون له منشأ صحيح حيث يحصل فيه اليأس من الإنجاب لانقطاع الدورة الشهرية، إلاّ أنّ هذا العنوان أُخذ على إطلاقه وكأنّه سن اليأس من الحياة، مما ولّد شعوراً عندها بالإحباط وفقدان الأمل وأنّها أصبحت لا قيمة لها وانتهى دورها في الحياة وأحيلت على التقاعد كما يُقال، فتعتريها أعراض نفسية وعصبية قد تفاقم المشكلة عليها، وهذه الأعراض ليس لها أصلٌ فسيولوجي أو عضوي كما يشهد به الأطباء، أي أن بلوغ المرأة هذا العمر لا يصاحبه أي تغيير في جسمها يقتضي هذه

الأعراض، وإنما هي نتائج صنعتها المرأة بنفسها بسبب ذلك الشعور الذي غذاهُ المصطلح البائس.

فالأليق أن يُسمى هذا العمر للمرأة (سن الكمال والنضج وتمام الرشد) لاكتمال تجربة المرأة في الحياة بعد أن تكون قد ربّت جيلاً كاملاً وتعلّمت الكثير، وهو سن التفرغ لنفسها ولآخرتها ولزوجها بعد أن انتهت من وظائف الحمل والإنجاب والتربية، وشبّ أبناؤها وبناتها فهم يعينونها على قضاء حوائجها فهذا العمر فرصة مثمرة لكي يجتمع الزوجان من جديد على حياة زوجية يتفرغان لبعضهما ويلتفتان لآخرتهما وينشغلان لما يقرّبهما إلى الله تعالى من الطاعات والقربات مما لم تكن مشاغلهما السابقة تسمح لهما بها، كالسفر لأداء الحج والعمرة وزيارة المعصومين (صلوات الله عليهم) والصلاة المستحبة والصوم وقضاء ما فات ومطالعة الكتب، والمساهمة في الأعمال الخيرية والتبليغ الديني والوعظ والإرشاد وغيرها من فرص الكمال.

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ ﴿الحجر:٩٤﴾

إعلان الهوية

التماهي في الذوبان:

من مظاهر تقصيرنا الذي تحوّل إلى مشكلة تعيق تقدّم العمل الإسلامي الرسالي هو عدم إبراز هويتنا اما ضعفاً أو مجاملة أو مداهنة أو خوفاً على بعض المصالح والامتيازات أو لأي سبب آخر، ونقصد بهويتنا كل الانتماءات التي تشكل عناصر هذه الهوية، فنحن مسلمون ننتمي للإسلام، ونحن من الموالين لأهل البيت (عليهم السلام)، ونحن نتبع المرجعية الفلانية ونقلدها.

فعلى صعيد الهوية الإسلامية نجد أن بعض المسلمين - في بعض المجتمعات المتمدنة كما يزعمون- قد يترك الصلاة بين زملائه في العمل أو في الجامعة حتى لا يعرف انه مسلم، أو المرأة تضعف عن لبس الحجاب العفيف لأنها لا تستطيع أن تواجه تعليقات الآخرين، أو يجلس شخص على مائدة الشراب أو يسمع الغناء حتى لا يقال عنه انه (معقّد) أو (متخلّف)، أو يجاري الآخرين في لبسه ومظهره الخارجي واندماجه معهم في سلوكهم المنحرف حتى يقال عنه أنه متمدن متحضر مثلهم.

وعلى صعيد الهوية الشيعية نجد من يترك المشاركة في إحياء الشعائر الحسينية المهذبة المسنونة شرعاً، أو يعرض عن قضية فاطمة الزهراء (عليها السلام) وما جرى بعد رسول الله ، أو يخفي شهادته لأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية، أو السجود على التربة ونحوها.

والذي يقلّد المرجعية المعيّنة لا يصرّح بذلك ويحاول التمويه والابتعاد عن انتسابه إليها ونحوها من الأمثلة على التخلي عن الهوية وما تقتضيه انتماءاته لتلك الهوية من التزامات.

الضعف في إبراز الهوية:

إن هذا الضعف عن ابراز الهوية لا يضرّ فقط في دينه وآخرته ويسقطه من عين الآخرين لاتهامه بالنفاق، بل انه يضرّ بكل المشروع الذي ينتمي إليه لأنه يؤدي إلى تمييع الهوية وتضييعها، ولأنه إذا لم يعلن انتماءه ويبيّن نقاط القوة فيه ودواعي تبنّيه له، فكيف سيدعو الآخرين إليه ويقنعهم به؟، وكيف سيتقدم المشروع الرسالي؟ ولو أن السلف الصالح لم يقم بواجبه تجاه هويته ويبيّنوها بوضوح ويدافعوا عنها بالحجج الدامغة لما وصلت إلينا بهذه القوة والثبات والمناعة مضمّخة بدماء الشهداء ومداد العلماء.

التعايش مع الآخر لا يعني التنازل عن المبادئ:

فإنّ الوحدة والتقارب والتعايش مع الطوائف الإسلامية أو مع الديانات الأخرى، أو مع الشرائح المتنوّعة لا تستلزم التنازل عن المبادئ والمعتقدات التي ثبتت صحتها، فليعمل كلٌ بما ثبت عنده صحته بالحجة والبرهان، وإذا كان غير متثبّت من معتقداته وانتماءاته فيجب عليه إعادة النظر فيها ومراجعتها وطلب الدليل عليها، وليس اخفاؤها والمجاملة فيها.

الآية الكريمة تصر على تحمل مسؤولية الانتماء:

لقد كان من أوائل الأوامر التي وجّهها الله تبارك وتعالى إلى رسوله الكريم

في بداية الدعوة الإسلامية قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر:٩٤-٩٥) والصدع هو إحداث الشق في الاجسام الصلبة كالحديد والشق واستعير لفصل الأمور وقطعها فصدع النبي بدعوته في مواجهة طواغيت قريش وسدنة الأصنام التي بلغ تعدادها (٣٦٠) صنماً حوّلوها إلى كيانات لمصالحهم وامتيازاتهم الواسعة، ولم يكن مع النبي إلاّ أمير المؤمنين (عليه السلام) وخديجة بنت خويلد، وأصرّ على تحمل المسؤولية حتى فتح الله تعالى على يديه، ولا نطيل بالشواهد من سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة الزهراء (عليها السلام) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام).

وعلى هذا النهج سار الصلحاء من اتباع أهل البيت (عليهم السلام)، فيقف أبو ذر الغفاري (رضوان الله تعالى عليه) في عقر ديار معاوية ويقول:سمعت حبيبي رسول الله باذنيّ هاتين وإلاّ صُمَّتا يقول، ثم يذكر فضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وانظر إلى موقف الصحابة الاثني عشر الذين احاطوا بمنبر الأول حينما تقمص الخلافة بعد رسول الله وادلوا بشهاداتهم وحججهم وقد ذكرها الطبرسي في كتاب الاحتجاج[1].

لنتحدث عما يجب فعله لا ما فعلوه بنا:

روينا لكم في حديث سابق اننا في موسم الحج عام ١٤٢٤هـ وجّهنا إلى أن نرفع أصواتنا بشكل جماعي اثناء الطواف حول الكعبة بدعاء الفرج (اللهم كن

(١) الإحتجاج- الطبرسي: ١/ ٧٠.

لوليك الحجة ابن الحسن.....)[1] ليلتفت المسلمون القادمون من حوالي (١٨٠) دولة في العالم إلى إمامهم الحق ويسألوا عنه ويتعرفوا عليه ويهتدوا إلى نوره، وكنّا على ثقة بأنه سيتجاوب معنا الموالون، وهذا ما حصل وكان له وقع واثر ولم يستطع المناوؤن منعه واستمرت هذه السُنّة إلى اليوم ونسأل الله تعالى أن تبقى وتستمر وتتسع حتى يأذن الله لوليه بالظهور المبارك.

إننا كثيراً ما نتحدث عن مؤامرات الأعداء واستهدافنا وانهم يفعلون كذا وكذا، ولا نتحدث إلا القليل عمّا يجب أن نفعله نحن في مواجهتهم والقيام بمسؤولياتنا، ومنها هذا التكليف بالاصحار والاعلان عن عناصر الهوية.

ويجب الالتفات إلى أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله تبارك وتعالى، وأوصى نبيّه الكليم وأخاه هارون وهما يتوجهان إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٣-٤٤).

(١) مفاتيح الجنان: ٢٩٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ ﴿المُدّثّر:١-٢﴾

﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ أصلها المتدثر والمخاطب هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى ورد في الرواية[١] أن من اسمائه ذلك ويعني عرفاً من ألقى عليه كساءً أو غطاءً وتلفّف به لأجل النوم أو وقاية من البرد ونحو ذلك.

وهو في اللغة أوسع من ذلك إذ يعني التدثر (تضاعف شيء وتناضد بعضه على بعض)[٢] كما في معجم مقاييس اللغة أي تراكم وتكاثر شيء على شيء ولذا يطلق على المال الكثير:الدثر، فالمعنى الاوسع للمتدثر هو المحاط والمتغطي بما يمنعه من الحركة والفعالية سواء كان مادياً كما يفهم العرف أو معنوياً كالكسل والترف وحب الراحة والخوف والقلق والاغلال الدنيوية التي تعيق الحركة نحو التكامل مثل المال والمكانة الاجتماعية والأهل والولد وغير ذلك.

فالآيات الكريمة تأمر النبي (صلى الله عليه وآله) بأن ينهض من دثاره ويقوم بالإنذار وتبليغ الرسالة الإلهية التي كُلّف بها، ويشهد سياق الآيات أنها من أوائل ما نزل من القرآن الكريم حتى روى بعضهم أنها أول ما نزل منه ففسّر الدثار بأنه ((اعتزاله (صلى الله عليه وآله) وغيبته عن النظر فهو خطاب له بما كان عليه في غار حراء))[٣]، لكن ما ورد في سبب نزولها وتعّرف النبي (صلى الله عليه وآله) على الوحي النازل عليه من

---

(١) روى الكلبي عن ابي عبدالله الصادق (عليه السلام) قال (قال لي: كم لمحمد اسم في القرآن؟ فقلت به اسمان أو ثلاث فقال (عليه السلام): يا كلبي له عشرة أسماء) ثم ذكر منها ما في آية المدثِّر (راجع بحار الأنوار: ١٦/ ١٠١)

(٢) معجم مقاييس اللغة- ابن فارس: ٢/ ٣٢٨.

(٣) حكاه السيد الطباطبائي (قدس سره) في تفسير الميزان: ٢/ ٨٧.

قبل، مضافاً إلى تضمن الآيات لتكذيب قريش يدل على أنها مسبوقة بآيات البعثة النبوية الشريفة، فربما كانت الآيات الأولى التي أمرت بإعلان الدعوة إلى الإسلام والجهر بها بعد ان كانت سرّية في بدايتها، أو ان المقطع الأول من السورة نزل أولاً قبل التكذيب لإعداد النبي (صلى الله عليه وآله) للمسؤولية القادمة شأنها في ذلك شأن مطلع سورة المزمِّل من دون ان تدل على ان حالة التدثر أو التزمل موجودة فعلاً وبذلك يصح القول بأنها أول ما نزل من القرآن بعد العلق أو هي والحمد ونحو ذلك.

ويمكن أن يراد بالدثار مرحلتين زمنيتين من مراحل الرسالة الإسلامية:

الأولى:بعد نزول الوحي مباشرةً حيث امتلأ النبي (صلى الله عليه وآله) هيبة من ثقل الرسالة التي كلِّف بها وحلّت به رعشة وقشعريرة فتدثّر وهنا جاءه الأمر بأن يتجاوز هذه الحالة ويستعد نفسياً وروحياً لحمل الرسالة الإلهية.

روى في الدر المنثور عن البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم بالإسناد عن يحيى بن ابي كثير قال: (سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال: يا أيها المدثر قلت:يقولون اقرأ باسم ربك الذي خلق فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك قلت له مثل ما قلت، قال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله قال: جاورت بحراء فلما قضيت جواري فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعبا فرجعت فقلت: دثروني فدثروني، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا

الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1].

الثانية: بعد ما لاقاه النبي (صلى الله عليه وآله) من تكذيب قريش واستهزائهم بالرسالة وتحشيد المجتمع ضد الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) فبلغ به الغم والضغط النفسي مبلغاً كبيراً فتدثر بسبب الشعور بالاحباط لالتقاط الأنفاس كما يقال والتخفيف عن نفسه الشريفة فأمره الله تعالى أن يخرج من حالة الانكفاء على الذات وان لا يكترث بجمعهم وحشدهم وقوتهم فأن الله تعالى سيتكفل بدحرهم جميعاً ولينطلق هو (صلى الله عليه وآله) بمشروعه الإلهي.

روى في الدر المنثور بسنده عن ابن عبّاسٍ (أنّ الوليد بن المغيرة صنع لقريشٍ طعامًا، فلمّا أكلوا قال: ما تقولون في هذا الرّجل؟ فقال بعضهم: ساحرٌ، وقال بعضهم: ليس بساحرٍ، وقال بعضهم: كاهنٌ، وقال بعضهم: ليس بكاهنٍ، وقال بعضهم: شاعرٌ، وقال بعضهم: ليس بشاعرٍ، وقال بعضهم: سحرٌ يؤثر (وأجمع قولهم على أنّه سحرٌ يؤثر) فبلغ ذلك النّبيّ - سلّم - فحزن وقنّع رأسه وتدثّر، فأنزل اللّه - عزّ وجلّ - ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ١-٧).

فالآيات الكريمة فيها معنى كنائي وتعبير عن الانتقال من مسؤولية العمل على إصلاح الذات وتهذيب النفس - حيث كان النبي (صلى الله عليه وآله) يتعبد لوحده- إلى مسؤولية العمل الاجتماعي وإصلاح الأمة والفرق بينهما واسع بحيث ان الأول كالقعود مقابل القيام والآن انتهى زمن القعود والخلّو عن المسؤولية الكبيرة وحان

(١) الدر المنثور: ٨/ ٣٢٤.

زمن العمل.

وفي ضوء هذه الرواية والتفسير فأن الآيات الكريمة تفيد ان اشعال الحروب والتعامل بقسوة وبطش وخلق العراقيل متوقعة ممن يخافون على مصالحهم من كل أصحاب الدعوات الرسالية وليس دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) فقط فلايصح مواجهتها بالتوقف عن العمل والانحسار والانغلاق على الذات لأن العمر أقصر من ان يضيّع بالقعود والتدثر والنفس ميّالة إلى الدعة والراحة فلابد من ملئ الحياة بالقيام والنهوض والحركة والاقدام واقتحام الصعاب وتعبئة كل الطاقات المادية والمعنوية وإبلاغ الرسالة ﴿وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة:٢٣٨) ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى:١٣) ولابد من هذا القيام لله تعالى وإن كان الشخص صالحاً في نفسه وملتزماً بالشريعة الا ان هذا لا يكفي بل عليه ممارسة الإنذار والإصلاح للمجتمع ما دام في المجتمع باطل وانحراف وفساد حيث يجب عليه تغييره والنهي عنه وهو المعنى الذي تفيده سورة العصر وغيرها.

والسمة الواضحة لهذه الرسالة الإنذار والتخويف من عاقبة الخروج عن أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً﴾ (مريم:٩٧)، ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (القصص:٤٦)، وعدم ارسال النذر اليهم يشعرهم بالطمأنينة والراحة ونسيان الله تعالى ﴿حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء﴾ (الأعراف:٩٥)، فان العامة لا يصلحهم الا الخوف، روي (عَنْ أَبِي عَبْدِ الله (عليه السلام)، قَال الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْن ذَنْبٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا صَنَعَ الله فِيه وعُمُرٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا يَكْتَسِبُ فِيه مِنَ الْمَهَالِكِ فَهُوَ لَا

يُصْبِحُ إِلَّا خَائِفاً ولَا يُصْلِحُه إِلَّا الْخَوْفُ)[1] ثم تأتي البشارة بعد التخويف والإنذار.

وفي هذا الإنذار التنبيه إلى الخطر القريب في الدنيا والآخرة رحمة للناس لأن الله تعالى غني عنهم لكن شفقته على عباده أوجبت أن يواتر إليهم رسله بالإنذار ليجنّبهم المخاطر.

وتذكر الآيات التي تليها الأسس التي يرتكز عليها العاملون الرساليون الذين يسعون إلى الاصلاح في دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى، نشير إليها باختصار:

١- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر:٣) ان تؤمن بان الله تعالى أكبر من ان يوصف ولا يعجزه شيء وكل قوة مهما كانت عظيمة فهي أمامه أوهن من بيت العنكبوت فلا موجب للخوف من أي قوة معارضة تمتلك المال والسلطة والجيوش لأن الخوف سيؤدي إلى المداهنة والتخلي عن المبادئ وهذا يعني الهزيمة وعلى المؤمنين العاملين أن يكونوا كما وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) (عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم)[2] وعليهم أن يسقطوا من اعتبارهم كل ما دون الله تبارك وتعالى ولا يجعلوه من اهتمامهم.

٢- ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر:٤) ويمكن فهمها عن ظاهرها أي تطهير الثياب وهو صحيح موافق للأحكام الشرعية أو عدم إطالة الثياب فتخطّ في الأرض كما في بعض الروايات، ولعل المراد بها المعنى الكنائي ويكون المراد من تطهير الثياب الاتصاف بالنزاهة وعفة اللسان واليد والجوارح كلها وطهارة القلب

(١) الكافي: ٢/ ٧١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

وسمو الاخلاق وحسن السيرة والالتزام بأحكام الشريعة، وجامع هذه الخصال التقوى وقد وصف القرآن الكريم التقوى باللباس قال تعالى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ﴾ (الأعراف:٢٦) وهذا التعبير متداول في اللغة العربية ففي خطبة الإمام السجاد (عليه السلام) (أنا ابن نقيات الجيوب)[1] وقال الشاعر في مدح أهل البيت (عليهم السلام)

مطهرون نقيات ثيابهم تجري الصلاة عليهم كلما ذكروا

ويطلق اللباس على الزوجة، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧) فتكون الآية آمرة باختيار الزوجة الصالحة لأهمية دورها في حياة العاملين الرساليين من عدة جهات.

٣- ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر:٥) فيجب تجنب كل أشكال المعاصي والمظالم وعدم الانجرار وراء الفتن ومكائد الشيطان واهواء النفس الأمارة بالسوء وعليهم التثبت مما يقال وعدم مداهنة الظالمين والجائرين.

٤- ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر:٦) فلا تعتد بنفسك ولا تثق بعملك ولا تمنّ به على الله تعالى ولا على الناس فان ما عندك هو من فضل الله تعالى ورحمته ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات:١٧) فالمن يبطل العمل ويحبطه ويعرّض صاحبه لغضب الله تعالى فيمحوا اسمه من المؤمنين، من وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لمالك الأشتر ﴿وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ فَإِنَّ

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٤٥/ ١٧٤.

الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ﴾[1] فاذا تواضع لله تعالى وعرف ان ما عنده توفيق من الله تعالى وواظب على الشكر عليه أغدق الله تعالى عليه المزيد من النعم.

٥- ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر:٧) لأن العمل شائك ويسير العامل في حقول من الألغام المادية والمعنوية حتى وصفت مواجهتها بالجهاد الأكبر فلابد من ان يتمسك بالصبر على الصعاب ليواصل الطريق ويثبت على خط الاستقامة وان يكون صبره في الله ولله تعالى.

إذن لنتأسى بالنبي (صلى الله عليه وآله) في هذا الخطاب القرآني وننفض دثار الكسل والتردد وسائر الأمور المحبطة وننطلق في ميدان الدعوة الى الله تبارك وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة بعد ان نبني أنفسنا بالخصال الكريمة التي ذكرتها الآيات الشريفة.

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿التوبة:١٢٨﴾

ذكرت الآية ١٢٨ من سورة التوبة عدة أوصاف وملكات للنبي ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨) وهي صفات يجب ان يتحلى بها كل أولياء الأمور ابتداءً من رب الأسرة إلى رئيس الدولة تأسياً بالنبي بحسب ما حثت عليه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب:٢١).

ومحل الكلام وصفه بأنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويُعَّرف الحرص لغةً بأنه أعلى درجات الرغبة المفرطة الشديدة مقرونة بالعمل من أجل جلب نفع أو دفع ضر.

وهو بذاته لا يوصف بمدح أو ذم الا بحسب متعلقه، فقد يكون مذموماً كالحرص على الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (البقرة:٩٦)، وروى الشيخ الكليني (قدس سره) في الكافي عن رسول الله قوله: (من علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدة الحرص في طلب الدنيا، والإصرار على الذنب)[1]، وقد يكون محموداً، وصفة كمال كما في الآية محل

(١) الكافي: ٢/ ٢٩٠.

البحث، فتعريف الراغب في المفردات بأنه ((فرط الشره وفرط الإرادة))[١] إن أراد به المذموم خاصة كما يظهر منه فهو قاصر، لأن حكمه يتبع متعلقه مدحاً وذمّاً.

وقد يطلق الحرص في الأحاديث الشريفة الذامّة له بلا ذكر المتعلق ويراد به ما كان متعلقه مذموماً لأنه الغالب في الناس كقول رسول الله : (الحريص محروم، وهو مع حرمانه مذموم في أي شيء كان، وكيف لا يكون محروماً وقد فرَّ من وثاق الله)[٢] وقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (الحرص ذميم المغبّة)[٣] وقوله (عليه السلام): (الحرص ذل وعناء) وقوله (عليه السلام) (الحريص عبد المطامع).

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن رسوخ هذه الصفة السيئة لدى الإنسان الا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج :١٩-٢١) وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء:١٢٨).

وبالرجوع إلى الآية الكريمة، فإنّ من صفات النبي أنه حريص عليكم جميعاً أيها الناس ولا تختص بالمؤمنين برسالته أكثر من حرص الأم على أولادها، ولم يذكر المتعلق للدلالة على العموم، فهو يجتهد في هدايتكم وإصلاحكم وسعادتكم، ويتفانى في جلب نفع الدنيا والآخرة لكم ودفع الضرر عنكم، وكل ما يصدر منه يؤدي إلى هذا الغرض وإن لم يستطيعوا فهمه أحياناً.

---

(١) مفردات غريب القرآن – الراغب الأصفهانى: ١١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٧٣/ ١٦٥/ ح٢٦.

(٣) وما يليه: غرر الحكم: رقم ٤٣٠، ٦٩١، ٦٢٥.

ولعل الغرض من وجود الآية في سورة التوبة التي تتحدث عن غزوة تبوك وما رافقها من عناء ومشقة وجهد وبلاء هو لتثبيت إيمانهم بالقيادة النبوية المباركة، وانَّ كل ما يأمر النبي به وينهى عنه إنما هو نابع من هذه الصفات المباركة، فلا يتوهّموا أن تكليفهم بالأفعال الشاقة كالجهاد وإنفاق المال في تلك الغزوة الشاقة العسيرة يعبّر عن عدم اهتمام واكتراث بهم.

ولم يدّخر جهداً في ذلك إلى درجة أنه أشرف على الهلاك من شدة الجهد النفسي والبدني والتأسف لعدم استطاعته هداية كل الناس وهي لعمري أعلى درجات الحرص عليهم، فأشفق الله تبارك وتعالى عليه وخاطبه بقوله عزَّ من قائل: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦)، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣)، والبخع قتل النفس غمّاً، فحثّه الله تبارك وتعالى على أن لا يهلك نفسه حزناً وأسفاً وليدعهم وما يختارون ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦)، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢).

روى البخاري بسنده عن أنس قال: (أنَّ غلامًا يهوديًّا كان يخدُمُ النَّبيَّ فمرِض فأتاه النَّبيُّ يعُودُه فقال له النَّبيُّ : (أسلِمْ) فنظَر إلى أبيه وهو جالسٌ عندَ رأسِه فقال له أطِعْ أبا القاسمِ قال: فأسلَم قال: فخرَج النَّبيُّ مِن عندِه وهو يقولُ:

الحمدُ للهِ الَّذي أنقَذه مِن النَّارِ)[1]، وبقدر هذا الشكر الصادر من أعماق قلبه الشريف، كان الأسف لو أفلتت منه نفس إلى النار.

ورغم كل هذا الجهد كانت النتيجة كما ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:﴿١٠٣﴾) فالتقصير ليس من جهة النبي لأنه عمل بأعلى درجات الحرص، الا أنهم لم يكونوا موفقين في خياراتهم بسبب اتباعهم الشهوات والاهواء، وطاعتهم للشياطين الذين يخدعونهم بأمور زائفة زائلة، وينسونهم الحياة الآخرة الباقية، فيكلهم الله تبارك وتعالى إلى ما اختاروا ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (النحل:﴿٣٧﴾) فالحرص على هدايتهم لا يكفي ما لم يقترن بإرادة حقيقية منهم للتغيّر نحو الأحسن.

إن الحرص على الناس صفة عظيمة تستحق التركيز عليها وبيانها وتعبئة الأمة للاتصاف بها، وكلما ازدادت دائرة الحريصين على مصالح الأمة ونفع العباد وهدايتهم إلى ما يصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة فان المجتمع يكون بخير، كما أن فقدان هذه الصفة هو الذي يفسّر الأحوال السيئة التي تعيشها الأمة مع وفرة الإمكانات المادية والبشرية التي منَّ الله تعالى بها عليها، وذلك لأنها ابتليت بتسلط شرذمة متجردة من هذه الصفة النبوية المباركة.

إن خير من يجسّد هذه الصفة اليوم هو إمامنا المهدي الموعود (صلوات الله

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام/ ح ١٢٩٠.

عليه) فانه أولى الناس باتباع جده المصطفى ، وهذا ما يزيد الموالين اطمئناناً وسكينةً بأنهم في رعاية أحرص الناس عليهم، ولو لم تكن في انتظاره (عليه السلام) وترقب ظهوره الا هذه الفائدة لكفى، وقد عبَّر عن ذلك في رسالته إلى الشيخ المفيد (رحمه الله تعالى) بقوله: (أنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء أو اصطلمكم الأعداء فاتقوا الله جل جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حم أجله ويحمى عنها من أدرك أمله)[1].

فعلينا أن نربّي أنفسنا على هذه الصفة الحميدة، وأخص بالذكر الحوزة العلمية والمؤمنين الرساليين فهم أولى الناس بالتأسي برسول الله وآله الكرام، روى أحد السادة الفضلاء أنه اعتاد أن يروي لأسرته بعض قصص الذين تشرفوا بلقاء الإمام المهدي (عليه السلام) والمعجزات التي جرت على يديه الشريفتين من التي ذكرها الميرزا النوري (رضوان الله تعالى عليه) في كتابه (النجم الثاقب) وغيره، وكان يلمس تأثيرها الروحي على المتلقين، فانقدحت في ذهنه فكرة أن يدوِّن مجموعة منها في كرّاس وجعل له عنوان (رسالة شفاء) ويوزّعه على المرضى المصابين بأمراض مستعصية عجز الأطباء عن معالجتها، وقام بهذه الجولات، وكانت المفاجأة: ان مئات من هؤلاء شفوا ببركة تعلّقهم بإمامهم الحريص عليهم، وما بعثه فيهم من الأمل والاطمئنان والسمو الروحي عند اطلاعهم على هذه الرسالة، وكانوا ينهمكون بقراءتها ساعات يذهلون فيها عن أنفسهم وعمّا حولهم، بحيث كان الأطباء يتعجبّون من حصول هذا التغيّر غير الطبيعي في حالتهم.

---

(١) الاحتجاج: ٢/ ٣٢٣.

فما الذي دفع هذا السيد الفاضل إلى القيام بهذا العمل المضني والمكلِّف غير هذه الخصلة الكريمة التي تعلّمها من القرآن الكريم وسيرة النبي العظيم ولا تجدها عند غير من تربى في هذه المدرسة الشريفة.

إنّ الناس حينما يجدون هذه الصفة في الواعظ والمبلِّغ والمربّي والمعلم والمسؤول فأنهم ينقادون اليه ويأخذون منه، لأنهم يجدونه صادقاً في جلب الخير لهم وتحقيق مصالحهم وهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة لوجه الله من دون ان ينتظر منهم ﴿جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان:٩).

لذا فإن لهذه الصفة أهميتها في نجاح الدعوة إلى الله تبارك وتعالى لرسوخ قناعة الناس بحاملها، وأما فقدانها فإنه يكون منفّراً من صاحبها، واذا كان ذا عنوان ديني فالنفور يكون من الدين نفسه.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿طه:١١٤﴾

أدب طلب العلم

قال النبي (صلى الله عليه وآله): (أدبني ربي فاحسن تأديبي)[١] ومما أدّب الله تعالى به نبيه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤) وقد اخذ النبي بهذا الادب وسائر الآداب الربانية فكان يطلب الزيادة في العلم باستمرار ويدعو (اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال)[٢] حتى روي عنه قوله : (اذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الى الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم)[٣].

التأسي بطلب العلم:

وإذا كان النبي في مقامه السامي يطلب الزيادة باستمرار فنحن اولى، مضافاً الى أننا مأمورون بالتأسي بالنبي وهذا الادب الشريف منه، فالازدياد مطلوب في كل زمان وفي كل مكان حيث يوجد علم نافع، ويبقى الانسان طالب علم وإن حاز على أعلى الالقاب العلمية ولا معنى للتخرج وإنهاء الدراسة أو التعطيل إلا بالتحول من مجال الى مجال انفع منه، وإلاّ حُرمنا من البركة التي أشار إليها النبي في حديثه المتقدّم؟.

---

(١) الكافي: ١/ ٢٦٦/ ح٤.

(٢) الدر المنثور: ٤/ ٣٠٩.

(٣) ميزان الحكمة: ٦/ ١٤٥، عن كنز العمال ٢٨٦٨٧.

في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾

وأوّل ما يستوقفنا في هذا الأدب الإلهي استعمال لفظ الرب في الدعاء من دون الأسماء الحسنى الأخرى، لإلفات نظر الداعي إلى هذه العلاقة الوجدانية الحميمة والعناية التربوية الخاصة التي يوليها الله تعالى لعبده، ولاستدرار الرحمة والشفقة الإلهية الخاصة، لان لفظ الربوبية دال على التربية والاعتناء بإنشاء الشيء وصناعته ورعاية صلاحه حالاً بعد حال إلى أن يبلغ تمامه هذه العلاقة التي يفتخر بها أمير المؤمنين (عليه السلام) في مناجاته (اللهي كفى بي فخراً ان تكون لي رباً)[1] بينما الذل والصغار في اتخاذ الهة وارباب مزيفين تصنعها أوهام البشر.

وفي ذلك درس حاصله ان من اهم وظائف العلماء والحكام والمسؤولين والمربّين واولياء الأمور في الاسرة والمجتمع هي تعليم الناس وتثقيفهم وتبصرتهم بالامور حتى يكون سلوكم رشيداً، وذكر ذلك امير المؤمنين وهو يعدّد واجبات الإمام تجاه الأمة (وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيلا تعلموا)[2]

في معنى أن الآية لسانها الدعاء:

والدعاء الذي ورد في الآية الكريمة، وكلّ دعاء ليس مجرد كلمات تُحرَّك بها اللسان وانما يعبِّر عن أهداف وطموحات وغايات يريد الانسان ان يصل اليها ويحققها بلطف الله تعالى وتوفيقه فعليه ان يهيئ المقدمات ويتخّذ الاسباب الموصلة الى الغاية، فعندما يطلب الانسان الزيادة المستمرة في العلم عليه ان يسعى لتحصيل هذا العلم من مصادره الطبيعية من خلال المطالعة والاستماع الى كل

(١) بحار الأنوار – العلامة المجلسي: ٩١/ ٩٤.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ٨٤ خطبة ٣٤.

معلومة نافعة ومن خلال التلقي ممن عنده هذا العلم والاستفادة منه كما هو شأن الجامعات والمعاهد والمدارس والحوزات العلمية وامثالها، والدعاء يكون حينئذٍ طلباً من الله تعالى لتيسير هذه الأسباب الطبيعية لتحصيل العلم.

لا تغفلوا عن العلم الغيبي:

وهذه هي المصادر البشرية للزيادة من العلم أي العلم المكتسب من الآخرين، ونغفل عن المصادر الغيبية أو الالهية للازدياد من العلم وهي مصادر أوسع وأنقى وأثبت وأعمق وأكثر تأثيراً والذي سنسمع وصف النبي له بأنه لا جهل معه، كمن يريد ان يسقي أرضه الزراعية فتارةً يفتح لها قناة تأتيه بالماء من النهر مع ما يَحمل في طريقها من الأوساخ والأوبئة، وأخرى يفجر من الارض ينبوعاً صافياً نقياً، فكذلك القنوات التي تغذّي العقل والقلب بماء العلم والمعرفة فإنها تارة تؤخذ من الآخرين، وتارة تتفجّر من باطن الانسان، وقد فُسِّر قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤) بالعلم ممن يأخذه لأن العلم غذاء الروح، ففي الكافي عن زيد الشحّام عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿عبس:٢٤﴾ قلت: ما طعامه، قال (عليه السلام): علمه الذي يأخذه عمّن يأخذه)[1].

(١) الكافي: ١/٣٩ / ح٨.

مصادر العلم الغيبي:

ومن هذه المصادر:

١- **التقوى:** قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٢) فالتعليم الالهي يتعقب التقوى وهو العلم اللدني الذي ورد في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف:٦٥)، وعن النبي (لو خفتم الله حق خيفته لعُلّمتم العلم الذي لا جهل معه)[١] وهو العلم اللّدني.

قال الشاعر:

شكوتُ الى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني الى ترك المعاصي

وعلّمه بأن العلم نورٌ ... ونور الله لا يؤتى لعاصي[٢]

وكلما أزداد الانسان تقوى وابتعاداً عما يُسخط الله تعالى وعملاً بما يرضيه كان أكثر انفتاحاً على الاسباب الالهية وكانت مرآته أصفى وأنقى فتنعكس فيها حقائق العلوم حتى تبلغ الذروة عند المعصومين (عليهم السلام)، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما من ليلة جمعة إلا ولأولياء الله فيها سرور قلت: كيف ذلك؟ جعلت فداك قال: إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله العرش ووافى الائمة (عليهم السلام) ووافيت معهم فما أرجع إلا بعلم مستفاد ولولا ذلك لنفد ما عندي)[٣]، وسُئل الإمام

---

(١) ميزان الحكمة: ٦/ ٢٠٣، عن كنز العمال ٥٨٨١.

(٢) يُنسب هذا الشعر الى الشافعي. أنظر: تفسير الآلوسي: ٩٠/٦.- موسوعة الرقائق والأدب - ياسر الحمداني:٤٨٠/١

(٣) اصول الكافي: ١/ كتاب الحجة، باب في أن الائمة (عليهم السلام) يزدادون في ليلة الجمعة، ح٣.

الصادق (عليه السلام) (إنا نسئلك احياناً فتسرع في الجواب وأحياناً تطرق ثم تجيبنا ؟ قال: نعم انه ينكت في أذاننا وقلوبنا فاذا نكت نطقنا وإذا امسك عنا أمسكنا)[١]، وهذا المصدر هو الذي يفسر الظاهرة الغريبة التي بدأت مع الإمام الجواد (عليه السلام) وولده الإمام الهادي (عليه السلام) بقيامهما بأعباء الإمامة وقيادة الأمة ومناظرة العلماء في مختلف الفنون وهما صبيان في الثامنة من العمر وعجز الاخرون عن تفسيرها لعدم إيمانهم بالعقائد الحقة.

٢- **من خلال العمل به**، فان العمل بما تعلم وتطبيقه ينتج علما جديدا عن رسول الله قال: (من تعلّم فعمل علّمه الله ما لم يعلم)[٢] فهذه إذن زيادة في العلم حصل عليها من خلال العمل بما علم، وعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ما زكا العلم بمثل العمل به)[٣]، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) (من عمل بما يعلم علّمهُ الله ما لا يعلم)[٤]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (العمل مقرون الى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم)[٥].

وهكذا تستمر جدلية التأثير والترابط بين العلم والعمل، زيادة ونقصاً، فمن عمل بالعلم ازداد،ومن لم يعمل بعلمه يفقده، عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال:

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ١٩/ ٩١ عن بصائر الدرجات.

(٢) ميزان الحكمة: ٦/ ٢٠٢، عن كنز العمال: ح٢٨٦٦١.

(٣) غرر الحكم: ٩٥٦٩.

(٤) اعلام الدين: ٣٠١.

(٥) منية المريد: ١٨١.

(مَنْ عَلِمَ عَمِلَ وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلاّ ارْتَحَلَ)[١].

وهذه الحقيقة جارية في كل المجالات فمن اكتسب معلومة اخلاقية وعمل بها سيوفق الى درجة أعلى، ومن استفاد نظرية علمية اكاديمية ثم اجرى تجارب ومحاولات عليها فانه سيتوصل الى نتائج ومعلومات جديدة، حتى على مستوى الطالب الذي يطالع دروسه فانه عندما يلخصّ ويستذكر ويخطّط ويرسم او يحلّ المسائل الرياضية بيده يحصل على معلومات لا يحصل عليها من يكتفي بمطالعة الكتاب .

٣- **ومن خلال إنفاقه اي نشره وتعليمه** من لا يعلمه بأيّ وسيلة للنشر التي اتّسعت اليوم وأصبح بإمكان الشخص أن يخاطب الآخرين في العالم كله، من وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل بن زياد وهو يقارن بين المال والعلم قال (عليه السلام): (وَالْمَالُ تُنقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ)[٢] والتجارب اثبتت ايضا صحة هذا المسلك فأن من يتصدى للتدريس وتعليم الاخرين وينشر ما عنده من العلم فانه يشعر بزيادة في العلم لم يحصّلها من احد، عن الإمام الحسن (عليه السلام) قال: (علّم الناس، وتعلّم علم غيرك، فتكون قد اتقنت علمك، وعَلِمْتَ ما لم تعلمْ)[٣] هذا غير الثواب الكثير لمن علّم الناس شيئا ينتفعون به ولو كان حديثاً شريفاً أو مسألة شرعية أو عملاً صالحاً أو... وقد وردت في ذلك روايات كثيرة نكتفي بواحدة منها عن رسول الله (يجيء الرجل يوم القيامة وله من الحسنات

---

(١) نهج البلاغة: ٣٦٦.

(٢) نهج البلاغة: ١٤٧.

(٣) كشف الغمة: ١٩٧/ ح٢.

كالسحاب الركام أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا ربِّ أنّى لي هذا ولم أعملها ؟ فيقول: هذا علمك الذي علّمته الناس، يُعمل به من بعدك)[١].

وقد جُمع هذان المصدران للمعرفة في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عن ابيه (عليهما السلام) قال: (جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الانصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع له، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ له، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه؟ قال: ثم نشره)[٢].

فهذه هي مراحل تحصيل العلم وازدياده: الإنصات للمعلومة والإصغاء اليها ووعيها ثم حفظها واستيعابها ثم العمل على طبقها وتحويلها الى الواقع ثم نشرها وتعليمها للآخرين.

في معنى قوله تعالى: ﴿زِدْنِي﴾:

ويظهر من كلمة ﴿زِدْنِي﴾ وتعقب هذه الفقرة لقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه:١١٤) إن الحصول على هذا العلم تدريجي فكلما وصل الى مرتبة وحفظها وعمل بها أُعطيت له مرتبة جديدة فاذا حفظها وعمل بها أستحق الاعلى وهكذا ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٧٦)، وهذه نتيجة صحيحة إذ ان العلم لا يهجم دفعة واحدة من غير توفر القدرة على تحمله، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من زاد علمه على عقله كان

(١) بحار الانوار: ٢/ ١٨/ ح ٤٤.

(٢) الفرقان: ١٩/ ٩١، عن الخصال.

وبالاً عليه)، وقال (عليه السلام): (كل علم لا يؤيده عقل مظلّةٌ)[١].

في معنى قوله تعالى: ﴿عِلْمًا﴾:

هذا بالنسبة لزيادةالعلم، اما كلمة (علم) فنلاحظ فيها انها مطلقة فالزيادة مطلوبة في كل علم ولا تختص بالعلوم الشرعية، نعم لابد من تقييدها بالعلم النافع في الدنيا او الاخرة اي فيه صلاح الناس كما ورد في الدعاء النبوي المتقدم في بداية البحث، وعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (خير العلوم ما اصلحك)[٢]، وعنه (عليه السلام) قال: (خَيرُ الْعِلْمِ ما أَصْلَحْتَ بِه رَشادَكَ وَشَرُّهُ ما أَفْسَدْتَ بِه مَعادَكَ)، وعنه (عليه السلام) قال: (رب علم أدّى الى مضلّتك)[٣].

لذلك نجد في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) انه كما كان يدرّس العلوم والمعارف الدينية فانه كان يدرّس العلوم الطبيعية فتخرج على يديه جابر بن حيان في الكيمياء وله كتاب في الفسلجة يشرح فيه تشريح جسم الانسان ووظائف الاعضاء باسم توحيد المفضّل وتوجد روايات في الحساب والفلك وغيرهما.

ولأن العمر قصير لا يتيسر معه الاحاطة بكل العلوم فضلاً عن العمل بها لذا لابد من الاقتصار على الافضل والاحسن والاكثر صلاحاً عن رسول الله قال: (العلم أكثر من ان يُحصى، فخذ من كل شيء أحسنه)[٤]، وفي حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (خذوا من كل علم أحسنه، فان النحل يأكل من كل زهرة

---

(١) غرر الحكم: ٨٦٠١، ٦٨٦٩.

(٢) غرر الحكم: ٤٩٦٣، ٥٠٢٣.

(٣) غرر الحكم: ٥٣٥٢.

(٤) ميزان الحكمة: ٦/ ١٩٩، عن كنز الفوائد ٢/ ٣١.

أزينه، فيتولد منه جوهران نفيسان: احدهما فيه شفاء للناس، والاخر يستضاء به)[١].

وأنفس العلوم وأشرفها وأهمّها المعارف الدينية من العقائد والأخلاق والأحكام لأنها اكثر التصاقا بعلاقة الانسان بربّه ودينه وما يضمن له السعادة في دنياه واخرته، من وصية الإمام علي لولده الحسن (عليه السلام) (ورأيت ... ان ابتدأك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله، وشرائع الاسلام واحكامه، وحلاله وحرامه، لا اجاوز ذلك بك الى غيره)[٢].

الدعوة الى أن تكونوا من حملة العلم:

في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) (عليكم بالتفقّه في الدين، ولا تكونوا اعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزكِّ له عملاً) وعنه، (عليه السلام) قال: (لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقّهوا)[٣].

فإذا نال قسطاً وافراً من العلم بالمقدار الذي يستطيع به إرشاد الناس وهدايتهم كان من أهل الحديث الشريف عن الإمام الجواد (عليه السلام) (من تكفّل بأيتام آل محمد المنقطعين عن امامهم المتحيرين في جهلهم الأُسراء في أيدي شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا فأستنقذهم منهم وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين برد وساوسهم وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم ليُفضَّلون

---

(١) غرر الحكم: ٥٠٨٢ - نهج البلاغة.

(٢) جواهر البحار: ج٧٤/ كتاب الروضة/ باب وصية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي (عليه السلام) وإلى محمد بن الحنفية عن نهج البلاغة.

(٣) أصول الكافي: ١/ كتاب فضل العلم/ باب١/ ح٧-٨.

عند الله تعالى على العباد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء،وفضلهم على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء)[1].

هذا الخير الذي لا يضاهيه خير في هذه الدنيا طالما دعانا الله تعالى اليه في كتابه، وحثّنا عليه الأئمة المعصومون (عليهم السلام)، وتبعاً لذلك فقد طالبنا كل ذوي العقول النيرة والهمة العالية والشعور بالمسؤولية أن يرتبوا أوضاعهم ويهيئوا المقدمات للالتحاق بالحوزات العلمية الدينية ويحظون بهذه المقامات العالية.

وينبغي هنا الالتفات إلى حقيقة وهي أنه كلما أزداد اهتمام الله تعالى في كتابه والمعصومين (عليهم السلام) بشيء فهذا يعني أن مدخليتهُ في التكامل والقرب من الله تعالى أقوى، والاهتمام بتحصيل العلوم والمعارف الدينية بلغت الذروة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه وأحاديث الائمة (عليهم السلام) بحيث تجاوزت المئات في كل منهما، فلابد أن نفهم ونستوعب هذه الرسالة من الله تعالى ورسوله وأهل بيته الكرام (عليهم السلام).

(١) بحار الانوار: ٢/ ٦، عن الاحتجاج وتفسير العسكري (عليه السلام).

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ﴿سورة القلم:٩﴾

لا مساومة على المبادئ الحقة

تكشف الآية الكريمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) عن خدعة يتخذها الكفار والمشركون والمكذبوّن كأسلوب لمواجهة دعوته المباركة وإيقاف انتشارها وذلك من خلال سعيهم بكل رغبة واهتمام إلى أن تداهنهم[1] وتتوصل معهم إلى انصاف حلول - كما يقال - ترضيهم ويرضونك فتتنازل عن بعض مبادئك وتقبل بواقعهم الفاسد والمنحرف مقابل ان يعترفوا بك وبألهك ورسالتك ويخففّوا من ضّغطهم عليك أو يتقاسمون معك المنافع والامتيازات.

وقدّموا عروضاً في ذلك كقول عتبة بن ربيعة (يا ابن أخي إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به احلامهم، وعبت به ألهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من أبائهم فاسمع مني اعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): قل أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا)[2].

وفي مرة أخرى جاءه مجموعة من اسياد قريش وطواغيتهم فقالوا: (يا

---

(١) أي تلاطفهم وتلاينهم وتكون مرناً معهم، مأخوذة من الدهن الذي يليّن الاجسام الصلبة ويسّهل حركتها ويستعمل لفظ المداهنة في الحالة المذمومة.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٩٣.

محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وانت في امرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنّا قد أخذنا منه حظاً)[1].

وكان الرد الحاسم على مثل هذه المحاولات في الآية السابقة عليها ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (القلم:٨) وفي سورة الكافرون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (الكافرون:١-٢) وفي آية أخرى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة:٤٩) فقطع عليهم كل طرق المساومة والمداهنة رغم انه (صلى الله عليه وآله) كان في اصعب الظروف واحلكها ويعاني الوان الألم والتضييق والتجويع والتعذيب والقتل.

ويتوجه أهل الباطل إلى هذا الأسلوب بعد أن يعجزوا عن القضاء على الحق وتطويقه ومنع الناس من اتباعه ويصبح امراً واقعاً لا يستطيعون الغاءه فيلجأون إلى المساومة وعقد الصفقات ويتخذون مختلف الوسائل لدفع أهل الحق للقبول بهذه المساومة فيهددونهم بالقتل والتجويع تارة أو يطمعوّنهم تارة أخرى أو يبثوا عليهم الاشاعات بإعلام قوي فاعل للضغط عليهم نفسياً وعزلهم اجتماعياً أو التأثير على اتباعهم لينفضّوا عنهم.

وهم بذلك يحصلون على أكثر من هدف:

١- كسب الشرعية لباطلهم من دون ان يخسروا شيئاً لان ما عندهم أوهام

---

(١) الدر المنثور: ٨/ ٦٥٥.

وضلالات ودنيا زائفة لذلك فانهم يريدون منك المداهنه اولاً لانهم مستعدون لكل شيء يحفظ مصالحهم كلها او بعضها.

٢- اسقاط أهل الحق في أعين اتباعهم حين يتنازلون عن بعض مبادئهم وإظهارهم منافقين يبتغون الدنيا بالدين.

وفي هذا الادب الإلهي لنبيه الكريم (صلى الله عليه وآله) درس لكل الرساليين وأصحاب المبادئ أن يحافظوا على استقامتهم ويتمسكوا بالحق الذي امنوا به وساروا عليه ولا ينساقوا وراء المطامع فيدخلوا في صفقات مع أهل الباطل، وهذا الامتحان جارٍ في كل حقول الحياة ولا يختص بمجال العقيدة فيشمل السياسة والتجارة والعمل الوظيفي وأصحاب المهن فكل هؤلاء وغيرهم يتعرضون لهذه المساومات وطلب المداهنة على حساب المبادئ والاستقامة وحتى الزعامات الدينية أيضاً فانهم معرضون لهذا الابتلاء وحينئذٍ يمتاز أهل المبادئ حقاً الذين لا يساومون عليها عن الذين يتاجرون بها ويضحّون بها في اول مغنم يعرض عليهم، فيصبحون العوبة بيد أهل الباطل يسيرّونهم وفق اغراضهم، لا يفرّق في ذلك بين رجال الدين او غيرهم.

وكثيرةً هي التحالفات التي وقعت بين الحكومات الجائرة والسلطة الدينية فالثاني يوفر للأول الغطاء الشرعي ويمكّنه من رقاب الناس ويوفر الأول للثاني الامتيازات والمنافع والجاه والنفوذ ويقف الاثنان معاً متحدين في مواجهة العاملين الرساليين الذين يريدون ايقاظ الأمة وتوعيتها وتوجيهها نحو الصلاح، والمشكلة جارية حتى على صعيد الافراد فانهم يفضلّون الزعامات الدينية التي تؤمّن لهم هذه المصالح والامتيازات وتغضّ الطرف عن انحرافاتهم ومظالمهم مقابل ما

يوصلون اليهم من أموال يفضّلونهم على القيادات الرسالية التي تنصحهم وتبيّن لهم عيوبهم ولا تداهنهم ولا تجاملهم، وهذا انحراف كبير في ثقافة الأمة وتديّنها لذا كان القرآن الكريم حازماً في رفض هذه الحالة ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:٦٣).

فالدرس الذي أخذناه من النبي (صلى الله عليه وآله) والقرآن الكريم أن لا مساومة على المبادئ الحقة، وسار على هذا النهج الائمة المعصومون (عليهم السلام) لذا نجد في صفاتهم التي تسجّلها نصوص زياراتهم (ولا لأحداً فيك مطمع)[1].

(١) الأمالي – الشيخ الصدوق: ٣١٤.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿سورة الحجر:٩٧﴾

القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين

من السنن الجارية في الأمم عبر التاريخ تعرّض المصلحين والعاملين الرساليين وعلى رأسهم الأنبياء والرسل والأئمة المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) إلى الإيذاء المادي والمعنوي من قبل المتسلطين والطواغيت وأصحاب النفوذ (الذين يسميهم القرآن بالملأ) وأتباعهم من الجهلة والمنتفعين والغوغاء ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ (فصلت:٤٣)، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كثيراً﴾ (آل عمران:١٨٦)، مما يسبب لهم الماً وحزناً لتضيق به صدورهم ويبدي الله تبارك وتعالى على لسان أوليائه الحسرة والألم والتفجّع لهذا الموقف السلبي ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (يس:٣٠)، فيخبر الله تعالى نبيه في هذه الاية بانه تعالى يعلم ما يحّل به ويجري عليه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور:٤٨) ورعايتنا مستمرة ودائمة ويعلمه الاجراء الذي يتخذه لتحصيل الطمأنينة وتخفيف هذه الألام، قال تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٨-٩٩).

ويحكي القران الكريم فصولاً عديدة من هذه المواجهة تضمنت أقسى ألوان البطش والقسوة والانحطاط من قبل المعسكر الآخر وأسمى ألوان الصبر والمصابرة والجهاد والرحمة والشفقة من أولياء الله وعباده الصالحين، ورغم أن

الإيذاء المادي المشتمل على القتل والتشريد والتعذيب الجسدي والسجن والتجويع وغيرها كان قاسيا إلا أن ما يؤلم الصالحين أكثر هو الإيذاء المعنوي بالإعراض عن الاستماع إلى الحق وإتباعه وخلط الأوراق على الناس بالافتراء والكذب وقتل الشخصية بالتسقيط والتشويه لان الثاني هو الذي يحول دون نجاح مشروعهم الرسالي ويضع الحواجز بينهم ـأي المصلحينـ وبين الناس فيؤلمهم ابتعاد الناس وعدم اهتدائهم إلى الحق وتنعّمهم بالرحمة التي جاؤوهم بها من ربهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، أما الأول فإنه يؤدي إلى التعاطف معهم والالتفات إليهم واعتناق مبادئهم ولو بعد حين للشعور بمظلوميته.

ومما يزيد في شدة وطأة الإيذاء المعنوي أن أتباع نفس الرسل والمصلحين يساهمون فيه عن علم وعمد أو عن جهل وغرور وأنانية بسوء تصرفهم وبعصيانهم وعدم الالتزام بتعاليم قادتهم وبضعفهم وتشتتهم والخلافات بينهم ونحوها، بينما لا يتوقع صدور النوع الأول من الأتباع والموالين.

وكان الإيذاء المعنوي أشد على قلب رسول الله الذي وصفه الله تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، لذا كان ربّه الكريم الرحيم يسلّي قلبه ويخفف عن آلامه ويطيّب خاطره ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل:١٢٧)، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٧-٩٩).

بل إن سوراً كاملة نزلت لهذا الغرض كسورتي القصص ويوسف (عليه السلام)، فالأولى تصف حالة الاستضعاف التي كان عليها قوم موسى (عليه السلام) حيث كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم وفي ذلك البلاء العظيم ولد موسى (عليه السلام) فكان من لطف الله به وتدبيره له أن يأخذه فرعون الطاغية نفسه ويرعاه حتى أصبح رجلاً رافضاً لما عليه فرعون وقومه ثم غادر مصر خوفاً من القتل حتى ورد ماء مدين وتزوج هناك ثم عاد نبياً رسولاً كليماً لله تبارك وتعالى بمعجزة عظيمة يدعو فرعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى واستطاع أن يهدي بمعاجزه سحرة فرعون وآمن به من آمن حتى عبّأ له فرعون من الجيوش ما لا قبل لموسى والمؤمنين بهم ففلق الله تبارك وتعالى لموسى البحر وأنجاه ومن معه وأغرق فرعون وجنوده لينتصر موسى (عليه السلام) ويقيم الحق والعدل وقد عبّر الله تبارك وتعالى عن هذا التدبير بتعبير رقيق ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه:٣٩)، أي لتُصنع هذه القيادة الفذة برعاية وتدبير مباشرين من الله تبارك وتعالى، وفي نهايتها تصل السورة إلى الهدف وهو تطييب قلب رسول الله والتخفيف عن آلامه التي اشتدت في السنين الأخيرة من وجوده المبارك في مكة حيث حوصر ثلاث سنين في الشعب حتى فقد ناصريه خديجة وأبا طالب ثم أُمِر بالهجرة ومغادرة مكة التي تعلق بها قلبه فوعده الله تبارك وتعالى بأنه عائدٌ إليها ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص:٨٥)، وما مرت إلا ثمان سنوات – وهي ليست كثيرة في عمر الزمن– حتى تحقق الوعد الإلهي بفتح مكة.

وتتحدث سورة يوسف عن ذلك الغلام الصغير الذي حسده أخوته فالقوه

في الجب ليهلك ولم يكن هناك أمل بنجاته لكن التدبير الإلهي أتاه بقافلة لتستقي فخرج مع الدلو وباعوه في مصر إلى عزيزها الذي رباه واعتنى به ثم قرّبه لما وجد عنده علماً وحكمة وتدبيراً وأمانة وصار بيد النبي الكريم مقاليد أمور الولاية بعد وفاة عزيزها وجاء نفس أخوته الذين كادوا له معترفين بجريمتهم طالبين العفو والصفح فتعامل معهم بسمو الأخلاق.

هكذا يلطف الله تعالى بعباده وهكذا يصنع أولياءه ويدبّر شؤونهم، وهكذا يخيب كيد الباغين والحاسدين والمنافقين والكافرين ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر:٤٣).

إن ما يمرّ بنا اليوم من بلاء وما مرّ بنا أيام صدام وغيره من الطواغيت لا يستحق أن يذكر في جنب ما أصاب أولياء الله الصالحين في الأمم السالفة حيث ورد في الروايات أنهم نشروا بالمناشير وقرضوا بالمقاريض وحفرت لهم أخاديد النار والقوا فيها فقضوا حرقاً (سورة البروج) والمتوقع من المتهالكين على السلطة وحب الدنيا أن يفعلوا ما هو أسوا لولا لطف الله تبارك وتعالى، فخير ما يسليكم ويطمئن قلوبكم وينوّر بصائركم ويثبت أقدامكم هو القرآن الكريم فاتخذوه قائداً وهادياً. وقد عشت مثل هذه التجربة مع القرآن ولا زلت أعيش لذة الأيام التي قضيتها في كنفه في ثمانينات القرن الماضي حينما كنت حبيساً في الدار لا ادري في أي لحظة يقبض عليَّ الطغاة ويعدمونني الحياة.

وإن مما يخفّف الآلام والمصاعب ويدفعنا إلى بذل المزيد من الجهود هو أن نلتفت إلى النعمة التي منحنا الله تبارك وتعالى إياها في هذا الزمن حيث تتوفر أعظم فرصة لبناء المستقبل الزاهر لامتنا ونفض غبار السبات الذي أصابها منذ

أكثر من ألف عام، ونمهّد لدولة الحق والعدل ببناء أنفسنا ومجتمعنا ومؤسساتنا على أسس الإخلاص والتقوى والعمل الصالح بعيداً عن المتصارعين على الدنيا الفانية الزائلة. لقد كان أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) يتسابقون إلى الموت فرحين مسرورين لان الإمام (عليه السلام) كشف لهم عن بصائرهم فرأوا منازلهم في الجنة أي رأوا نتائج تضحياتهم والمستقبل العظيم لما يقومون به فصغُر في أعينهم ما يلاقون من ألم الجراح وهذا التفسير منسجم مع ما نعتقده من تجسّم الأعمال.

وإذا كانت تلك التضحيات لإبقاء الحياة وجذوة الضمير والايمان في جسد الأمة فإن تضحيات اليوم ستؤدي إلى بعثها من جديد وحركتها نحو بناء دولة الحق والعدل.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف:١٥٧)

يبيّن هذا المقطع من الآية مظهراً من مظاهر الرحمة الالهية وصفة من صفات النبي وغرضاً من إرساله بهذه الشريعة السمحاء ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨).

و(الإصر) الشد الوثيق لذا توصف علاقة الأرحام بالآصرة واستُعْمِلَ المصطلح في الكيمياء فيُقال: (الآصرة الأيونية والآصرة التساهمية) ويُطلق على العهد والميثاق بالإصْر لأنه يشدّ صاحبه الى الالتزام به قال تعالى: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى﴾ (آل عمران:٨١) ولما كان الشد الوثيق يشكّل عبئاً ثقيلاً ومشقةً على صاحبه أُطلِق الإصر على الحِمل الشاق وما يحبس الشيء ويمنعه بالقوة، فالإصر هنا في الآية ما يثبّط الناس عن فعل الخيرات ويمنع من تحصيلهم الثواب.

﴿وَالأَغْلاَلَ﴾ بمعنى القيود كما هو واضح، والمقصود بها هنا الأغلال المعنوية والعملية التي يشق عليهم تحملها والالتزام بها، وتعيق سعيهم لنيل السعادة والفلاح.

فيكون معنى الآية ان الهدف من الشريعة الالهية التي جاء بها النبي هو رفع وإزالة هذه الآصار والأغلال عن الناس ليعيشوا السماحة واليسر في حياتهم وليكونوا أحراراً في دنياهم غير مُكبلّين بالقيود التي تعيق حركتهم نحو الكمال والسعادة والفلاح ببركة إرسال النبي الى هذه الامة المرحومة .

ويمكن ان نفهم عدة أشكال لهذه الأعباء والأغلال والمعوّقات التي بُعث

النبي بالشريعة الاسلامية لرفعها ووضعها عن الأمة:

١- أنه ألغى من حياتهم التشريعات الشاقة التي كتبت على الامم السابقة عقوبة لهم أو أنهم ابتدعوها من عندهم كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة ﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٥٤) أو قطع الاعضاء التي تقع في الخطيئة أو قرض موضع النجاسة من البدن والثوب أو صوم الوصال ونحو ذلك، هذه التي جمعها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة:٢٨٦) او الرهبنة والانعزال ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد:٢٧).

٢- أنه حررهم من كل القيود والأغلال العقائدية والفكرية والنفسية والاجتماعية التي تصيب بصيرته بالغشاوة وتضرب على عقله بالقيود فيعمى عن رؤية الحق وتُكبّل إرادة الناس وتعيق حركة الاصلاح لأننا بعد ان عرفنا معنى الإصر والأغلال وأنها ما يمنع الناس عن الترقي والكمال فإذا هي تشمل كل ما يعيق هذه الحركة سواء كانت قيوداً للفكر أو السلوك أو الاعتقاد أو التعامل مع الآخرين وغير ذلك، فمن الأغلال العقائدية:الشرك والكفر والإلحاد والوثنية، ومن الاغلال الفكرية:الجهل والغفلة والتخلف والخرافة، ومن الأغلال الاجتماعية:الطبقية والتمييز والاستكبار والاستضعاف والاستعباد والفقر والظلم والحرمان والموروثات والتقاليد البالية التي تكون حجر عثرة في طريق الاصلاح، ومن الأغلال النفسية الحقد والكراهية والغرور والأنانية والتعصب سواء كان لأشخاص أو عشائر أو فِرَقْ أو أحزاب أو قوميات أو طوائف أو حتى مرجعيات دينية، لأنها هذه كلها وغيرها مما يصدّ عن الحق ويضع غشاوة على بصيرته

ويفسد فطرته ويعيق حركة التكامل ويمنع الانسان من اختيار الطريق الصحيح بحرية وارادة وموضوعية، وكيف يستطيع من كُبِّل بواحد أو أكثر من هذه القيود أن يصل الى الحق ويتعرف عليه فضلاً عن التوفيق للعمل به لذا ورد في الدعاء (اللهم أرني الحق حقا حتى أتبعه)[1].

٣- إن المراد بالآصار والأغلال: الصعوبات والبلاءات التي تُصيب الانسان، فوضعها عن المسلمين يُراد منه أن النبي بيّن لهم الوسيلة التي تحميهم وتجنبُهم من هذه البلاءات والكوارث التي تصيب الناس عندما ينغمسون في المعاصي ويتمردون على السنن الإلهية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠) فمن الرحمة الالهية التي جاء بها النبي للبشرية أنه علمهم كيف يخلصون أنفسهم ومجتمعاتهم من هذه البلاءات ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس٩٨).

وقد اعترف الغرب اليوم بعد عجزه عن إيقاف تمدد الأمراض الفتاكة كالإيدز وامثاله والصراعات التي تهلك الحرث والنسل بان العلاج الناجح الوحيد هو بالعودة الى الإيمان بالله والقيم الروحية والمبادئ الانسانية.

ومضافا الى ما تقدم من الوجوه ومستويات الفهم فأننا نستطيع ان نستخلص عدة دلالات من هذه الفقرة القرآنية:

أولاً: ان الشريعة الالهية توفر الحرية الحقيقية للإنسان لأنها تحرره من كل

(١) إعانة الطالبين- البكري الدمياطي: ١/ ٢١٥، وفي بحار الأنوار- المجلسي: ٨٣/ ١٢٠.

القيود والاغلال التي تكبّله، فهي تخلّصه أولاً من عبودية نفسه الأمارة بالسوء التي تدعوه الى طاعة الشهوات والاهواء والانفعالات وهي لا عقل لها فتوقعه في المهالك وهذه نتيجة حتمية لا تحتاج الى دليل لأن الواقع المزري للبعيدين عن القانون الالهي شاهد على ذلك، وتخلّصه ثانياً من عبودية غيره من بني جنسه من البشر كالحكام المستبدين والطواغيت وسدنة المعابد وأدعياء العناوين المقدسة المتاجرين بالدين من أجل الدنيا وحيازة المغانم والمصالح لذواتهم على حساب الناس، وتحرّره من القلق والأوهام والضيق والاضطراب وكل الضغوط ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

فالحرية بمعناها الانساني النبيل تحققها الشريعة الالهية الحقّة أما الابتعاد عنها فيؤدي الى الشقاء والهلاك والالم في الدنيا قبل الاخرة، وليست الحرية بمعنى الانفلات والتمرد على السنن الإلهية الحاكمة في الكون والانسان.

ثانياً: أن هذه الشريعة المباركة دليل على صدق النبي في دعواه بأنه مُرسل من الله تبارك وتعالى لهداية البشر وإصلاحهم، لأنه حارب كل تلك الأغلال والآصار وسعى بكل جهده لتخليص الناس منها فدعا الناس الى توحيد الخالق العظيم ونبذ كل الالهة المصطنعة ووضع لهم قوانين العدالة والمساواة بين الناس جميعاً أمام القانون وحارب الطبقية والتمييز ونشر الأخلاق والفضيلة ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والظلم، وحثَّ على العلم والمعرفة بشكل مذهل.

ولو كان مدعياً بغير حق ويبتغي بدعواه الوصول الى السلطة والنفوذ وحيازة الدنيا لأستعبدَ الناس واستأثرَ بخيراتهم ولأبقاهم على قيود الجهل والغفلة والتخلف ليسيطر عليهم ويتمكن من مقدراتهم كما يفعل كل الطغاة والمستبدين.

وهذا معيار ينفع في تمييز القيادات الحقة في كل المجالات واولها القيادات الدينية التي يفترض انها تمثل نيابة المعصومين (عليهم السلام)، لأن القرآن الكريم ومنه هذه الآية عامٌ شاملٌ لكل البشر وخالدٌ الى قيام يوم الساعة ولا يمكن تحجيم دوره بفترة نزوله.

ثالثاً: ان الآية فيها وعد وترغيب وتطمين للمؤمنين بأنهم إذا امنوا بالنبي وأتبعوا تعاليمه واستقاموا على دينه فان الله تعالى سيرفع عنهم الكثير من الصعوبات والمكاره والبلاءات، وسيضع عنهم هذه الأغلال والاصار، وسيرحمهم.

رابعاً: إن هذه الفقرة من الآية الكريمة تعرّفنا على جانب مشرق من سيرة النبي وثمرات شريعته المباركة إذ لولا كونه رحيماً شفيقاً ودوداً له أخلاق عظيمة لما استطاع تأدية هذا الدور المبارك في رحمة العباد، وبهذه المعرفة نزداد حباً لأن المعرفة تولد الحب، وهل يمكن أن يحب الانسان شيئاً يجهله ولا يعرف عنه شيئا، والحب يحرّك نحو اتباع المحبوب وهو رسول الله .

خامساً: إن الآية والمعرفة التي استخلصناها منها تحمّلُنا مسؤولية إعانة رسول الله في تحقيق أهدافه المذكورة وهي وضع الآصار والأغلال عن الامة وتحريرها من قيودها من خلال تفعيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمساعدة الناس على إزالة هذه الآصار والأغلال، والشاهد على ذلك أن نفس هذه الآية تضمّنت دعوة مباشرة لاتباعه ليعينوه على رسالته الخالدة فيقع اجرهم على الله تبارك وتعالى وعلى رسوله الكريم قال تعالى في ذيل هذه الآية ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧) وهذه الآية وسائر آيات القرآن الكريم ليست خاصة بأصحابه

الذين كانوا معه، بل تشمل كل المؤمنين به الى نهاية الدنيا، وهم جميعا مطالبون بهذه النصرة والمؤازرة والإعانة، وتختم الآية بقول حازم وهو أن هؤلاء الذين يجمعون هذه الأوصاف هم المفلحون لا غيرهم لأنها ظاهرة في الحصر. أعاننا الله تعالى وجميع المؤمنين على أن نكون بهذه الصفات بلطفه وكرمه.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾

﴿سورة الإسراء: ٧٩﴾

صلاة الليل وسيلة الإعداد لتحمل المسؤوليات الكبيرة ونيل المقامات الرفيعة

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ يمكن أن تكون (من) بيانية لبيان خصوصية التهجّد في الليل وعظيم بركاته، مما سنذكره لاحقاً ان شاء الله تعالى ولأنّ النهار من شأنه النشاط والحركة فلا يحتاج العمل فيه إلى بيان فنَاسَبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدّثر: ٢)، أما الليل فهو للنوم والسكون فالعمل فيه يحتاج إلى تنبيه لعدم قضاء الليل كله في النوم.

ويمكن أن تكون (من) تبعيضية أي بعض الليل، والتبعيض يمكن أن يستفاد من الباء ايضاً كما في آية الوضوء، وقد حدّدت آيات سورة المزمِّل هذا البعض، قال تعالى ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمّل: ٢-٤).

﴿فَتَهَجَّدْ﴾ الهجود هو النوم ومعنى تهجّد أي قاوم النوم وتكلّف اليقظة فيكون من استعمال الشيء فيما يقابله، كما يقال متأثم اذا كره الاثم[1]، وكالتمريض الذي اشتق من المرض الا انه يعني معالجة المرض.

وربما[1] كان اصل معناه النوم المتقطع فيكون من يستيقظ ويصلي ثم يرجع الى النوم يقال له يتهجّد كما سننقل من فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة هجد.

او ان يكون معناه الركود كما قبل في اللغة واستعماله في النوم مجازي فاستعير لقيام الليل لما فيه من الخشوع والاستكانة.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي صلِّ نافلة تكون فرضاً زائداً خاصاً بك وهبة إضافية لك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث أن قيام الليل واجب عليه خاصة[٢] ومستحب لبقية الأمة، وبتنقيح المناط قد يدلّ على وجوب صلاة الليل على ولاة أمور المسلمين.

﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ تَرَجّى وأمل بأن يبلغ بهذا القيام في الليل المقام المحمود عند الله تعالى، ويمكن ان يراد به مقام الرسالة العظمى والولاية الكبرى أو إظهار دينه على الدين كله[٣]، أو الشفاعة الواسعة المقبولة، أو تفضيله على الخلق أجمعين كما في الدعاء له (صلى الله عليه وآله) (اللهم أعطه الدرجة والوسيلة من الجنة وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون)[٤]، ولا داعي للاقتصار على أحدها كالشفاعة في تفسير المقام المحمود فإنها ذُكرت في الروايات من باب التطبيق.

---

(١) المقام المحمود في سورة الاسراء المباركة: ٢١٣.

(٢) رواه الشيخ الطوسي في التهذيب: ٢/ ٢٤٢/ ح ٩٥٩ عن الإمام الصادق (عليه السلام).

(٣) كما ورد في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) والدعاء له (اللهم ابعثه مقاما محمودا تنصر به دينك، وتقتل به عدوك، وتبير به من نصب حربا لآل محمد، فإنك وعدت ذلك وأنت لا تخلف الميعاد) الكافي: ٤/ ٥٧٥.

(٤) الكافي: ٤/ ٥٥١.

وفيها إلفات الى إنّ الله تعالى هو الذي يمنح الشفاعة لأوليائه ﴿أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ إكراماً لهم وإظهاراً لجلالة قدرهم، ولا يعني بأي حال أنهم أرحم من الله تعالى بعباده.

واستعمال صيغة الترجي وليس صيغة الجزم والقطع بترتب النتيجة على الفعل ليس بلحاظ مشيئة الله تعالى لبلوغ النبي (صلى الله عليه وآله) المقام المحمود فإن إرادة الله إذا تعلّقت بأمر فإنما ﴿يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ونتيجة حتمية بالنسبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فانه وعد له (صلى الله عليه وآله) والله لا يخلف الميعاد وإنما الترجي والأمل بلحاظ الأمة التي يتوقع منها الاستنان بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فهم مخاطبون بالآية تبعاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ولهم ما وعدت به الآية بحسب المقامات المناسبة لهم كالشفاعة في الاهل وسائر المؤمنين، فلعل عرض النتيجة بصيغة الترجّي لإحداث المزيد من الرغبة والعزم، كالذي ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٤) لحثّ النبي موسى وأخيه هارون (عليهما السلام) على بذل الوسع في دعوة فرعون إلى الإيمان والتوحيد، والله تعالى يعلم أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى.

أو لإلفات النظر الى أن الجزاء الحسن من الله تعالى كرم وتفضّل وليس استحقاقاً لما يقوم به العبد من عمل صالح حتى تكون نتيجة حتمية، وليس لنا إلا الرجاء والأمل بفضل الله تعالى.

أو لبيان أن نفس الفعل لا يوجب هذه النتيجة بذاته وتلقائياً بل لا بد من انضمام كمالات أخرى كالإخلاص وإتقان العمل.

أو لإبقاء القلب متعلّقاً بالله خائفاً من التغيير والبداء ما دام في الدنيا، فهذه الحالة للقلب فيها خير كثير، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (رُبط جنان لم يفارقه الخفقان)[1] وقال الإمام السجاد (عليه السلام): (وإن في اللهف إلى جودك والرضا بقضائك عوضاً من منع الباخلين)، أو لعله مثل قوله تعالى في شأن أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٨) فبعد أن عرفوا الله في الجنة علموا أن التعلق به سبحانه أكثر تطميناً للقلب من التعلق بثبات عالم الآخرة، وأن التعلق بالمعطي أفضل من التعلق بالعطاء حتى وهو عطاء غير مجذوذ. ويؤيده ما روي عن الصادق (عليه السلام) أنه ذكر أن المحتوم قد يغيره الله فيظهر فيه البداء فقيل له: (نخشى أن يبدو لله في المهدي، فقال: المهدي من الموعود والله لا يخلف الميعاد)، فمتعلق وعد الله مما لا يخضع للبداء الذي يخضع له كل شيء في الكون.

وقد بيّنت آيات سورة المزمِّل المتقدمة أن قيام الليل يهيئ لأداء الأدوار الكبيرة وتحمّل المسؤوليات العظيمة، وتتمتها ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل: ٥-٦) سنوحي إليك قولاً يحمل مسؤولية عظيمة وفيه معاني عميقة، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١)، وهو ثقيل في آثاره ونتائجه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف: ٩)، وهو ثقيل في ما يسببه لمن

(١) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد: ٢٠٩/١.

يصدع به من مصاعب ومشاق ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٢)، وقيل إن القول الثقيل تبليغ الأمر بخلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) من بعده، لأن الآية التي سبقتها أمرت بترتيل القرآن ويأتي بعده إلقاء القول الثقيل.

فلكي تتحمل هذه الأثقال استعن بناشئة الليل أي العبادة التي تُنشئها في الليل لأنها أصعب مراساً وأشدّ على النفس وأثبت للإيمان وأصدق في الأداء وأدْعى لحضور القلب، لانقطاع الشواغل، وفيها امتحان للإخلاص ففي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) (يعني بقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾: قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عز وجل[1] ولا يريد به غيره)[2] لذا فإنها تكون أحسن إنتاجاً وتحقيقاً للغرض.

ان أولياء الله تعالى عرفوا ما لقيام الليل من وسيلة لنيل رضا الله تعالى فواظبوا عليه، وإن الذين بلغوا ما بلغوا من مقامات كانت علامتهم المميزة مواظبتهم على

---

(١) أي أنه (عليه السلام) فسّر ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ بالإخلاص، فإن الرجل إذا قام في الليل وترك الراحة والرياء كان عمله خالصاً، وظهرت فيه العبودية والولاية، حتى روي من كتب الفريقين أن اختصام الملأ الأعلى في الدرجات والكفارات.. ومنها إسباغ الوضوء في السبرات.. جعلها الله مما يختصم الملأ الأعلى في ثوابها ومما فُسّر به قوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞... قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۞ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (ص:٦٥-٦٨) وهو من عين ص التي يُشتق منها كل ذكر. (راجع كتاب: عين الذِكر في سورة ص المباركة).

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت) الحر العاملي: ٨/ ١٤٦/ ح٥.

قيام الليل، لاحظ أن موسى (عليه السلام) قضى أربعين يوماً وليلة في المناجاة إلا أن الله تعالى خصّ الليالي بالذكر ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف:١٤٢).

فإذا كنتم من الساعين لنيل تلك المقامات - وحريٌّ بكل عاقل أن يكون كذلك - فأعِدُّوا أنفسكم بهذه الرياضة المعنوية لتساعدكم على نيل المقامات الحميدة والخصال الكريمة.

لذا تضمنت الوصايا التي قدّمها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يُعِّده لخلافته العظمى تركيزاً على صلاة الليل، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (كان في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) أن قال: يا علي، أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ثم قال: اللهم أعنه.... - إلى أن قال - وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل)[1].

ومن سننه (صلى الله عليه وآله) أنه كان يفرّق صلاة الليل على أجزائه ليكون في جميع وقته مستأنساً بلقاء ربه ففي التهذيب بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: وذكر صلاة النبي (صلى الله عليه وآله) قال: كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه ويوضع سواكه تحت فراشه ثم ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثم قلّب بصره في السماء ثم تلا الآيات من آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠) فما بعدها الآيات، ثم يستن[2] ويتطهّر، ثم يقوم إلى المسجد فيركع

(١) رواها في وسائل الشيعة عن المشايخ الثقات في أصولهم في عدة مواضع منها في كتاب الصلاة، أبواب بقية الصلوات المندوبة، باب٣٩/ ح١.

(٢) لعل الكلمة في الأصل (ثم يستاك)، والسواك سنّة لغيره بما سنّه هو (صلى الله عليه وآله) للناس من أفعاله.

أربع ركعات على قدر قراءة ركوعه وسجوده على قدر ركوعه[١]، يركع حتى يقال: متى يرفع رأسه ويسجد حتى يقال: متى يرفع رأسه، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد ويصلي الأربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثم يستيقظ ويجلس ويتلو الآيات من آل عمران ويقلب بصره في السماء، ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين، ثم يخرج إلى الصلاة)[٢] ورواه الكليني في الكافي بسند صحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) وفيه (ثم قال: لقد كان لكم في رسول الله (صلى الله عليه وآله) أسوة حسنة، قلت: متى كان يقوم؟ قال: بعد ثلث الليل)[٣] وفيه قال: في حديث آخر: (بعد نصف الليل)[٤].

وقد اختصر الحديث المروي عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) هذه الأهمية بقوله (الوصول إلى الله تعالى سفر لا يدرك إلا بامتطاء الليل)[٥] أي أن

---

(١) قراءة الركوع هي ما يُقرأ من سور، وقول (عليه السلام): (على قدر قراءة ركوعه) أي أن مدة ركوعه مساوية لمدة القراءة في كل ركعة.

(٢) وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٥/ ح١، التهذيب: ٢/ ٣٣٤/ ح١٣٧٧.

(٣) وهذا مما يُستدل به على أن وقت صلاة الليل يبدأ قبل منتصف الليل بعد مضي ثلثه، ومما يدلّ على ذلك آيات سورة المزمَّل الماضية فان فيها (نصفه، أو زد عليه) والزيادة على النصف تعني القيام قبل منتصف الليل.

(٤) وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٦/ ح٢، الكافي: ٣/ ٤٤٥/ ح١٣.

(٥) بحار الأنوار: ٣٧٩/٧٨، مسند الإمام العسكري: ٣٧٩، الأنوار البهية للمحدث القمي: ١٦١.

الأعمال الصالحة الموصلة إلى الله تعالى لا بد أن تُتوَّج بصلاة الليل لتوصل إلى الهدف.

وهذا الحديث له دلالات عديدة منها أن الوصول إلى الله تعالى ممكن ولكنه يحتاج إلى حركة وسلوك وقطع مسافة بما يتطلب ذلك من جهد وجهاد، وأنّه يحتاج إلى مركب يمتطيه ليقطع به الطريق وهي صلاة الليل، وأن يتجرد من الاعتماد على كل شيء مما يتعلق به قلبه وراءه كالمسافر الذي يهجر وطنه وداره وأهله وماله ومنصبه وجاهه وعلاقاته وسائر تعلقاته.

ويفيد الحديث أيضاً أن الصلوات المفروضة قد لا يكفي اتخاذها وسيلة لقطع هذا السفر ولا بد من امتطاء صلاة الليل معها ليتحقق الوصول إلى الهدف بإذن الله تعالى، وإن الصلاة بشكل عام هي أداة هذا العروج إلى الله تعالى ولعل هذه المعاني منشأ الكلمة المشهورة على ألسنة العلماء (الصلاة معراج المؤمن)[1] فهذه كلها معانٍ يمكن استفادتها بوضوح من الحديث الشريف.

ويظهر من الحديث الشريف أن السائر الى الله تبارك وتعالى يتعرض الى مخاطر كالتي يتعرض لها المسافر فلابد له من وسيلة منجية له من المهالك،

---

(١) قال الشيخ محمد الريشهري: ((لا يخفى أن عبارة (الصلاة معراج المؤمن) مع كثرة تداولها على الألسن بحيث صارت من أشهر الكلمات في وصف الصلاة، لم نجد لها مصدراً مسنداً إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أو الأئمة (عليهم السلام)، وهذا بعد أن استقصينا كلمات أصحاب الكتب في شتى العلوم ووجدناها في أكثر من ثلاثين موضعاً من عباراتهم، علماً أن كتب السنة كلها وكتب الشيعة جلها إلا ما دون في القرون الأخيرة – كروضة المتقين وبحار الأنوار للمجلسيين أعلى الله مقامهما والرواشح السماوية للمحقق الداماد (قدس سره)– خالية منها، فالظاهر أنها ليست برواية بل من عبارات علمائنا المتأخرين رضوان الله تعالى عليهم)) (كتاب: الصلاة في الكتاب والسنة: ١٥).

وصلاة الليل هي المنجية في هذا السفر الطويل، الا أن يقربّه الله تعالى (وَاَنَّ الرِاحِلَ اِلَيْكَ قَريبُ الْمَسافَةِ)[١]، فالمسافر يتعرض الى عدة مخاطر: كالتيه والمزالق الخطيرة والوحوش المفترسة وقطّاع الطرق وفقدان الزاد، وهذه المخاطر بوجودها المناسب موجودة لمن يريد السفر إلى الله تبارك وتعالى، فقطّاع الطرق هم المتلبّسون بالدين والمتظاهرون بالمعرفة الذين يضللون الناس بشبهاتهم ويبتدعون لهم أفكاراً منحرفة، وفقدان الزاد بضياع العمر من دون تقديم عمل صالح (آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر)[٢] والوحوش المفترسة هم شياطين الجن والإنس الذين يزيّنون كل قبيح من الدنيا والشهوات ليوقعوا الإنسان في المعاصي، ويقبّحون كل حسن من الهداية والصلاح ليطفئوا في قلبه نور الإيمان، ويتحقّق التيه بعدم أخذ العلم والمعرفة من أصلهما ومعدنهما، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعداً من حاجته)[٣].

هذا كله من ناحية أثر صلاة الليل في تحصيل الارتقاء في سلّم الكمال، أما من ناحية الثواب فقد ورد في صلاة الليل فضلٌ عظيم ففي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:١٧) قال (عليه السلام): (ما مِن عمل حسن يعمله العبد وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل، فإن الله تعالى لم يبين ثوابها

(١) مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثّمالي

(٢) نهج البلاغة – خطب الإمام علي (عليه السلام): ٤/ ١٧.

(٣) بحار الأنوار: ١/ ٢٠٩/ ح١١، عن نهج البلاغة.

لعظيم خطرها عنده، فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:١٦-١٧))[١].

وفي حديث قدسي (إن العبد ليقوم في الليل فيميل به النعاس يميناً وشمالاً وقد وقع ذقنه على صدره فيأمر الله تعالى أبواب السماء فتفتح ثم يقول للملائكة: انظروا إلى عبدي ما يصيبه في التقرب إليَّ بما لم أفترض عليه، راجياً مني لثلاث خصال: ذنباً أغفره له، أو توبة أجدّدها له، أو رزقاً أزيده فيه، اشهدوا ملائكتي أني قد جمعتهن له)[٢].

وروى الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال النبي (صلى الله عليه وآله) لجبرئيل (عليه السلام): عظني: فقال: يا محمد، عِشْ ما شئت فإنك ميت، وأحببْ ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، واعلم أن شرف[٣] المؤمن صلاته بالليل، وعزّه كفّه عن أعراض الناس)[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٨٧/ ١٤٠.

(٢) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٧٢.

(٣) معنى الشريف في الدنيا هو الشخص الذي يشار إليه بالبنان وتتعلق فوائد الناس به وتأثيره على حياتهم، وأما في الآخرة فهم الذين يشفعون للناس ويستغفرون لهم، وهو ما يفعله المصلي لصلاة الليل من الاستغفار لأهله وذويه وكأنها مكافأته بعد الصلاة إذ تقرّ عينه بمغفرة الله لهم وقبول شفاعته فيهم.

(٤) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٦٩.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (الركعتان في جوف الليل أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها)[١].

وتوجد روايات كثيرة في الآثار الدينية والدنيوية المباركة التي تترتب على أداء صلاة الليل كَسِعة الرزق وبهاء الوجه ورفع الهمّ والغمّ وإبعاد الحسد وغفران الذنوب وأنها نور في القيامة وأنس وضياء في القبر وغير ذلك، بفضل الله تعالى وكرمه.

ولأن صلاة الليل بهذه المنزلة العظيمة فإنها لا تُنال إلا بتوفيق خاص ويحرم منها مَن ليس أهلاً لها، في الرواية (جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: إني قد حُرمت الصلاة بالليل فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) أنت رجل قيّدتك ذنوبك)[٢].

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إني لأمقُتُ الرجل قد قرأ القرآن ثم يستيقظ من الليل فلا يقوم، حتى إذا كان الصبح قام يبادر بالصلاة)[٣].

هذا الحبّ لله تعالى وامتطاء الليل للوصول إليه سبحانه هو الذي أراده الإمام الحسين (عليه السلام) حينما طلب من ابن سعد تأجيل المعركة من عصر يوم التاسع إلى صبيحة يوم عاشوراء، فقد روي أن عمر بن سعد زحف بجيشه نحو معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) عصر يوم التاسع فأرسل أخاه العباس (عليه السلام) ليستعلم خبرهم فقصدهم في عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر فقال لهم

---

(١) علل الشرائع: ٣٦٣.

(٢) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٧٩.

(٣) بحار الأنوار: ٨٣/ ١٢٧/ ح٧٩.

العباس (عليه السلام): (ما بدا لكم، وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حُكمه أو ننازلكم! قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم) ثم أتى إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بما عرض عليه عمر بن سعد قال: (ارجع إليهم: فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية، لعلّنا نصلي لربنا الليلة، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني قد كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار)، فبات الحسين (عليه السلام) تلك الليلة راكعاً ساجداً باكياً مستغفراً متضرعاً، وبات أصحابه ولهم دوي كدويّ النحل)[1].

جزاهم الله تعالى عن الإسلام وأهله خير جزاء المحسنين.

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٦، الكامل في التاريخ: ٢/ ٥٥٨، البداية والنهاية: ٨/ ١٧٦ الإرشاد: ٢/ ٨٩، مناقب ابن شهراشوب: ٤/ ٩٨، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: ١/ ٢٥١ وغيرها.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿الفتح:١﴾

الفتح السلمي[١]

وردت في فضل قراءة سورة الفتح أحاديث عديدة، كالذي رواه أبي بن كعب عن النبي قال: (من قرأها فكأنما شهد مع محمد فتح مكة)، وفي رواية أخرى (فكأنما كان مع من بايع محمداً تحت الشجرة)[٢]، وروى الشيخ الصدوق بسنده عن عبد الله بن بكير عن أبيه قال: قال أبو عبد الله: (حصنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت إيمانكم من التلف بقراءة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فإنه إذا كان ممن يدمن قراءتها ناداه منادٍ يوم القيامة حتى يسمع الخلائق: أنت من عبادي المخلصين ألحقوه بالصالحين من عبادي، فأسكنوه جنات النعيم، وأسقوه الرحيق المختوم بمزاج الكافور)[٣]، وفي صحيح البخاري عن النبي قال: (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)[٤]، وفي كتاب طب الأئمة (عليهم السلام) بإسناده عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كنت عند علي بن الحسين (عليهما السلام) إذ أتاه رجل من بني أمية من شيعتنا فقال له: يا ابن رسول الله ما

---

(١) قبس قرآني ضمن محاضرات تفسير (من نور القرآن) التي تلقى كل يوم اربعاء على طلبة البحث الخارج وتاريخ القبس ١٦/ربيع الثاني/١٤٤٥هـ- الموافق ٢٠٢٣/١١/١م.

(٢) مجمع البيان: ٩/ ٩٨. البرهان في تفسير القرآن: ٩/ ٦١.

(٣) ثواب الأعمال: ١١٥.

(٤) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، ص ٤٤٥.

قدرت أن أمشي إليك من وجع رجلي، قال (عليه السلام): أين أنت من عوذة الحسين بن علي (عليهما السلام)؟ قال: يا ابن رسول الله وما ذاك؟ قال: ثم ذكر الآيات السبع الأولى من السورة، قال: ففعلت ما أمرني به، فما حسست بعد ذلك بشيء منها بعون الله تعالى)[1].

وقد نزلت السورة في صلح الحديبية والاتفاق الذي جرى بين النبي ومشركي قريش وبيعة الرضوان تحت الشجرة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح:١٨) في السنة السادسة للهجرة على ما تشهد به آيات السورة، والروايات الواردة في سبب نزولها، فما ورد في بعض الروايات من أنها نزلت في فتح مكة كقول الإمام الرضا (عليه السلام): (فلما فتح الله على نبيه مكة قال يا محمد ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾)[2]، ورواية عائشة في الدر المنثور عن النبي قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: فتح مكة)[3]، يحمل على ما ورد فيها من الوعد بفتح مكة ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨)، أو لأن صلح الحديبية مهّد لفتح مكة بعد سنتين، وقبله فتح خيبر وإنهاء الوجود اليهودي الخبيث في جزيرة العرب، أو لأن فتح مكة قد بدأ تحقيقه فعلاً من يوم الحديبية باقتحام عقيدة الإسلام مكة وإذعان قريش بعجزهم عن مواجهة الإسلام، أو قل

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٣٣/ ح١١.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٣٢/ ح٨.

(٣) الدر المنثور: ٧/ ٥١٠، ط.دار الفكر.

إن فتح مكة سياسياً وعقائدياً واجتماعياً قد تحقق في صلح الحديبية وإن تأخّر عسكرياً إلى السنة الثامنة للهجرة.

والآية قابلة للانطباق على الفتوحات المادية والمعنوية إلى يوم القيامة، ومنها ما يحصل اليوم من تفوق الإسلام على سائر الأديان والأيديولوجيات والأنظمة والقوانين بالبراهين والحجج والقوانين المحكمة والمبادئ السامية، وانتشاره السريع في الدول الغربية المادية وإقبال الناس أفواجاً وجماعات على اعتناقه، فهذه كلها فتوحات مستمرة بفضل الله تعالى، إلى أن يحصل الفتح الأعظم بظهور قائم آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) (وأعِنا على ذلك بفتح منك تعجلّه)[1].

وخلاصة الواقعة[2]: إن النبي خرج من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهدي سبعين بدنة وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وليس غازياً، وخرج معه ألف وأربعمائة على أكثر الأقوال وتخلّف عنه كثيرٌ من الأعراب ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ (الفتح:١١)، وهم كاذبون في دعواهم، وإنما تخلّفوا خوفاً من بطش قريش، لأنهم اعتقدوا جازمين أن هذه السفرة عملية انتحارية إذ كيف يجازف النبي ويخرج بهذا العدد من المعتمرين المسالمين ويقدّم نفسه وأصحابه لقمه سائغه لقريش المتجبرة ذات

---

(١) من دعاء الافتتاح الذي يتلى في ليالي شهر رمضان المبارك.

(٢) عن تفسير علي بن إبراهيم: ٢/ ٣٠٩، الكافي: ٨/ ٣٢٢، مجمع البيان: ٩/ ١٠٥، البرهان في تفسير القرآن: ٩/ ٦١-٦٤، سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩٦-٢٠٤.

العدة والعدد التي حشدت لقتاله قبل عام واحد عشرة آلاف مقاتل حاصروا المدينة في واقعة الأحزاب ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ (الفتح:١٢).

ولما علمت قريش بتوجهه دفعت بجيش مدجج بالسلاح لمواجهته وتقدمتهم كتيبة من الفرسان على رأسها خالد بن الوليد، ولكن النبي سلك طريقاً غير المتعارف فوصل حدود مكة من أسفلها وليس من شمالها كما هو المفروض للقادم من المدينة وتجنّب ملاقاتهم، ففوجئت قريش بالنبي والمسلمين ينزلون في الحديبية على مشارف مكة على حد الحرم الآمن ولا يستطيعون قتاله، وأسقط ما في أيديهم وعلاهم الذل والهوان، وحينما وصل النبي الحديبية أسفل مكة بركت ناقته فقال الناس: خلأت الناقة -أي حرنت عن المشي- فقال: (ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها) ثم أمر الناس بالنزول، وأرسل من يطمئن قريشاً بأنه جاء زائراً ولم يأتِ لقتال، لكنهم أصرّوا على عدم دخوله وقالوا: ((وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلنّها علينا عنوةً أبداً، ولا تحدث بذلك عنّا العرب)) وتبادلوا الرسائل، حتى تدخّل عروة بن مسعود الثقفي[1] والتقى بالنبي ورأى الأخلاق العظيمة لرسول الله وتفاني أصحابه بين يديه، فعاد إلى قريش وقال لهم: ((يا معشر قريش: إني قد جئت كسرى في ملكه،

---

(١) الذي روي أنه المقصود في الآية الكريمة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١).

وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلّمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم)).

فأرسلت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله وقالوا له: ((ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدّث العرب عنّا أنه دخلها علينا عنوة أبداً)) فوافق النبي على الصلح، وكتبا بذلك كتاباً رفض سهيل افتتاحه بالبسملة والاكتفاء بما تعارفوا عليه في الجاهلية وهو قول (باسمك اللهم)، كما رفض أن يذكر إلى جنب أسم محمد وصفه بأنه رسول الله ووافق النبي وجاء فيه: ((هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة - أي صدور منطوية على ما فيها- وأنه لا إسلال ولا إغلال- أي لا سرقة خفية ولا خيانة- وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عنّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)) وكان كاتب الصحيفة علي بن أبي طالب (عليه السلام)[1].

---

(١) في تفسير القمي: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا علي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة، فوالذي بعثني بالحق نبياً، لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد. فلما كان يوم صفين ورضوا بالحكمين، كتب: هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فقال

وقد اعترض عمر بن الخطاب على قبول النبي بشروط الصلح وقال له: ((علامَ تعطي الدنية في ديننا)) وكأنه يريد أن يدفع الصحابة نحو قتال قريش بإثارة العصبية فيهم[1]، ووافقه على ذلك جماعة رغبة في القضاء على المسلمين لأنهم قلّة ومسالمون وفي قبضة قريش وقال تعالى: فيهم ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ (الفتح:١٢) ولعلهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح:٢٦) والمراد بالكفر هنا كفران النعمة وحق الطاعة وليس المشركين الذين ما فارقوا الجاهلية حتى يُعيَّروا بها أو تحتاج الحمية الجاهلية إلى جعل جديد فقال له النبي: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني).

وأخرج البيهقي عن عروة قال: (أقبل رسول الله من الحديبية راجعا فقال رجلٌ - لم يسمِّه- من أصحاب رسول الله : والله ما هذا بفتح لقد صُدِدنا عن البيت

عمرو بن العاص: لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب: هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): صدق الله وصدق رسوله، أخبرني رسول الله (صلى الله عليه وآله) بذلك، ثم كتب الكتاب) (البرهان: ٩/ ٦٤).

(١) ولا أدري من أين أتته الشجاعة في مواجهة قريش وهو القائل بكل جبن ووقاحة قبل معركة بدر حينما استشار النبي (صلى الله عليه وآله) أصحابه في قتال قريش بعد ان أفلتت القافلة ((إنها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت، ولا ذلت منذ عزت، ولم نخرج على أهبة الحرب))، بحار الأنوار: ١٩/ ٢١٧.

وصُدَّ هَديُنا وعكف رسول الله بالحديبية ورد رجلين[١] من المسلمين خرجا فبلغ رسول الله قول رجال من أصحابه - ممن هم على شاكلة ذلك الرجل-: إن هذا ليس بفتح فقال رسول الله : بئس الكلام، هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم وردّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟ قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا، فأنزل الله سورة الفتح)[٢].

أقول: الرجل الذي لم يسمِّه هو عمر بن الخطاب بقرينة ما أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وآخرين عن عمر أنه

---

(١) وهما أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وكان معتقلاً في مكة ومكبلاً بالحديد فأفلت وقدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) مستجيراً وأبوه سهيل لا زال عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) يكتب الوثيقة ويوقعها نيابة عن قريش، والآخر هو أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي لجأ إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بعد وصوله المدينة، فردّهما رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى قريش التزاماً ببنود الاتفاقية، ولما كبر هذا الشرط على المسلمين قال (صلى الله عليه وآله): من جاءهم منا فأبعده الله ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام في قلبه جعل له مخرجاً، (مجمع البيان: ٩/ ١٠٦). وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يطمئنهم بأن الله سيجعل لهم مخرجاً وهذا ما حصل فقد قام هؤلاء بحرب عصابات ضد قريش من كمين اتخذوه مما اضطر قريش إلى إلغاء هذا الشرط وأن يقبلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(٢) الدر المنثور: ١٣/ ٤٥٩.

سأل رسول الله عن شيء ثلاث مرات فلم يجبه حتى ذهب ثم دعاه النبي وقال له: (لقد انزلت عليَّ الليلة سورة أحبّ إليَّ من الدنيا وما فيها) وقرأ سورة الفتح.

لقد تحقق بصلح الحديبية فتح ظاهر بيِّن للنبي والمسلمين لمسوا بركاته عاجلاً، ولعظمة هذا الفتح فقد نسبه الله تعالى إليه مباشرة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً﴾ (الفتح:١)، وفي هذه النسبة ﴿إِنَّا﴾ موعظة للمؤمنين بأن الله تعالى حاضر في كل شيء ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤)، فعلى المؤمنين أن يلتفتوا إلى رعاية الله تعالى المباشرة لهم، وأن يتيقنوا أنه ما مِن نصر بل كل توفيق يحصل إلا بلطفه وتأييده تبارك وتعالى.

وكان من مظاهر هذا الفتح:

١- توقف الحرب مع قريش وحصول المسلمين على الأمن من ويلات الحروب المتكررة التي أشار النبي إلى بعضها في كلمته الآنفة، قال تعالى: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة:١٢٦)، وعاد النبي والمسلمون سالمين منتصرين إلى المدينة ومعهم عهد بدخول مكة آمنين العام المقبل بعد أن كانوا يظنون أن قريشاً ستبيدهم في الصحراء، كما في الآية (١٢) المتقدمة.

٢- توفر الأجواء المناسبة لانتشار الدعاة والمبلغين والانفتاح على قبائل العرب وإقناعهم بالإسلام، بعد أن رفعت الغشاوة عن أعينهم، وكُسِر الحصار الإعلامي على رسول الله بالتشويه والافتراء والتسقيط، وعرفوا سموا أخلاق رسول الله وإنه جاء بالعدالة والكرامة والسلام والأخلاق الحميدة وقد نجحت

الخطة، حتى خرج مع النبي إلى مكة بعد سنتين لفتحها عشرة آلاف مقاتل بينما لم يزيدوا في الحديبية عن ألف وأربعمائة، وهذا يعني أن عدد المسلمين تضاعف خلال سنتين عدة أضعاف عددهم خلال تسعة عشر عاماً من عمر الرسالة، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (فما انقضت تلك المدة حتى كاد الإسلام يستولي على أهل مكة)[1].

٣- انتزاع اعتراف قريش بالوجود الإسلامي كأمر واقع فأذعنوا له وجاؤوا طالبين الصلح وهم أكثر عدة وعدداً ومعهم حلفاؤهم من قبائل العرب، وبذلك انقلبت موازين الحرب لصالح رسول الله .

٤- التمهيد للفتح الأعظم وهو فتح مكة بعد سنتين، بسبب خرق قريش لبنود الصلح بعد أن أدركت أنه ليس لمصلحتها وأنه أدى إلى عزل قريش وتفككها حيث اقتنع عدد كبير من رموزهم بالإسلام والتحقوا بالنبي في المدينة كخالد بن الوليد قائد الفرسان.

٥- تفرّغ النبي لتقوية جبهته الداخلية عقائدياً وأمنياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ومعالجة الأخطار الكامنة فيها الآتية من المنافقين في المدينة ومن اليهود في خيبر خارج المدينة، حيث استأصل وجودهم في السنة التالية ودعم اقتصاده الفتي الضعيف بما غنم من أموالهم في الحروب المتعددة معهم وتوجّه إلى خارج الجزيرة لقتال الروم في مؤتة، ووجه رسائل إلى ملوك الفرس والروم والحبشة يدعوهم إلى الإسلام.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٦٣.

ومن الدروس المستفادة من هذا الفتح أن من الممكن تحقيق النصر والفتح سلماً وبدون قتال من خلال معاهدات الصلح، وأنَّ الشعوب يمكنها أن تحقق النصر على العدو الظالم المستبد وتقنع الدنيا بقضيتها العادلة بمسيرات سلمية تحرج العدو وتسلب منه كل الذرائع لاستعمال العنف ضدهم فيذعن لمطالبهم، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ذكرتُها في بيان عن جدوى المسيرة المليونية في زيارة الأربعين والنتائج المباركة المترتبة عليها[١].

وبذلك لا نستبعد ما ورد في الدعاء للإمام المهدي الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف) (حتى تسكنه أرضك طوعا) وهو ما تناولته مفصلاً في حديث سابق[٢].

(١) موسوعة خطاب المرحلة: ٤/ ٢٨٠-٣٥٣.

(٢) موسوعة خطاب المرحلة: ١٣/ ١٨٧.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ﴿الفتح:٢﴾

الله تعالى يتكفل بمعالجة تبعات العمل الرسالي(١)

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح:١) والظاهر أن اللام للغرض، أي أن الله تعالى أنجز لنبيه هذا الفتح لتحقيق عدة بركات، قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ (الفتح:٢-٣)، ومحل البحث الفقرة الأولى.

وعلى المعنى المعروف من الذنب وهو معصية الله تعالى وأن المغفرة رفع استحقاق المؤاخذة والعقاب، فإن الآية لا يمكن فهمها على ظاهرها، لأنها تنسب صدور الذنوب من النبي ، ونحن نعتقد أنه معصوم منها على جميع المستويات الصغيرة والكبيرة قبل النبوة وبعدها بحسب الأدلة العقلية والنقلية، وقد أدّبه ربه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام:١٥) فكيف يرتكب ما يخاف منه؟، كما أنه على هذا المعنى لا يبدو الارتباط بين الفتح وغفران الذنوب الذي يقتضيه التعليل واضحاً، مع ما يمكن أن يقال بأن التعهد بمغفرة ما تأخّر من الذنوب أي المستقبلية التي لم تقع بعد فيه إغراء بالمعصية، فهذه إشكالات ثلاث تأتي على هذا المعنى من الذنب.

---

(١) كلمة ألقيت على طلبة البحث الخارج ضمن درس الأسبوعي لتفسير القرآن يوم الأربعاء ٢٣/ربيع الثاني/١٤٤٥هـ- الموافق ٢٠٢٣/١١/٨م.

وبناءً على المعنى المعروف للذنب فقد ذكر مفسّرو العامة وجوهاً لتفسير الآية لا تنسجم مع عقيدتنا الحقة في سعة عصمته التي لا يوافقنا عليها العامة، قال الطبرسي (رضوان الله عليه) ناقلاً عنهم: ((فمنها: أنهم قالوا: معناه: ما تقدم من معاصيك قبل النبوة وما تأخر عنها.

ومنها: قولهم: ما تقدّم قبل الفتح وما تأخّر عنه.

ومنها: قولهم: ما وقع وما لم يقع، وعلى الوعد بأنه يغفر له إذا وقع))[1].

أقول: لا يمكن قبول مثل هذه الوجوه المخالفة للعقيدة الحقة، مضافاً إلى أنها غير واضحة التفرع عن الفتح المبين كما يظهر من لام الغرض، قال السيد الطباطبائي (قدس سره): ((اللام في قوله ﴿لِيَغْفِرَ﴾ للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ، فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ومن المعلوم أن لا رابط بين الفتح وبين مغفرة الذنب ولا معنى معقول لتعليله بالمغفرة))[2].

لذا فيجب تفسير الآية بما لا يتنافى مع عقيدتنا في عصمة الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)، قال الطبرسي: ((ولأصحابنا فيه وجهان من التأويل أحدهما: إن المراد ليغفر لك الله ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر بشفاعتك، وأراد بذكر التقدم والتأخر ما تقدم زمانه، وما تأخر، كما يقول القائل لغيره: صفحت عن السالف والآنف من ذنوبك. وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للاتصال والسبب بينه وبين أمته. ويؤيد هذا الجواب ما رواه المفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) قال:

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ٩٩.

(٢) الميزان: ١٨/ ٢٥٧. ط. الأعلمي - بيروت.

(سأله رجل عن هذه الآية فقال: والله ما كان له ذنب، ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي (عليه السلام) ما تقدم من ذنبهم وما تأخر)[1]. وروى عمر بن يزيد قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) عن قول الله سبحانه ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال: ما كان له ذنب، ولا هم بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعته، ثم غفرها له)))[2].

أقول: إن كان يقصد ثبوت أصل الشفاعة للنبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) فهذا ثابت بالكتاب والسنة وهو صحيح في نفسه فقد أكرم الله تعالى نبيه بالشفاعة، وقد روي أنها المقام المحمود الذي وعده الله تعالى، لكن التعليل والتفريع على الفتح غير واضح، مضافاً إلى أنه معنى لا يصح على إطلاقه لمخالفته لصريح القرآن ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء:٢٨)، ولا نقبل بسريان عقيدة النصارى إلينا بأن المسيح صُلب ليفتدي أتباعه إلى يوم القيامة، فإن فيه إغراء الأمة بالمعاصي.

وأما رواية عمر بن يزيد فإنها لا تصلح شاهداً على ما ذكر من المعنى، وإنما تعني أن الأفعال السيئة لأمته التي تلحقه تبعتها والمسؤولية الأخلاقية عنها باعتباره القائد الأعلى لهم، قد غفرها الله تعالى له وهذه التبعات وابتلاء النبي بأمته مستمرة

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ١٨٤، ط. الأعلمي - بيروت. هكذا رواها الطبرسي مرسلة في مجمع البيان، والموجود في (البرهان: ٩/ ٦٧) عن تأويل الآيات رواية عن مجاهيل ولا تنتهي إلى المعصوم إذ فيها محمد بن سعيد المروزي - وهو غير مذكور في معجم الرجال- قال: (قلت لرجل.. إلى آخره).

(٢) علل الشرائع: ١٧٣/ ح١.

حتى بعد وفاته، وهذا أحد الوجوه التي يمكن حمل استغفار المعصومين (عليهم السلام) من الذنوب عليها.

ثم قال (قدس سره): ((والثاني: ما ذكره المرتضى (قدس الله روحه) أن الذنب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، والمراد ما تقدم من ذنبهم إليك في منعهم إياك عن مكة، وصدّهم لك عن المسجد الحرام، ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل الإزالة، والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه أي: يزيل الله تعالى ذلك عنك، ويستر عليك تلك الوصمة، بما فتح لك من مكة، فستدخلها فيما بعد. ولذلك جعله جزاءً على جهاده، وغرضاً في الفتح، ووجهاً له قال: ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه، لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ معنى معقول، لأن المغفرة للذنوب لا تعلق لها بالفتح، فلا يكون غرضاً فيه.

وأما قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ ... وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فلا يمتنع أن يريد به ما تقدم زمانه من فعلهم القبيح بك وبقومك)).

أقول: هذا وجه حسن ومنسجم مع ما سنختاره إن شاء الله تعالى لأن إضافة المصدر إلى مفعوله سائغ كقولك: (جئت طالباً وعظك) فإنه قابل للحمل على وعظه للمقابل ووعظ المقابل له فيكون اللفظ مجملاً وحمالاً لوجوه لكنه غير مخلٍّ لأن المراد يعرف من القرائن، نعم قد يشكل على هذا الوجه بأن الذنب هنا اسم مصدر وليس مصدر.

قال (قدس سره): ((وقيل أيضاً في ذلك وجوه أخر:

منها: أن معناه: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك - أي أن الوعد افتراضي، وفيه: أنه خلاف الظاهر من الامتنان بمغفرة ذنوب فعلية-.

ومنها: أن المراد بالذنب هناك ترك المندوب، وحَسُنَ ذلك، لأن من المعلوم أنه ممن لا يخالف الأوامر الواجبة، فجاز أن يسمى ذنباً منه، ما لو وقع من غيره لم يسم ذنباً، لعلو قدره ورفعة شأنه)).

وفيه: عدم وضوح الارتباط بينه وبين الفتح ليكون غرضاً له.

ثم قال (قدس سره) ((ومنها: أن القول خرج مخرج التعظيم، وحسن الخطاب كما قيل في قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ﴾ (التوبة:٤٣) وهذا ضعيف، لأن العادة جرت في مثل هذا أن يكون على لفظ الدعاء))[1].

أقول: يمكن أن يكون الذنب مشيراً إلى ما تقتضيه الطبيعة البشرية المتضمنة للجسد من القصور في أداء وظائف العبودية لله تعالى لابتلائها بالحاجات الحياتية كالنوم والأكل وشؤون العائلة، وتكون المغفرة - التي تعني الستر ومحو الآثار - بمعنى تكميل هذا النقص الذاتي الذي تقتضيه الطبيعة البشرية ليكون في أكمل الصفات التي تناسب حمل الرسالة الإلهية، وقد يشكل عليه بأنه غير واضح الارتباط بالفتح بحسب إفادة اللام للتعليل، ويجاب بالمعنى الواسع للفتح الذي ذكرناه في تفسير الآية الأولى، وبانسجام هذا المعنى مع النعم المذكورة في بقية الآية.

ويمكن أن نذهب في اتجاه آخر لمعالجة الإشكال ونقول: إن أصل الإشكال قد يكون لا موضوع له، لأن معنى الذنب أوسع من معصية الله تعالى

(١) مجمع البيان: ٩/ ٩٩-١٠٠. ط. مؤسسة التأريخ العربي- بيروت.

وإنما هي مما استعمل فيها لفظ الذنب لأنها من مصاديقه ولا يقتصر معناه عليها، فإنه لغةً ((كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً بذَنَبَ الشيء، ولهذا يسمى الذنب تبعة اعتباراً لما يحصل من عاقبته))[1].

أقول: فيمكن أن يطلق على ترك الأمور الراجحة عقلائياً أو شرعياً وإن لم تكن من المعاصي، كما يطلق الذنب على التبعة وفق نظر المجتمع أو القوانين الوضعية، كقول النبي الكريم موسى ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (الشعراء:١٤) ولم يصدر منه ذنب بالمعنى المعروف وهو مخالفة التكليف الشرعي؛ لأنه انتصر لمظلوم ولكنه كان يُعدَّ مذنباً بحسب قانون الظلمة.

ومن مصاديق هذه الفكرة ما روي من وجه يناسب جعل المغفرة غرضاً مترتباً على الفتح ومرتبطاً به من دون أن يلزم منه مخالفة التكاليف الشرعية، وهو ما لحقه من تبعات سيئة عند المشركين والكفار من قومه وغيرهم بسبب دعوته المباركة وخروجه عن تقاليد قومه وتمرّده عليهم فهم يعدّونه مذنباً، بل أن بعض أصحابه كان يعدُّ النبي مذنباً بتوقيع عقد الصلح مع مشركي قريش واعتقدوا إن فيه حيفاً على المسلمين وجابهوه بقولهم: ((لماذا نعطي الدنية في ديننا)) وكانوا يدفعون باتجاه القتال، فمنَّ الله تعالى عليه بمغفرة هذه الذنوب أيضاً، وأزالها من نفوسهم بظهور بركات الفتح.

ففي العيون بسنده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: (حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى (عليه السلام) فقال له المأمون: يا ابن رسول الله،

---

(١) مفردات الراغب، مادة الذنب.

أليس من قولك: الأنبياء معصومون؟ قال: بلى.. إلى أن قال: فأخبرني قول الله عز وجل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟

قال الرضا (عليه السلام): لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ (ص:٥-٧) فلما فتح الله عز وجل على نبيه مكة قال له يا محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ مكة ﴿فَتْحًا مُبِينًا۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر؛ لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم ذلك مغفوراً بظهوره عليهم. فقال المأمون: لله درك أبا الحسن)[1].

أقول: هذا الوجه يظهر بوضوح المناسبة بين الفتح ومغفرة الذنب وهو مبني على المعنى الواسع للذنب الذي أشرنا إليه، فإن المستكبرين وأصحاب الامتيازات يعتبرون خروج النبي على نظامهم الاجتماعي، وسعيه الدؤوب لتحرير الناس من استعبادهم وما تسبّب من قتل سادتهم وإذلالهم، من أعظم الذنوب لذلك فقد شنّوا عليه الحروب بكل أشكالها العسكرية والاقتصادية والإعلامية والاجتماعية،

(١) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٧٤- ١٨٠، باب ١٥/ ح١، ط. الأعلمي- بيروت.

ومارسوا أقذر أساليب التشويه والتسقيط والافتراء لإبعاد الناس عنه، فلما فتح الله تعالى لنبيه في الحديبية وما تلاه من فتح مكة تلاشت كل تلك الحروب، وظهر زيف الادعاءات، وقلت قيمة تلك المؤاخذات بانقلاب الموازين واتضاح المصلحة، وانكشفت حقيقة الإسلام ونبيّه العظيم لكل المغفَّلين المضلَّلين ومحا الله تعالى عنه آثار كل تلك الذنوب التي نُسبت إليه وفق القوانين الظالمة للمشركين، فهذا هو المعنى الأقرب للآية الكريمة[1].

والظاهر أن هذه المغفرة على نحو الوعد وليس الحتم والإلزام، أي على نحو شرط الفعل وليس شرط النتيجة لحاجتها إلى الاستغفار المستمر، وإلا لا يبقى موضوع لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد:١٩) وبذلك يندفع إشكال الإغراء بالمعصية.

والمراد بما تأخّر: التبعات الاجتماعية اللاحقة التي تحصل بسبب استمرار الرسالة المباركة في الدعوة إلى الله تعالى، ونبذ عبادة الطواغيت وسائر ما يُتبَّع ويطاع من دون الله تعالى، واتساع الدعوة المباركة وإصرارها على إصلاح الواقع الفاسد فتحصل تلقائياً تبعات جديدة.

وفي الآية الكريمة أكثر من درس وموعظة:

---

(١) وهو معنى جارٍ في غير المسلمين كما نراه اليوم حين نقرأ لبعض الغربيين مؤاخذاتهم لما نُقل لهم من أفعال نبي الإسلام ومعاركه (صلى الله عليه وآله) ثم حين يتعمقون أكثر ويصححون موازين التفكير عندهم ويدققون في النقولات المزيفة يصحح الله تعالى نظرتهم لنبي الإسلام كما صححه لمشركي مكة ومسلمي يوم الحديبية.

١-أننا إذا عملنا لله تعالى مخلصين فإن الله تبارك وتعالى يتكفل بالدفاع عنّا وإحباط كل محاولات الأعداء للنيل منّا بالتشويه والتسقيط والافتراء وإزالة آثارها وتغيير قناعات المضلّلين.

٢-إن على القيادات الرسالية أن تنتبه إلى ما تسبّبه حركتهم الرسالية من تبعات اجتماعية لدى القريب والبعيد وتسعى إلى علاجها؛ لأن بقاءها يعيق تقدم المشروع الرسالي وانتشاره.

وينبغي الالتفات إلى أن الأجوبة المتقدمة كانت بلحاظ ما ورد من الإشكال على هذه الآية الكريمة، ويكون الإشكال أوسع وأوضح ويحتاج إلى أجوبة أخرى في موارد إقرار المعصومين (عليهم السلام) واعترافهم الوارد في الأدعية والمناجاة وقد قدمنا في محاضرة سابقة[1] عشرة أجوبة لفهم مثل هذه الكلمات.

(١) من نور القرآن: ٤/ ٣٦٧.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران:١٥٩﴾

الرحمة بالمؤمنين

من ابرز الصفات الكريمة التي سجّلها القرآن الكريم للنبي (صلى الله عليه وآله): الرحمة بالمؤمنين، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، كقوله تعالى ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، وكان الغرض من بعثته الشريفة الرحمة بالعباد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ (الأعراف:١٥٦-١٥٧).

ومنها، الآية التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وتستخلص منها عدة دروس:

دروس من الرحمة النبوية:

١- **أهمية صفة الرحمة في القائد** والمسؤول الذي يريد التأسي بالقيادة النبوية المباركة؛ لأنها سر نجاح القادة، والمسؤولين في حركتهم نحو نفع الأمة، ورعايتها، وهي أساس كل احسان ومعروف تقدّمه للآخرين، وإن أساس التفاف الناس حول القائد هي الاخلاق، اما الفظ الغليظ فقد يضيّع حقه؛

لافتقاده هذه الصفة، لذا كانت من الوصايا المهمة التي وجهّها أمير المؤمنين (عليه السلام) الى مالك الاشتر لما ولاه مصر، قال (عليه السلام): (وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، والْمَحَبَّةَ لَهُمْ، واللُّطْفَ بِهِمْ)[1]، أي ان قلبك حتى لو كان غير ممتلئ بالرحمة التي هي ضرورية لنجاح عملك، فعليك أن تتكلفها، وتدرّب قلبك عليها، وتستثيرها في باطنك حتى تصبح ملكة راسخة، فان الصفات، والملكات الحسنة يمكن تحصيلها بالتهذيب، والتدريب.

وهذه الصفة يحتاج الى استشعارها كل أحد؛ لأننا كلنا مسؤولون وإن كان بدرجات متفاوتة، ففي الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[2]، فرّب الاسرة مسؤول عن اسرته، ومدير الدائرة كذلك عن دائرته، ومثله المعلم عن طلبته، والوزير عن وزارته، والضابط عن جنوده، والمرأة عن بيتها واطفالها، وهكذا.

ولما سُئِل أحدهم من هو أحبُّ أبنائك اليك؟ لم يجب بأنه فلان، أو فلان، وانما قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود[3]، والجامع المشترك لهؤلاء هو حاجتهم الى الرحمة والشفقة أكثر من غيرهم.

٢- ان هذه الصفة، وسائر خصال الخير، والكمال، لا يمكن تحصيلها

---

(١) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ٣/ ٨٤.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٧٢/ ٣٨.- صحيح البخاري- البخاري: ٣/ ١٢٥.- صحيح ابن حبان- ابن حبان: ١٠/ ٣٤٣.

(٣) أنظر: جامع المسانيد والسنن- ابن كثير: ٦/ ٧٤٣.- الإصابة في تمييز الصحابة- ابن حجر العسقلاني: ٥/ ٢٥٣.

بالسعي، والعمل، وحده، بل لابد من توفيق إلهـي، ولطـف بالعبـد، فوصـفت الآية الرحمة أنها ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، عن الإمام الجواد (عليه السلام) قال: (المؤمن يحتـاج الـى توفيق من الله وواعظ من نفسّه وقبول ممن ينصحه)[١].

٣- **ان القائد هو محور وحدة الأمة؛ إذا كان رحيماً، ليناً، شفيقاً، وهو سبب تفرقها، وتشتتها، وانقضاضها؛ إذا كان فظاً، غليظ القلب**، قاسياً لا يهـتم بشؤون الرعية، ولا يتواضع لهم، ولا يتفقدهم.

ولأن أهل البيت (عليهم السلام) ورثوا أخلاق النبي (صلى الله عليه وآله)، وصـفاته الكريمـة، فقـد كانوا محور اجتماع الأمة، ووحدتها، وهذا ما عبّرت عنـه الصـديقة الزهـراء (عليها السلام) بقولها: (وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ)[٢]، فاذا وجدت امـة متوحـدة فاعلة، فاعلم ان رحمة الله شملتها، والعكس بالعكس، وقد نقل معروف بـن فيـروز الكرخي قوله: (إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل، وأغلق عنه بـاب الجـدل، وإذا أراد الله بعبد شرا فتح له باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل)[٣].

٤- **الاجراء التربوي والاصلاحي** الذي مارسه النبي (صلى الله عليه وآله) مـع أصحابـه،

---

(١) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٤٥٧. وورد مثله عن الإمام الصـادق (عليه السلام). أنظـر: المحاسـن- أحمد البرقي: ٢/ ٦٠٤.- وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ١٢/ ٢٥.

(٢) الاحتجاج- الشيخ الطبرسي: ١/ ١٣٤.

(٣) اقتضاء العلم العمل- الخطيب البغدادي: ٧٩.- حلية الأولياء- الأصبهاني: ٨/ ٣٦١.

فان الآية جاءت في السياق القرآني الذي تحدّث عن ملابسات معركة أُحد[١]، والهزيمة التي حلّت بالمسلمين بعد الانتصار الذي تحقق اول المعركة؛ نتيجة عصيان بعضهم لأوامر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فأنهزم الجيش إلا أفراد قلائل ثبتوا حول رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين (عليه السلام).

وتسببت الهزيمة في استشهاد سبعين من اجلاء الصحابة، بينهم عم رسول الله (صلى الله عليه وآله) حمزة بن عبد المطلب، والمتوقع من القادة في مثل هذه المواقف انزال العقوبات الصارمة بحق المنهزمين، مضافاً الى العقاب الإلهي؛ لارتكابهم جريمة (الفرار من الزحف).

لكن الله تعالى وجّه نبيه الى اجراء عكس المتوقع، وهو قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وليس هذا فحسب، بل اعادة الثقة بأنفسهم، وإشعارهم بدورهم الفاعل في حياة الأمة، والمشاركة في قراراتها المصيرية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وفي هذا درس مهم لأولياء الأمور على جميع الأصعدة، بان يعتمدوا أسلوب العفو، والصفح، وزرع الثقة في نفس المخطئ، وقلع شعوره بالنقص، والدونّية، لينقلب تماماً على خطأه، ويعود الى الوضع الصالح السوي.

ولو تعاملنا بيننا بهذه الخصال النبوية الكريمة لشملتنا الرحمة، والالطاف الالهية، وحُلَّ الكثير من مشاكلنا بلطف الله تعالى.

---

(١) أنظر: تاريخ الطبري- الطبري: ٢/ ١٨٧.- الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٢/ ١٤٨.- شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ١٤/ ٢١٣.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ ﴿سورة الأنبياء:٩٤﴾

النبي (صلى الله عليه وآله) مكفور النعمة

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (الأنبياء:٩٤) وتفسير الآية باختصار ان كل عمل يقوم به الانسان فيه رضا لله تعالى ونفع للخلق فإن الله تعالى يكتب ذلك العمل ويثبته لصاحبه بما لا نُحيط من أشكال الكتابة وأنواع الشهود لشكره عليه لأن الكفران هنا بمعنى الجحود والانكار وعدم الشكر، وأصل الكفر في اللغة سُتر الشيء، وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك شكرها، فكفران السعي تغطيته وإهماله وعدم المجازاة عليه، ويقابله شكر العمل لذا عبّر تعالى عن نفس هذه الحقيقة في آية اخرى بقوله تعالى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ (الإنسان:٢٢)، وقد ورد الشكر - كفعل وسلوك - مقابل الكفر في آيات عديدة كقوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧) وقال تعالى ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠).

ومعنى شكر العمل إثابة صاحبه عليه بالجزاء المناسب ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (الكهف:٣٠)، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧) لكن هذه الآية وغيرها كالآية ١١٢ من سورة طه الآتية تفيد أن قبول الاعمال مشروط بالإيمان بالله تعالى وسائر العقائد الحقة.

وقد أطلقت الآية ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ لكي لا يقلل الانسان من شأن أي طاعة فكل عمل صالح مهما ظن الانسان أنه لا قيمة له فأن الله تعالى سوف لا يكفره أي لا يهمله قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة:١٢٠) فليس من الضروري القيام بأعمال كبيرة حتى يكون مرضياً عند الله تعالى.

وما دام العمل مسجلاً عند الله تعالى ويُشكر عليه فلا يهمه (أولاً) إن كان له تأثير في المجتمع أو لا يكون لأن هذا شيء بيد الله وقد يأتي تأثيره بعد زمن أو ينضّم الى عمل غيره فيصنع التأثير، ولا يهمه (ثانياً) إن أطلع عليه أحد وعرف انه الفاعل أو لم يطلع لأن المهم انه بعين الله تعالى ومكتوب عنده تبارك وتعالى.

فاستحضار هذه المعاني يدفع الانسان الى العمل ويرفع الهمّة ويزيد من النشاط ويطرد الكسل والشعور بالإحباط.

فهذا تفسير مختصر للآية ككل أما غرضي هنا فهو الوقوف عند هذه الفقرة ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ إذ المفروض ان إثابة المحسن على إحسانه وعدم اهمال العمل الصالح بلا مكافأة قضية فطرية ومن الضروريات ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠) فلا تحتاج القضية الى بيان فلماذا يذكره الله تعالى؟

والذي يزيد السؤال إلحاحاً ذكر هذه الحقيقة مراراً في القرآن الكريم بنفس التعبير - أي عدم الكفران - كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن

يُكْفَرُوْهُ﴾ (آل عمران:﴿١١٥﴾) أو بتعبير أخر كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ (طه:﴿١١٢﴾) أو التعبير بما يقابله وهو الشكر كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ ﴿الإنسان:﴿٢٢﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ (الإسراء:﴿١٩﴾) ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:﴿٦٢﴾).

يمكن القول أن الغرض هو لبيان وتقرير بعض تفاصيل عقيدة الايمان بالمعاد واليوم الآخر والحساب ومجازاة الاحسان والإساءة وهذا ظاهر من كثير من الآيات، والذي أُريد أن أضيفه أن الغرض هو لتطمين المحسنين وعاملي الصالحات مما يرونه من الحالة المؤسفة الغالبة لدى البشر وهي التنكر للمنعم وكفران النعمة على عكس ما هو المطلوب منهم الى حد احتاج عدم كفران الاحسان والعمل الصالح الى بيان وتبديد مخاوف حيث أصبح المعروف منكرا والمنكر معروفاً.

وأول مكفور النعمة هو الله تبارك وتعالى قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:﴿١٧﴾) وقال تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ (الإسراء:﴿٨٩﴾) وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:﴿١٣﴾) حتى اصبح كفران النعمة صفة ملازمة لسلوك البشر إلا من عصم الله قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ (الشورى:﴿٤٨﴾) والكفور هو المبالغ في كفران النعمة، وقد أكدّ الله تعالى هذه الحقيقة في آية أخرى باستعمال ﴿إِنَّ﴾ وإدخال اللام قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (الزخرف:١٥) مما أوجب حالة التأسف والاستغراب قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس:١٧) على خلاف الادب النبوي المبارك، روى السيد ابن طاووس في الاقبال كان النبي يقول - إذا أكل بعض اللقمة قبل تمامها - (اللهمَّ لك الحمد أطعمت وأسقيت وروَّيت، فلك الحمد غير مكفور ولا مودّع ولا مستغنىً عنك)[1].

ولرسول الله أسوة بربه في كونه مكفور النعمة ومجحودها وهو أعظم النعم الإلهية على المخلوقات وقد قرن الله تعالى إنعامه بإنعام نبّيه تعظيماً له وتكريماً قال تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة:٧٤) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٣٧) ولأهل البيت (عليهم السلام) أسوة برسول الله ، وكذلك اتباعهم من المؤمنين، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (كان رسول الله مكفرا لا يشكر معروفه، ولقد كان معروفه على القرشي والعربي والعجمي، ومن كان أعظم معروفا من رسول الله على هذا الخلق وكذلك نحن أهل البيت مكفرون لا يشكر معروفنا وكذلك خيار المؤمنين لا يشكر معروفهم)[2] وهي حقيقة مرة تكشف عن بعض صور الانحطاط في الاخلاق والسلوك البشري.

ومظاهر كفر البشر نعمة النبي عديدة:-

(فمنهم) من لم يؤمن برسالته أصلاً وهم أكثرُ الناس قال تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس الحسني: ١١٦ س ٢٤، وروي في كتب العامة مثله.

(٢) بحار الانوار: ٧٥/ ٤٢/ ح٣، عن علل الشرائع: ٥٦٠/ باب ٣٥٣/ ح٢.

أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣).

(ومنهم) من آمن ظاهراً بالرسالة إلا انه بعيد كل البعد عن مضمونها كالفاسقين والمنافقين ووصلت الجرأة بهم الى أن يقولوا له في وجهه الكريم وهو في اللحظات الأخيرة من حياته (ان الرجل ليهجر).

(ومنهم) من تنكر له في عترته ونصب لهم العداء حسداً وظلماً فأرتكبوا أعظم الكبائر حتى قتلوا أهل بيته وذريته وهم يشهدون ظاهراً لله تعالى بالتوحيد والى النبي بالرسالة.

(ومنهم) ظاهره التدين والالتزام بالعبادات الفردية إلا انه يُقصي شريعة رسول الله عن الحياة ويمنع من تطبيقها ويدعو الى تحكيم القوانين الوضعية بعنوان (الحكومة المدنية) وهل توجد مدنية وحضارة حقيقية بغير الإسلام والقرآن والسيرة النبوية المباركة.

(ومنهم) من يريد التخلي عن سنته الشريفة التي هي بيان كتاب الله تعالى تحت عنوان الحداثة والتجديد وإعادة قراءة النصوص الشرعية بما يناسب الثقافة المعاصرة وتمادى بعضهم فأسقط قدسية كلام المعصوم (عليه السلام) ونحو ذلك.

وبالأمس القريب حينما نجح بعض الإخوة في إقرار قانون بمنع تجارة الخمور وبيعها لم نجد مدافعاً عنه من الإسلاميين ومرجعياتهم إلا النادر فيبخلون على رسول الله حتى بهذه النصرة الضئيلة، أليس هذا من كفر النعمة؟!

وهكذا تجد صدق ما وصف به أمير المؤمنين (عليه السلام) رسول الله من أنه مكفر لا يُشكر معروفه حتى من المنتسبين اليه، فعلينا ان ننتبه لأنفسنا ونكون من الشاكرين لنعمة رسول الله وأهل بيته الطاهرين (صلى الله عليهم اجمعين)

بشكرهم والثناء عليهم والصلاة عليهم ونشر ذكرهم المبارك والدعوة اليهم وإتباع أقوالهم وأفعالهم.

ان خطورة هذا السلوك - كفران النعمة - لا يقتصر على العقوبة الوخيمة لصاحبه وقد أشرنا الى جانب من هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1] (إبراهيم:٢٨-٢٩) حتى ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال:(أربعة أسرع شيء عقوبة رجل أحسنت اليه ويكافيك بالإحسان اليه إساءة)[2].

بل يكون له أثر اجتماعي وهو ما يعبر عنه بقطع سبيل المعروف، روي عن الإمام الصادق قال: (لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل: وما قاطعو سبيل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره)[3].

وإن كان المفروض بالإنسان أن لا يمنعه عدم شكر إحسانه على تقديم المزيد من عمل الخير طلباً لرضا الله تعالى وقد طمأنته الأحاديث الشريفة على حسن جزائه عند الله تعالى، عن رسول الله قال: (أفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم من الله وسيلة المحسن يكفّر احسانه)[4] وعنه قال: (يد الله فوق رؤوس

---

(١) راجع: القبس/٧٣، ﴿الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً﴾ (إبراهيم:٢٨)، من نور القرآن: ٢/ ٣٣١

(٢) بحار الانوار: ٧٥/ ٤٢ عن الخصال: ١/ ٢٣٠ باب الأربعة/ ح ٧١.

(٣) وسائل الشيعة: ١٦/ باب٨ من أبواب فعل المعروف/ ح ١.

(٤) بحار الانوار: ٧٥/ ٤٤ عن نوادر الراوندي: ٩.

المكفّرين ترفرف بالرحمة)[١] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (لاَ يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لاَ يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾)[٢].

وقد فسّرت بعض الأحاديث معنى ان المؤمن مكفَّر النعمة، فقد روى الشيخ الصدوق في علل الشرائع عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (الْمُؤْمِنُ مُكَفَّرٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مَعْرُوفَهُ يَصْعَدُ إِلَى الله عز وجل فَلا يُنْشَرُ فِي النَّاس، وَالْكَافِرُ مَشْهور وذلك ان معروفه للناس ينتشر في الناس ولا يصعد الى السماء)[٣].

أقول: مُكَفَّر على وزن مُعظَّم وهو مجحود النعمة مع إحسانه، وذلك إما لأنه يصنعه لدى الفقراء والضعفاء المحتاجين وهؤلاء ليس لهم جاه اجتماعي وكلام مسموع حتى ينتشر ذكره بينما الكافر والمنافق يجعل معروفه في المشاهير والمتصدرين ووسائل الاعلام (والملأ) بحسب التعبير القرآني فيروجون لمن أحسن إليهم.

(أو) لأن المؤمن يصنع معروفه خفية من دون رياء أو شهرة فلا يُعرف، والكافر يصنعه علانية لان غاية ما يطلب هو الرياء والسمعة بين الناس فتتحقق له.

(أو) ان الله تعالى يريد حماية المؤمن من الرياء وحبط العمل فلا ينشره وتكفر نعمته ليزيد من ثوابه في الآخرة بينما المنافق والكافر لا خلاق لهما في الآخرة فيأخذون جزاءهم في الدنيا.

---

(١) علل الشرائع: ٢/ ٥٦٠/ الباب ٣٥٣/ ح٢.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٢٠٤.

(٣) بحار الانوار: ٧٦/ ٢٦٠، عن علل الشرائع: ٢/ ٥٦٠/ باب ٣٥٣/ ح١.

وذكر ابن الأثير معنى آخر لقوله (عليه السلام): (المؤمن مكفَّر) قال: (أي مرزأ في نفسه وماله لتكفر خطاياه)[1] وهو معنى صحيح في نفسه ودلت عليه روايات اخرى إلا انه لا يناسب أحاديث المقام وربما أورده ابن الأثير لأنه لم ينظر في بقية الحديث.

(١) النهاية: ٤/ ١٨٩.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿سورة المائدة:٦٧﴾

يوم الغدير عيد الله الأعظم

كل آيات القرآن عظيمة وجليلة، وهذه الآية من أعظم الآيات القرآنية وأجلها قدراً لأنها أسست لمستقبل الإسلام بعد النبي (صلى الله عليه وآله) وخلوده وحفظته وصانته من الانحراف والتشويه في أهم منعطف ومفصل تاريخي بوفاة النبي (صلى الله عليه وآله) وغياب شخصه عن مسرح الحياة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ أمر متوجه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) وخوطب بهذا العنوان بصفته حامل رسالة إلهية عظيمة مهيمنة على كل الأديان وقيّمة عليها وخالدة تنظم شؤون الحياة لكل البشرية مدى الأجيال، ولأنه رسول فأنه لا يملك الا تبليغ الرسالة كما يريد المُرسل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور:٥٤).

﴿بَلِّغْ﴾ أي أوصل الرسالة بوضوح وحسم وهو تعبير أقوى من (أبلغ) ولا يتحقق التبليغ الا بأمرين: كون البيان واضحاً معبراً عن المطلوب بدقة، وكونه معلناً صريحاً وحاسماً ومشهوراً للناس.

﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ولم يذكره صريحاً تعظيماً له وللإشارة إلى أنه منزّل إليك من الله تعالى وليس لك أي يد فيه حتى لا يتهم بمحاباة أو مصلحة شخصية وغير ذلك، ولأنه منزل إليك فليس لك خيار إلاّ تبليغه.

وهذا الأمر المراد تبليغه لا يراد به كل ما انزل إليك - كما قال بعض العامة - لأن الجملة تصبح لغواً وتحصيل حاصل مع الجملة التالية وتصبح كالتالي ((وإن لم تبلّغ ما انزل اليك فما بلّغت ما انزل اليك)).

وليس هو قضية التوحيد أو النبوة أو البعث يوم القيامة ونحو ذلك من العقائد الحقة لأن هذه كلها بلّغها النبي (صلى الله عليه وآله) منذ بداية البعثة من دون تردد فلا تحتاج إلى التطمين التالي ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وليس هذا الأمر من قبيل الأحكام الشرعية لأنها بُلّغت كلها تدريجياً بحسب نزول الآيات الآمرة بها.

وإنما هو أمر محدد أنزله الله تعالى إليك في آيات سابقة وبوحي متكرر في مناسبات متعددة لتبلّغه ولكنه لم يكن حاسماً قاطعاً كما يراد تبليغه الآن، وهو أمرٌ مهم وخطير بحيث أنه يعدل الرسالة كلها، وإن لم يبلّغه فكأنه لم يبلغ الرسالة كلها كما أفاد الجزء التالي من الآية.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ اختار الرب دون الأسماء الحسنى وإضافه إليه (صلى الله عليه وآله) لإظهار مزيد من الرحمة والحنو على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأن هذا الأمر أنزله ربك الذي ربّاك وتكفل بك وحماك ونصرك وأعلى شأنك فلتطب نفسك وليطمئن قلبك.

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جملة لم يرد مثلها في القرآن الكريم وتعزّز التأكيدات المتكررة على تبليغ هذا الأمر، وظاهرها التهديد الا ان هذا المعنى غير وارد لأن النبي (صلى الله عليه وآله) لا يحتمل فيه عدم التبليغ حتى يذكر جزاؤه، وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:١٢٤) فالآية في حقيقتها

تعبير عن أهمية القضية بحيث ان اهمالها يعني التفريط بكل الرسالة وكأنه (صلى الله عليه وآله) لم يفعل شيئاً خلال مدة الدعوة التي تجاوزت عشرين عاماً.

وكان يُشقّ على النبي (صلى الله عليه وآله) تبليغ هذا الأمر لأنه كما يظهر من الآية يتعلق بـ ((حكم نازل، فيه شوب انتفاع للنبي (صلى الله عليه وآله) واختصاصه بمزية حيوية مطلوبة لغيره أيضاً يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه، فكان النبي (صلى الله عليه وآله) يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه وشدَّد فيه، ووعده العصمة من الناس وعدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه))[1].

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ليس المقصود بالناس اليهود وأمثالهم لأنهم قد قضي عليهم قبل ذلك بسنين ولم تبق لهم باقية، ولا يراد بهم المشركون لأن شوكتهم كسرت بفتح مكة ودخلوا في الإسلام طوعاً أو كرهاً، وإنما المراد بهم جماعة من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) كان يتوقع منهم التمرد والعصيان والانشقاق.

ولأن هذا الأمر يعرّضه (صلى الله عليه وآله) للاتهام بأنه يبتغي به مصلحة شخصية أو محاباة[2] وقد بلّغ النبي (صلى الله عليه وآله) أحكاماً فيها ما يفسَّر على أنه مصلحة شخصية له

---

(١) تفسير الميزان – السيد الطباطبائي: ٦/ ٤٨.

(٢) روى الحسكاني في شواهد التنزيل (عن ابن عباس وجابر قالا: أمر الله محمداً (صلى الله عليه وآله) أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يقولوا حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ الخ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) بولايته يوم غدير الخم).

وروى عن زياد بن المنذر عن أبي جعفر محمد بن علي (عليه السلام) إلى أن قال (إن جبرئيل هبط إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: ان الله يأمرك أن تدلَّ أمتك على وليّهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم

كتزوجّه بأكثر من أربعة ولم يكن فيها حزازة ولا تردد لأنها لا تتعارض مع مصالحهم، لكن هذا الأمر المقصود بالآية من نوع خاص، لأنه يمسّ مصلحة مهمة لهم ويهدم طموحاً مُلحّاً ينتظرون تحقيقه وهو خطر عظيم قد يؤدي إلى إنهيار الكيان الإسلامي فأحبَّ النبي (صلى الله عليه وآله) تأجيل تبليغه إلى وقت الضرورة لأنه يتعلق بما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله).

وهذا التحليل العقلائي المستفاد من ظاهر الآية الكريمة وتسلسل فقراتها ينسجم مع ما ورد في مصادر العامة والخاصة من نزولها في التبليغ بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) الأمر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد نزلت فيه منذ بداية الدعوة الإسلامية آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) فجمع النبي (صلى الله عليه وآله) بني هاشم وأنذرهم ثم أخبرهم بأن علياً وزيره وخليفته. وتوالت الاخبارات حتى آية الولاية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٥) لكنها لم تصل إلى درجة التبليغ القاطع الحاسم وإقامة احتفال التنصيب الرسمي كما يقال، خشية أن يتهموه (صلى الله عليه وآله) في ابن عمه. ولما علم الله تعالى أن أجله (صلى الله عليه وآله) قريب أمر بإنجاز الأمر فوراً وقد أشار (صلى الله عليه وآله) إلى ذلك فأنه قال قبل تبليغ الأمر (أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي...).

وزكاتهم وصيامهم وحجهم ليلزمهم الحجة من جميع ذلك، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا ربِّ ان قومي قريبوا عهد بالجاهلية وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل الا وقد وتره وليّهم، وإني أخاف - أي من تكذيبهم - فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾. (شواهد التنزيل: ١٩١/١-١٩٢ وراجع تفسير الآية في أسباب النزول للواحدي ونزول القرآن لأبي نعيم.

وهذه القضية المهمة التي جعل تبليغها يعادل تبليغ الرسالة كلها هي تعيين القيادة المعصومة التي تخلف النبي (صلى الله عليه وآله) وتواصل حمل رسالة الإسلام وصيانتها ونشرها لتستمر في أداء دورها، أي نقل ارتباط الرسالة من الحامل الشخصي وهو النبي (صلى الله عليه وآله) إلى الحامل النوعي لها الذي يتصف بصفات الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلى رأسها العصمة والعلم وهو أمير المؤمنين ومن بعده الأئمة الطاهرون من بنيه (صلوات الله عليهم أجمعين) فان دوام الرسالة وحفظها يتحقق بوجود المؤهّل لحملها والا تموت الرسالة بموت حاملها كما حصل في شرائع الأنبياء السابقين حيث بقيت عرضة للتلاعب والتزوير وقد شرحنا ذلك في بحث مستقل[١].

وان مصدر قلقه (صلى الله عليه وآله) علمه بأن قوماً من أصحابه كانوا يتطلّعون للسلطة من بعده وينتظرون موته (صلى الله عليه وآله) ليمسكوا بزمامها مدعومين بقطاع واسع ممن اسلموا كرهاً وانصياعاً للواقع أو طمعاً في أن يكون لهم شيء في دولة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) خصوصاً من قريش، وهذا ما ورد على لسان عمر بن الخطاب في أكثر من محاورة مع ابن عباس وفي أحداها قال يا بن عباس! أتدري ما منع قومكم منه بعد محمد؟ فكرهتُ أن أجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها ووفقت))[٢] وهذا يعني ان قريشاً كانت تجتمع

(١) سيأتي بعنوان (كيف خطّط رسول الله (صلى الله عليه وآله) للخلافة من بعده)

(٢) تاريخ الطبري: ١/ ٣٠ ط. مصر الأولى في ذكر سيرة عمر من حوادث سنة ٢٣ هـ

وتناقش كيفية الاستيلاء على السلطة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفق مصالحها هي وليس مصلحة الإسلام، وقد عزمت على انتزاع الأمر من علي (عليه السلام).

وهذا ما كشف عنه أمير المؤمنين (عليه السلام) واشتكى منه لاحقاً بقوله (اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفئوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقا كنت أولى به من غيري)[١].

وهؤلاء هم من كان يخشى النبي (صلى الله عليه وآله) من فتنتهم وتقليبهم الأمور لو نصّب علياً خليفة من بعده، وكثير منهم ينظر إلى النبي (صلى الله عليه وآله) على أنه ملك وزعيم نجح في بسط سلطانه كأبي سفيان في كلمته التي قالها عندما بويع لابن عمه عثمان بالخلافة (تلاقفوها يا بني أمية تلاقف الكرة بيد الصبيان فوالذي يحلف به أبو سفيان فلا جنة ولا نار ولا معاد)[٢] وأكّد بها قوله السابق حينما رأس جيش رسول الله (صلى الله عليه وآله) على مشارف مكة وقد اضاؤوا النيران فقال للعباس بن عبدالمطلب (لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً)[٣] فقال له العباس (ويلك انها النبوة).

فلم يكن خوف رسول الله (صلى الله عليه وآله) على نفسه فقد صدع بالدعوة وحيداً ولم يثنه بطش قريش وقسوتها ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب:٣٩).

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٦ الخطبة ٢١٧.

(٢) الجوهري: السقيفة ٣٩ – ٤٠، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/ ٤٤.

(٣) بحار الأنوار: ٢١/ ١٠٤، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٤٧١.

فأمن الله تعالى نبيه من هذه المخاوف، وصدق وعده حينما انهال الجميع فوراً على بيعه أمير المؤمنين (عليه السلام) إماماً وخليفة من بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكان اول المبايعين أبا بكر وعمر وهما يقولان (هنيئاً لك يا ابن ابي طالب، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة)[1] وفي رواية أخرى قال ابن الخطاب (بخٍ بخٍ لك يا ابن ابي طالب)[2] وظلّ يكرر الاعتراف بولاية علي (عليه السلام) في كل مناسبة[3] كما سيأتي ان شاء الله تعالى.

ولما تم الأمر استبشر النبي (صلى الله عليه وآله) وملأه السرور واطمأن على خلود الإسلام والقرآن ومستقبل الرسالة لأن الله تعالى قيّض لها من يحفظها ويصونها ونزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) لأن فئات كثيرة كانت تعوِّل على وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) للتخلص من الإسلام بعد أن فشلت كل خططهم ومؤامراتهم للقضاء عليه، أما اليوم فقد دخل اليأس قلوبهم لأن النبي (صلى الله عليه وآله) وإن ارتحل بشخصه إلى الرفيق الأعلى فأنه سيبقى محفوظاً بأخيه وصنوه علي بن أبي طالب (صلوات الله وسلامه عليه).

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٢٨١ وسنن ابن ماجة باب فضائل علي، والرياض النضرة: ٢/ ١٦٩.

(٢) شواهد التنزيل: ١/ ١٥٧- ١٥٨.

(٣) أورد جملة منها في (الفرقان في تفسير القرآن: ٩/ ٤٣) منها ما أخرجه الطبراني وفي الفتوحات الإسلامية: ٣/ ٣٠٧: حكم علي مرة على اعرابي بحكم فلم يرضَ بحكمه فتلبّبه عمر بن الخطاب وقال له: ويلك إنه مولاك ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

ان هذا الذي أوردنا من التفسير الظاهر من الآية الكريمة ينطبق تماماً على القضية التي نزلت فيها ونقلها جمع كبير من الصحابة أحصي منهم (١١٠) ذكرت أسماؤهم في المصادر[١] وألف جمع غفير من علماء الفريقين كتباً خاصة فيه فقد صنف مسعود بن ناصر السجستاني[٢] كتاب (الدراية في حديث الولاية) من سبعة عشر جزءاً روى فيه الحديث عن ١٢٠ صحابياً[٣] وألّف فيه ابن عقدة[٤] الذي وثقه ارباب المذاهب وسمى كتابه ((الولاية ومن روى غدير خم)) ورواه من ١٠٥ طرق وألف الطبري[٥] صاحب التفسير والتاريخ ((كتاب الولاية)) وروى الحديث من خمس وسبعين طريقاً[٦].

---

(١) راجعها في بحار الأنوار:٣٧/ ١٨١-١٨٢ وذكرهم باسمائهم في (الفرقان في تفسير القرآن: ٩/ ٢٥) وأضاف لهم التابعين وتابعيهم وفي سائر القرون وقد أوفى المرحوم العلامة الأميني البحث والاستقصاء وسجَّل كل هذه الاسماء و الوثائق في المجلد الأول من كتاب الغدير: ٢١٤-٢٢٣ وبذل صاحب تفسير الفرقان جهداً وافياً في استقصاد مصادر التفسير والحديث والتاريخ (الفرقان في تفسير القرآن: ٩/ ٢٣)

(٢) محدّث، قال عنه بعض مؤرخيه ان فوائده من الأخبار لا تحصى توفي سنة ٤٧٧ هـ (الاعلام للزركلي: ٨/ ١١٧)

(٣) بحار الأنوار: ٣٧/ ١٢٦.

(٤) أحمد بن محمد، حافظ مكثر فقد كان يقول: احفظ مئة ألف حديث بأسانيدها توفي سنة ٣٣٢ هـ (الاعلام: ١/ ١٩٨)

(٥) محمد بن جرير: مؤرخ مفسر إمام مجتهد قلده بعض الناس عرض عليه القضاء وديوان المظالم فأبى، صاحب التاريخ المعروف ووصف بأنه أوثق المؤرخين ، له تفسير مطبوع بثلاثين جزءاً وكتب كثيرة أخرى توفي سنة ٣١٠ هـ (الاعلام: ٦/ ٢٩٤)

(٦) بحار الأنوار: ٣٧/ ١٨٣.

وننقل النص من مصادر العامة فقالوا ((لّما صدر رسول الله من حجّة الوداع نزلت عليه في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة آية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ فنزل غدير خمّ من الجحفة وكان يتشعب منها طريق المدينة ومصر والشام ووقف هناك حتّى لحقه من بعده وردّ من كان تقدّم ونهى أصحابه عن سمرات متفرقات بالبطحاء أن ينزلوا تحتهنّ، ثم بعث إليهن فقّمَّ ما تحتهن من الشوك ونادى بالصلاة جامعة وعمد إليهنّ وظلّل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فصلى الظهر بهجير ثمّ قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ وقال ما شاء الله أن يقول، ثمّ قال: ((إنّي أوشك أن أُدعي فأجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت فجزاك الله خيراً، قال: ((أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنّة حقّ وأنّ النار حقّ؟)) قالوا: بلى نشهد ذلك. قال: ((اللهمّ أشهد)) ثم قال: ((ألا تسمعون؟)) قالوا: نعم. قال: ((يا أيّها الناس إنّي فرط وأنتم واردون عليّ الحوض وإن عرضه ما بين بصرى إلى صنعاء فيه عدد النجوم قدحان من فضّة، وإنّي سائلكم عن الثقلين، فأنظروا كيف تخلفونني فيهما)). فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: ((كتاب الله، طرف بيد الله وطرف بأيدكم، فأستمسكوا به، لا تضلّوا ولا تبدّلوا؛ وعترتي أهل بيتي، وقد نبّأني اللّطيف الخبير انّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، سألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فهم أعلم منكم)) ثم قال: ((ألستم تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟)) قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ((ألستم تعلمون ـ أو تشهدون ـ أنّي أولى بكلّ مؤمن من نفسه؟)) قالوا: بلى يا

رسول الله. ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب بضبعيه فرفعها حتّى نظر الناس إلى بياض إبطيهما، ثم قال ((أيها الناس! الله مولاي وأنا مولاكم؛ فمن كنت مولاه، فهذا عليّ مولاه. اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأنصر من نصره، وأخذل من خذله، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه)). ثم قال ((اللهم اشهد)) ثم لم يتفرقا - رسول الله وعليّ - حتّى نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣). فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ((الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتي والولاية لعلي))[١].

وروى جمع من علماء العامة عن ابن مسعود أنه قال (كنا نقرأ على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ - أن علياً مولى المؤمنين - وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾)[٢].

ومما اشكلوا به ان المولى لها عدة معانٍ في اللغة كالناصر والحبيب وغيرهما فلا تتعين بولي الأمر، وهو احتمال مدفوع بصريح الحديث النبوي الشريف لأنه (صلى الله عليه وآله) بيَّن مراده من الولي، وتكذبه أيضاً ظروف الحادثة فهل أوقف النبي

---

(١) نقلناه بواسطة معالم المدرستين للمرحوم السيد مرتضى العسكري: ١/ ٤٨٣-٤٨٦ عن مجمع الزوائد للهيثمي: ٩/ ١٠٥ و ١٦٣-١٦٥ وشواهد التنزيل للحسكاني: ١/ ١٩٢-١٩٣ ومسند أحمد: ٢٨١/٤ وسنن ابن ماجة ١/ ٤٣/ ح١١٦ وغيرها.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن: ٩/ ١٩ عن الحافظ ابن مردوية: ١٠٨، الدر المنثور: ٣/ ٢٩٨، الشوكاني في فتح القدير، الاربلي في كشف الغمة.

(صلى الله عليه وآله) تلك الجموع الحاشدة ليقول اني أحبّ علياً وأنه نصرني ونحو ذلك من الأمور الواضحة عند كل أحد.

ان مما يؤسف له تحكم الاهواء والعصبيات في اذهان المفسرين الذين لم يستقوا علومهم من أهل بيت النبوة فشرّقوا وغرّبوا واوردوا وجوهاً في تفسير الآية وسبب نزولها مما لا يناسب أجواء نزول الآية وظروف الحدث، ولا يليق صدوره منهم وفيهم ذوو عقول كبيرة والمهم عندهم صرفها عن الحقيقة التي نزلت الآية لبيانها ورواها جمع كبير من الصحابة والتابعين مع انهم يكتفون في تفسير الآية برواية واحدة عن هذا الصحابي أو ذاك ولا نريد الاطالة في عرض هذه الوجوه ومناقشتها.

أقول: واذا كانوا إلى اليوم يرفضون سماع هذه الحقيقة والايمان بها مع تواتر روايتها والقطع بصدورها فكيف كانوا في لحظة الحدث مما يعطينا فكرة عن مخاوف رسول الله (صلى الله عليه وآله) من إبلاغ هذا الأمر.

وظل أمير المؤمنين وأهل بيته (عليهم السلام) وشيعته يؤكدون هذا الحق الثابت حتى لا يضيّعه المحرّفون، ومن أقواله (عليه السلام) في ذلك (فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه حتى يوم الناس هذا)[١].

وقال في الخطبة الشقشقية (أما والله لقد تقمصها فلان (ابن أبي قحافة) وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى)[٢].

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩ الخطبة ٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٧ الخطبة ٤.

وقال (عليه السلام) (لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه)[١].

وقال (عليه السلام) (فوالله إني لأولى الناس بالناس، لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحدا. إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم)[٢].

وقال (عليه السلام) (فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده (صلى الله عليه وآله) عن أهل بيته ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (صلى الله عليه وآله)! فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدما، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم، التي إنما هي متاع أيام قلائل)[٣].

واعتبر الأئمة المعصومون (عليهم السلام) يوم الغدير أعظم أعياد الإسلام لعظمة النعمة التي منّ الله تعالى بها فأكمل بها الدين ورضي الإسلام لنا ديناً، روى الكليني بسنده عن سالم قال (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟ قال: نعم أعظمها حرمة. قلت: وأي عيد هو جعلت

(١) نهج البلاغة: ١٠٢ الخطبة ٧٤.

(٢) نهج البلاغة: ١٩٤ الخطبة ١٣٦.

(٣) نهج البلاغة: ٤٥١ الخطبة ٦٢.

فداك ؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه)[1] ومثلها عدة روايات في نفس الباب.

وفي آمالي الشيخ الصدوق بإسناده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يوم غدير خم أفضل أعياد أمتي وهو اليوم الذي أمرني الله تعالى ذكره فيه بنصب أخي علي بن أبي طالب (عليه السلام) علماً لأمتي يهتدون به من بعدي وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين وأتمّ على أمتي فيه النعمة ورضي لهم الإسلام دينا)[2].

وروى الشيخ في التهذيب عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (وهو عيد الله الأكبر)[3].

لذا يعبّر الإمام الباقر (عليه السلام) بأسف وحسرة عن تضييع الأمة لهذا الأمر الإلهي العظيم الذي يعدل الرسالة كلها، بقوله (عليه السلام): (تعطى حقوق الناس بشهادة شاهدين وما اعطي أمير المؤمنين (عليه السلام) حقه بشهادة عشرة الآف نفس يعني الغدير) ومثله عن الإمام الصادق (عليه السلام).

وقد جعل الأئمة (عليهم السلام) برنامجاً عبادياً مكثفاً في هذا اليوم شكراً لله تعالى على هذه النعمة وجعل عليها ثواباً عظيماً كالصوم والصلاة والدعاء والصدقة وتبادل التهاني مع المؤمنين، وزيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) ولو من بعد لمن يتعذر

---

(١) وسائل الشيعة: ١٠/ ٤٤٠/ أبواب الصوم المندوب، باب١٤/ ح١.

(٢) تفسير نور الثقلين: ١/ ٣٦٨ ح ٢٩ من تفسير سورة المائدة

(٣) وسائل الشيعة: ٨/ ٨٩ أبواب الصلوات المندوبة، باب٣/ ح١.

عليه زيارة مرقد الشريف عن قرب، روى إبن ابي نصر قال (كنّا عند الرضا (عليه السلام) والمجلس غاص بأهله فتذكروا يوم الغدير فأنكره بعض الناس[1] فقال الرضا (عليه السلام): حدثني ابي عن أبيه (عليه السلام) قال: ان يوم الغدير في السماء أشهر منه في الأرض) ثم قال: (يا ابن ابي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين (عليه السلام)) وبعد ان ذكر ثواب ذلك قال: (والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)[2].

ويمكن أن نفهم من الآية الكريمة أن على العاملين الرساليين ان لا يترددوا ولا يتلكأوا في نصرة مشروع الإسلام والتحرّك به مهما حاول الناس - بكل ما يحويه اللفظ من استصغار في هذا الموضع - وضع العراقيل وبث التهم والشبهات لأن الله تعالى يعصمه من هذه المكائد والخبث والشيطنة، وإنه تعالى ينصر من ينصره ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ (الحج:٤٠) وقد ورد هذا المعنى في خطبه لأمير المؤمنين (عليه السلام) قال فيها (فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، واعلموا ان الأمر بالمعروف والنهي عن النكر لن يقرِّبا أجلاً ولن يقطعا رزقاً)[3].

---

(١) الظاهر ان ذلك كان أيام ولايته العهد زمن المأمون فكان مجلسه الرسمي عاماً لكل الناس وليس للموالين فقط.

(٢) وسائل الشيعة: ١٤/ ٣٨٩ أبواب المزار، باب٢٨/ ح١.

(٣) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٢٠ ، أبواب الأمر والنهي، باب١/ ح٧.

ملحق: كيف خطط رسول الله (صلى الله عليه وآله) للخلافة من بعده[١]

الإمامة ضرورة عقلائية:

إن الإمامة وولاية أمر الناس ضرورة اجتماعية لا يختلف فيها اثنان، وقد أطبق عليها جميع العقلاء، ولا يمكن لحياة المجتمع المتحضر ونظام معاشه أن يستقيم بدون إمام ورئيس يدير مع جهازه شؤون الأمة ويدبر أمورها. فوجود النظام الحاكم في المجتمع بمنزلة العقل في جسم الإنسان الذي يوجّه بوصلة الحياة، وبدونه تحصل الفوضى والتشتت والصراعات وتضييع مصالح العباد والبلاد.

ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذلك: (لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمن به السبُل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ أو يُستراح من فاجر)[٢].

---

(١) محاضرتان ألقاهما سماحة الشيخ محمد اليعقوبي على طلبة الحوزة العلمية في مسجد الرأس الشريف المجاور لمرقد أمير المؤمنين (عليه السلام)، في النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير يومي (١٦، ١٧ ذي الحجة ١٤٢١هـ-١٢، ١٣/آذار/٢٠٠١) وقد أضاف إليهما بعض الزيادات الضرورية. وقام أحد الفضلاء لاحقاً بتخريج النصوص من مصادرها.

(٢) نهج البلاغة: ١/٨٧ الخطبة ٤٠.

ضرورة الإمامة في الشرع:

والحكم في الشرع ضروري كذلك فقد أجمع علماء الإسلام على ضرورة وجود إمام، وإذا كان بينهم خلاف ففي التفاصيل ككيفية تعيين الإمام ومؤهلاته وصلاحياته لا في أصل احتياج الأمة، فأبناء العامة يقولون بالشورى[١]، أو أن الأمر لمن غلب حتى لو قهر الأمة بالسيف[٢] وتقمّص إمامتها قهراً، ونحن - الإمامية- نقول أنها بالنص[٣]، وأنها حق جعله الله تبارك وتعالى لمن اجتمعت فيه شروطها، سواء سمحت له الظروف بالقيام فعلاً بالأمر أو صودرت حريته ومُنِع من ممارسة دوره كاملاً، كما في الحديث الشريف: (الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)[٤] أي قاما بالأمر أو قعدا عنه لأي سبب من الأسباب.

وقد اهتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهذا الأمر بدقة، فكان (صلى الله عليه وآله) لا يُخرج سرية إلا عليها أمير مهما قلّ أفرادها، بل في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الإمام

---

(١) البخاري: باب رجم الحبلى، ٤/ ١٢٠ عن معالم المدرستين، المراجعات المراجعة ٨٠.

(٢) الأحكام السلطانية ص٧-١١ لقاضي القضاة أبو يعلي الفراء الحنبلي - عن معالم المدرستين - أقوال مدرسة الخلفاء ص٥٥٨.

(٣) أحصى الصافي الكلبايكاني في كتابه (منتخب الأثر) أكثر من خمسين رواية في هذا المجال، وقال بعد ذلك النصوص الواردة في ساداتنا الأئمة الاثنا عشر بلغت في الكثرة حداً لا يسعه مثل هذا الكتاب وكتب أصحابنا في الإمامة وغيرها مشحون بها واستقصاؤها صعب جداً (منتخب الأثر ص١٤٥ والرواية الأولى منتخب الأثر ص٩٧ باب ٨ فيما يدل على الأئمة الاثنا عشر بأسمائهم (نقلا عن مدخل إلى الإمامة).

(٤) البحار: ١٦/ باب ١١/ ٣٠٧.

الجائر خير من الفتنة)[١] و: إذا خرج اثنان للسفر فليؤمرا أحدهما[٢]، وكان (صلى الله عليه وآله) إذا خرج لغزوة لا يترك المدينة بدون خليفة له[٣]، بل روي في حديث: (والٍ ظلومٌ غشوم خيرٌ من فتنة تدوم)[٤]؛ لأنه به تحفظ الثغور وتقوم مصالح العباد، لذا تعامل الأئمة (عليهم السلام) بإيجابية مع السلطات الحاكمة في ما فيه مصالح العباد وحفظ النظام الاجتماعي ورقي الدولة الإسلامية وصيانة كرامتها، إلى درجة أنهم جوزّوا في بعض الظروف دفع الزكاة والخراج إلى السلطة وجعلوها مبرئة للذمة كأنها واصلة إليهم[٥].

المصالح المهمة من تعيين الخليفة:

في ضوء هذه الضرورة المجمع عليها عقلاً وشرعاً كان من مسؤوليات حامل الرسالة –أي رسالة– ووظائفه بل أهمها على الإطلاق تعيين الخليفة والإمام البديل لعدة مصالح مهمة:

١- **ديمومة الرسالة واستمراريتها في أداء دورها**، فإن أية رسالة مهما كانت تمتلك من نقاط قوة – كرسالة الإسلام – تموت بموت صاحبها، فإنه من

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني: ٢/ ١٠٣.

(٢) المحجة: ٤/ آداب السفر عن أبو داود: ٢/ ٣٤، عن أبي هريرة عن النبي ص قوله: (إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم).

(٣) معالم المدرستين: ١/ ذكر من استخلف الرسول (صلى الله عليه وآله) على المدينة في غزواته.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ٣/ ٢٣٦٧، والغرر والدرر: ح١٠١٠٩.

(٥) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين، باب ٢٠.

المقطوع به ارتباط الرسالات والدعوات بحامليها القيّمين عليها المدافعين عنها المستوعبين لأسرارها، لذلك فإنها تنتهي بنهاية صاحبها إلا أن يواصل الطريق من هو جدير بحملها، وأنت ترى الرسالات السماوية - وهي أكمل الدعوات - حُرِّفت وشُوِّهت بعد فترة يسيرة من غياب أصحابها[1].

٢- **قطع الطريق أمام غير المؤهلين لهذا المنصب الإلهي**، فإن الإمرة والزعامة خصوصاً الزعامة الدينية بما لها من قدسية وهيبة وجاه من أهم ما تنزع إليه النفس الأمّارة بالسوء، ففي الحديث: (آخر ما ينزع من قلوب الصديقين حب الجاه)[2] إذن سيكون المتربصون بها كثيرين والحالمون بها والساعون إلى تحصيلها أكثر. وقد اعترفوا أنه ما عانت الأمة من شيء كما عانت من مسألة الإمامة والخلافة وأن الويلات التي أصابتها والدماء التي سفكت ترجع في الأصل إلى هذا الأمر، وهذا واضح تأريخياً.

٣- **صيانة الأمة من التشتت وحمايتها من التمزق**، فإن من شأن تعدد المتصدين لهذا المنصب أن تتعدد الأحزاب والفرق الموالية لهم، وكلٌّ يجرُّ النار إلى قرصه، فيتمزق أمر الأمة وتصبح طرائق قدداً، وها هي الأجيال بعد الأجيال تدفع ثمن التيه والضياع وآل أمرها إلى الانحلال، لذا قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣) ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ

(١) كمثال على ذلك المسيحية بمجرد أن رفع عيسى (عليه السلام) أصبح الإنجيل الذي هو حاوي على كل ما يتعلق بالرسالة عدة أناجيل مزورة وموضوعة كإنجيل متي ويوحنا ولوقا ومرقس فلم يبق من الدين المسيحي إلا الاسم.

(٢) المحجة البيضاء ج٦ / فصل حب الجاه ص١٠٧.

رِيحُكُمْ﴾(الأنفال:﴿٤٦﴾) وحبل الله الممدود إلى الخلق هما الثقلان كتاب الله وأهل بيت نبيه (صلوات الله عليهم أجمعين) كما دلت عليه النصوص الشريفة[١].

وقد أشارت الزهراء (عليها السلام) إلى هذه الفكرة المهمة في خطبتها فقالت: (وجعل إمامتنا نظاماً للملة)[٢] أي بها تنتظم أمورهم وتستقر.

٤- إن حامل الرسالة لا يستطيع أن يستمر بمشروعه حتى النهاية ويقدم كل ما عنده قبل أن يطمئن إلى وجود البديل؛ لأنه قبل ذلك يخشى على مستقبل الرسالة، فإذا أحرز اجتماع الشروط في الشخص البديل استطاع أن يتقدم بلا تردد أو خوف على مستقبل الرسالة، هذا الخوف الذي أشار إليه نبي الله موسى (عليه السلام)، لذا كان أول دعاء له: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي۞ هَارُونَ أَخِي۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه: ﴿٢٩﴾-﴿٣٢﴾) وفي كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام): (لَمْ يُوجِسْ مُوسَى (عليه السلام) خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلالِ)[٣].

شرفية موقع الإمامة في الفكر الإسلامي:

هذه أمور يدركها كل عاقل، ويزداد الأمر وضوحاً كلما ازدادت أهمية الرسالة كدين الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين وخالداً إلى يوم القيامة، فهو - أي الإسلام - بهذه السعة والشمول طولاً - على مدى الزمان- وعرضاً - لجميع

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن).

(٢) البحار: ٦/ باب٢٣/ ٣١٥.

(٣) نهج البلاغة، خطبة: ٤/ ٣٩.

البشر-، وكلما تعاظم منصب الشخص الراحل والغائب عن الساحة ازدادت المسؤولية والأخطار حول المنصب.

وأشرف موقع هو إمامة المسلمين وولاية أمورهم وخلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي قدّر لها أن تشمل شرق الأرض وغربها، كما بشر بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) عندما كان يحفر مع المسلمين في الخندق وضرب على صخرتين فأضاءتا له[1] ولهم، وأكدها القرآن ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾(الفتح:٢٠) ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾(الصف:١٣)، فكيف لا تتناوشه المطامع وتتجاذبه الأهواء.

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى):

أفمثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) يجهل هذه الأمور الواضحة، وهو المتصل بسبب إلى الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَايَنطِقُ عَنِ الْهَوَى۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤)، وهو القائل: (من مات ولم يوص مات ميتة جاهلية)[2] فهل يكون هو (صلى الله عليه وآله) أول من يخرج عن ربقة الإسلام ويموت على الجاهلية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (الكهف:٥)، أم يقال أن هذا الحديث وارد في الوصية بالمال ونحوه للورثة وغيرهم؟ فهل هذه الأمور أهم من الوصية بالأمة وحفظ كيانها من الضياع؟!.

---

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر- هاشم معروف الحسني: ١/ ٢٩٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب- بن شهر آشوب: ١/ ٢١٧.

أم يقال أنه (صلى الله عليه وآله) فوجئ بأجله قبل أن يفكر بمستقبل الأمة وقبل أن يستعد للتخطيط للبديل مهما كان شكله وصيغته، وهو الذي نعى نفسه مراراً وصرح بقرب وفاته في حجة الوداع، وحينما قال: (إن جبرائيل كان يعارضني بالقرآن في السنة مرة، وعارضني في هذه السنة مرتين، وما ذلك إلا لدنو أجلي)[1].

أم يقال أنه (صلى الله عليه وآله) لم يكن حريصاً على الأمة ولا مهتماً بأمرها، فلتواجه قدرها بنفسها ولو آل أمرها إلى الفناء، ولتذهب أتعابه سدى ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾(النحل:٩٢)، وهذا لا يصدر من أبسط الناس؛ فالراعي لا يترك غنمه إذا خرج لحاجة أو سفر حتى يعين لها راعياً، ولم يفعلها الخلفاء من بعده، فالأول نص على الثاني، وهو يقول: إني أخشى أن ألقى الله وقد تركت أمة محمد (صلى الله عليه وآله) دون أن أولي عليها أحداً[2]، وجعل الثاني الأمر شورى بين ستة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)[3]، وقد أرسلت إليه أم المؤمنين عائشة بعدما طُعِن: أن أوص من يخلفك، ولا تترك أمة محمد بعدك هملاً وبدون راعٍ.

خطر الاعتراض من الداخل الإسلامي:

فكيف برسول الله (صلى الله عليه وآله) أكمل العقلاء وسيد الحكماء، وهو يرى بعينه الأخطار المحدقة بالأمة من الداخل والخارج، ففي الداخل كان المنافقون والمرجفون في المدينة – على تعبير القرآن – والقائلون: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا

(١) صحيح البخاري باب عرض جبرائيل القرآن على النبي.

(٢) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد: ١/ ١٦٤– ١٦٥ في شرحه للخطبة الشقشقية.

(٣) راجع معالم المدرستين: ١/ ٥٤٤.

الأَذَلَّ﴾ (المنافقون:٨) وقد ازدادت شوكتهم بعد الفتح حيث استسلم الكثير ممن يتربص بالإسلام وبنبيه السوء رضوخاً للأمر الواقع، ولم يسلموا ولم يقتنعوا بالإسلام و﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات:١٤).

وكانوا يعارضون تصرفات رسول الله (صلى الله عليه وآله) علناً وينتقدونه ويشككون في صحة أفعاله، والشواهد على ذلك كثيرة كما في صلح الحديبية[١] حينما منعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) من التوقيع على وثيقة الصلح، وعندما عارضوا الإحلال من الإحرام في متعة الحج[٢]، وحينما منعوه من كتابة كتاب لا يضلون بعده أبداً في رزية يوم الخميس[٣]، وحينما كانوا يصلّون نوافل رمضان جماعة في المسجد وقد

---

(١) راجع نظريات الخليفتين: ١.

(٢) عن معالم المدرستين: ٢/ في رواية الصحابي البراء بن عازب بسنن بن ماجة ومسند أحمد ومجمع الزوائد قال: خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأصحابه فأحرمنا بالحج فلما قدمنا مكة، قال: (اجعلوا حجّكم عمرة) فقال الناس: يا رسول الله قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة؟ قال: (انظروا ما أمركم به فافعلوه) فردوا عليه القول، فغضب فانطلق ثم دخل على عائشة غضبان فرأت الغضب في وجهه، فقالت: من أغضبك أغضبه الله ، قال: (ما لي لا أغضب وأنا آمر أمراً فلا أُتبع).

(٣) رزية يوم الخميس: ما أخرجه البخاري بسنده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، قال: لما حضر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (صلى الله عليه وآله) هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) تحوموا عني، فكان بن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبين أن

نهاهم (صلى الله عليه وآله) عن ذلك مراراً[١]، وحينما تخلفوا عن جيش أسامة رغم لعنه (صلى الله عليه وآله) للمتخلفين عنه[٢].

مضافاً إلى أن الانتشار السريع للإسلام وقصر فترته بالنسبة لعظمة الوظيفة التي جاء من أجلها، وهي نقل أمة كاملة من حضيض الجاهلية وظلماتها إلى نور الإسلام وسعادته أدّى إلى وجود قاعدة عريضة في المجتمع لم تصل إلى درجة كافية من فهم الرسالة واستيعابها والتفاعل مع تفاصيلها، وهم معرضون للانهيار والهزيمة مع أول امتحان يواجههم في حالة غيابه (صلى الله عليه وآله)، وقد أخبره بذلك القرآن الكريم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران:١٤٤) وهو ما وقع فعلاً حين ارتدت الجزيرة ولم يبق على الإسلام إلا تلك الثلة القليلة في المدينة المنورة التي عركتها التجارب وصلّبت عودها الامتحانات المتتالية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)[٣].

يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. (وقد تم التصرف في الحديث إذ نقلوا المعنى فقط لان اللفظ الثابت هو أن النبي يهجر ولكنهم حرفوه تهذيباً للعبارة ودفاعاً عن عمر. (المراجعات: المراجعة ٨٦).

(١) الوسائل: كتاب الصلاة باب عدم جواز الجماعة في صلاة النوافل في شهر رمضان، الحديث الأول.

(٢) راجع في استقصاء هذه الموارد كتاب (النص والاجتهاد) للسيد شرف الدين.

(٣) وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة المائدة آية ٥٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

نموذج من الانحراف الإسلامي:

وقد أشارت أم المؤمنين عائشة إلى هذا الانحراف الذي حصل في مسيرة المسلمين عندما كانت تحرّض على الثورة ضد الخليفة الثالث عثمان، يروي الطبري[1]: كانت السيدة عائشة من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته، وقالوا إنها كانت أول من سمّى عثمان نعثلاً (اسم أحد اليهود بالمدينة) وكانت تقول: (اقتلوا نعثلا ! قتل الله نعثلاً) هذا ولم يمرّ على وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أكثر من عقدين من الزمان.

حملات اليهود بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله):

وكان في الداخل اليهود الذين لا ينسون لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وللإسلام القضاء عليهم وتهجيرهم من ديارهم وقتل رجالهم وسبي نساءهم وزوال دولتهم ونفوذهم في المدينة، لذلك كانت هجمة التشكيكات التي بثّوها في الأمة بعد وفاته (صلى الله عليه وآله)، وأسئلتهم المتنوعة الكثيرة التي كانت تعجز خليفة المسلمين وأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فأصيب المسلمون بالإحباط والضعف والهزيمة أمامهم، وكانت حملة منظمة وليست اعتباطية ظهرت فجأة بعد غياب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإقصاء الخليفة الحق الذي كان لهم بالمرصاد رغم إبعاده عن القيادة الدنيوية، لكنه كان يرى مصلحة الدين وإعلاء كلمة التوحيد فوق كل شيء، حتى اشتهرت كلمة الخليفة الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو

(١) تأريخ الطبري ٣/ ٤٧٧ وقد نقلناه عن كتاب (بنور فاطمة اهتديت)/١٩٠.

الحسن)[١] وما علمنا أنه احتاج إلى أحد سواه[٢].

العدو الخارجي والكيد بالإسلام:

ومن الخارج كان هناك المتربصون بالإسلام شراً الذين أعيتهم الحيل في القضاء عليه، حيث بدأوا بتعذيب أصحابه (صلى الله عليه وآله) وقتلهم، ثم حاصروه ومن معه في شعب أبي طالب اقتصادياً واجتماعياً، ثم تآمروا على قتله فهاجر إلى المدينة[٣] وبات علي في فراشه[٤] ثم جهزوا الجيوش لقتاله واستئصال أمره فلم يفلحوا في القضاء عليه (صلى الله عليه وآله)[٥]، ولم يبق أمامهم إلا نهاية حياته لتموت دعوته بموته (صلى الله عليه وآله)، بل حاول بعضهم فعلاً اغتياله أكثر من مرة كمحاولة رؤساء بني عامر، والمحاولة التي جرت أثناء مسيره إلى تبوك حيث حاول بعض المتآمرين تنفير ناقته (صلى الله عليه وآله) ليلقوه من السفح وتتقطع أوصاله، وقد أعلم (صلى الله عليه وآله) الصحابيَّ حذيفة بن اليمان بأسمائهم حتى سمي صاحب سر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكان الخليفة الثاني لا يصلي على أحد حتى يصلي حذيفة ليعلم أنه ليس من

---

(١) أخرجه سبط بن الجوزي، أسد الغابة ٤/ ٢٢، الإصابة القسم ١/ ٢٧٠، تهذيب التهذيب ٧/ ٣٢٧، عن نظريات الخليفتين لنجاح الطائي.

(٢) جعل الخليل بن أحمد الفراهيدي ذلك دليلاً على إمامته حينما سئل ما الدليل على إمامة أمير المؤمنين وخلافته لرسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: احتياج الكل إليه وعدم احتياجه للكل.

(٣) حياة محمد (صلى الله عليه وآله) نهاية الفصل السادس والفصل السابع لمحمد حسين هيكل.

(٤) حياة محمد (صلى الله عليه وآله) الفصل العاشر لمحمد حسين هيكل.

(٥) حياة محمد (صلى الله عليه وآله) الفصل الثالث عشر لمحمد حسين هيكل.

المنافقين[١].

وفي الخارج كانت أيضاً الدولتان الرومية والفارسية اللتان بدأتا تفكران جدياً في أمره (صلى الله عليه وآله) بعد أن غطى نوره الجزيرة كلها من اليمن جنوباً إلى تخوم الشام والعراق شمالاً، بل إنه (صلى الله عليه وآله) بدأ التحرش بالدولة الرومية في معركة مؤتة[٢] وغزوة تبوك، وأرسل الرسائل إليهم يدعوهم إلى الإسلام بلهجة الواثق بالنصر والمستعلي عليهم (أسلم تسلم).

التحديات الجسيمة أمام النبي (صلى الله عليه وآله):

كل هذه المصاعب والتحديات التي تواجه الأمة بعد وفاته (صلى الله عليه وآله) كانت نصب عينه (صلى الله عليه وآله) وهو صاحب القلب الرحيم الذي نذر حياته لله تبارك وتعالى ولإصلاح الإنسانية وإنقاذها من الظلمات إلى النور، وقد وصفه القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، فكيف يترك أمر الأمة سدى؟! ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس:٣٥) و﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (فاطر:٣) فهذا الاحتمال - أي ترك الأمة سدىً من دون إرشادها إلى من يتولى أمرها- مرفوض قطعاً.

بقي احتمالان آخران تبنّت كل واحدٍ منهما طائفة من المسلمين.

---

(١) راجع (المحلى) لابن حزم الأندلسي، (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد عن (نظريات الخليفتين: محاولة اغتيال النبي).

(٢) معركة مؤتة: كانت في سنة ثمان من الهجرة.

عقيدة العامة في الإمامة:

الأول: - وهو الذي التزم به العامة- إيكال الأمر إلى الأمة نفسها فهي تختار من تشاء، وهو مرفوض أيضاً لعدة وجوه:

١- **قصور الأمة عن تحمل مثل هذه المسؤولية**، وقد عجزت عن أقل من هذا الأمر عندما واجهت التحديات بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، حتى بعد أن نالت تربية إضافية خلال عقود من السنين.

ففي خلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما بدأ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتقاتلون بينهم لم يعرفوا حكم هذه الحالة، عن الشافعي: أخذ المسلمون السيرة في قتال المشركين من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخذوا السيرة في قتال البغاة من علي (عليه السلام)[١].

وبعد ذلك بعقود مرّت الدولة الإسلامية بأزمة مع الدولة الرومية، عندما أرادت أن تسكّ عملة فيها شتم نبي الإسلام وتتداول في بلاد المسلمين، فأنقذ الموقف الإمام الباقر (عليه السلام)[٢]، وهكذا ظلّت الأمة عاجزة عن حل مشكلاتها لولا وجود الأئمة(عليهم السلام)[٣]، حتى اكتملت التربية بعد (٢٦٠) عاماً بوفاة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فدخلت الأمة مرحلة (وسطية) بين الوجود الفعلي للإمام والغيبة

---

(١) كشف الغمة :١/ ١٢٤، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٣٠.

(٢) رواه الدميري في حياة الحيوان عن المحاسن والمساوئ للبيهقي ورواه بهذا المضمون عن شذرات العقود للمقريزي عن سيرة الأئمة الاثني عشر/القسم الثاني/الإمام الخامس محمد الباقر (عليه السلام) لهاشم معروف الحسني.

(٣) الغيبة الصغرى والكبرى للسيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر (قدس سره).

التامة، فكانت الغيبة الصغرى التي استمرت (٧٠) عاماً لتبدأ الغيبة الكبرى بعد أن رسم الأئمة(عليهم السلام) كل المعالم الرئيسية والخطوط العامة لمسيرة الأمة، وقبل هذه المراحل المتتابعة من التربية كانت الأمة عاجزة.

وكان هذا العجز واضحاً في الصدر الأول للإسلام لقرب عهدهم بالجاهلية الهمجية وقلة فترة الرسالة وانشغالهم عن استيعاب تفاصيلها، كما عبّر الخليفة الثاني حينما سئل عن قلة استفادته من رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ألهانا الصفق بالأسواق)[1]، ويقول بعضهم: كنّا نغتنم فرصة مجيء الإعرابي يسأل من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لنتعلم أحكام ديننا. فمع عجزهم عن هذه الأمور الجزئية، كيف يوكل إليهم أمر الإمامة التي بها قوام الأمة.

٢- **لو كان لهذا الأمر وجود لبيّن رسول الله (صلى الله عليه وآله) تفاصيله إلى الأمة**، فيوضح صيغة الاختيار، ومن الذين لهم هذا الحق، وما هي شروط المرشحين للإمامة وضوابط الاختيار، ومن هو الحاكم فيها عند الاختلاف، وهكذا. ونحن نعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يغفل عن أبسط تفاصيل الشريعة، كآداب المائدة وأحكام التخلي، فكيف يغفل عن مسألة الإمامة وهي أصل الشريعة وأساسها ؟!.

٣- **عدم التزام نفس الخلفاء الذين أعقبوه بمبدأ الاختيار**، فالأول نص

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٢٣٤، في كتاب الآداب، صحيح البخاري: ٣/ ٨٣٧، مسند أحمد: ٣/ ١٩، سنن الدارمي: ٢/ ٢٧٤، سنن ابن داود: ٢/ ٣٢٠، مشكل الآثار: ١/ ٤٩٩. (عن كتاب الغدير: ٦/ ١٥٨).

على الثاني[١]، والثاني جعله بين ستة من المهاجرين، فهل تراهم أول مخالفين لسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله)[٢]، بل إن الخليفة الثاني يقر ويعترف (أن بيعة أبي بكر فلتة (أو فتنة) وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه كائناً من كان)[٣].

٤- إن هذا المنصب العظيم له مؤهلاته الدقيقة التي لا يعلمها إلا المطلع على الأسرار ومن لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وأولها العصمة؛ لاشمئزاز الناس من الأخذ ممن يتورط في الذنوب، وكما يظهر من الآية الشريفة ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤)، إنها مرتبة فوق النبوة والرسالة ولا يبلغها الرسول إلا بعد اجتيازه لامتحانات عسيرة، وقد ورد في تفسيرها أن الله اتخذ إبراهيم عبداً خالص العبودية، أي معصوماً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، ثم ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، ونجح في تلك الاختبارات فاستحق التكريم الإلهي ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[٤].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج١ شرح الخطبة الشقشقية.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج١ شرح الخطبة الشقشقية، سيرة الأئمة ج١، وسيأتي في الهوامش القادمة مزيد من التفصيل.

(٣) شرح النهج ج٢ ص٢٣، المراجعات / المراجعة ٨٠، مسند أحمد ٥٥/١، البخاري ١١١/٤، تأريخ الطبري ٤٤٦/٢. (عن نظريات الخليفتين).

(٤) سورة البقرة: ١٢٤، راجع تفسير الميزان وأصول الكافي/كتاب الحجة.

وأنت لو استقرأت الآيات الشريفة وجدتها تنسب الإمامة إلى الجعل الإلهي، كالآية المتقدمة وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ (الأنبياء:٧٣)، وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤)، لذا قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص:٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦).

٥- **إن كون الإمامة بالتعيين والنص الإلهي مرتكز في أذهان المسلمين عامة حتى عند من لم يعتقدوا به ظاهراً**، لكن كلماتهم وأفعالهم تبرز ذلك، والشاهد على ذلك ما ورد في روايات عديدة أن الناس كانوا يرددون قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:١٢٤) عند ما يطلع أحدهم عن كثب على سيرة أهل البيت (عليهم السلام) ومواقفهم النبيلة السامية، فكأنه مرتكز في أذهانهم جميعاً أن حمل الرسالة أمر مجعول من قبل الله تبارك وتعالى، وليس لأحد أن يتدخل فيه.

٦- **إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفسه لم يعط لنفسه الحق في تنصيب من يلي الأمة**، وإنما أوكل الأمر إلى الاختيار الإلهي، ففي سيرة ابن هشام[1] لما دعا

(١) السيرة النبوية ٢/ ٤٢٤.

الرسول بني عامر للإسلام، وقد جاءوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال النبي (صلى الله عليه وآله): (الأمر لله يضعه حيث يشاء). إذا كان الأمر كذلك فكيف يُدعى إيكاله إلى الأمة.

عقيدة مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في الإمامة:

الثاني: ولم يبق إلا الاحتمال الآخر، وقد تبنته مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، وأرسى قواعده رسول الله (صلى الله عليه وآله) واستوعبه الصفوة من أصحابه ودافعوا عنه وصرحوا به رغم الوعيد والتهديد ومضوا عليه شهوداً وشهداء.

وهذا موافق لسنة الله التي جرت في أنبيائه ورسله حيث كان لهم جميعاً أوصياء[1]، فلماذا لا يكون لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وصي ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٩) ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر:٤٣)، وقد أُلفت كتب عديدة في هذا المجال بعنوان (إثبات الوصية) وأشهرها للمسعودي[2]، وهذا المسلك يقتضي تهيئة الشخص البديل

---

(١) وقد سلسل المسعودي في كتاب (إثبات الوصية) اتصال الحجج وأوصياء الأنبياء من لدن آدم حتى خاتم النبيين -صلوات الله عليهم أجمعين- وأوصياءه. عن معالم المدرستين: ١/ ٢٨٣.

(٢) المسعودي هو: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود توفي سنة ٣٤٦هـ وفي ترجمته بطبقات الشافعية ٣٠٧/٢ قيل كان معتزلي العقيدة، وأشار إلى هذا الكتاب الكتبي في فوات الوفيات ٤٥/٢، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ٩٤/١٣ وقالا: له

وإعداده ليكون مؤهلاً لمواصلة وظائف ومسؤوليات الإمام والخلافة والقيادة النائبة بشكل تام وكامل وفاعل.

وهذا الاحتمال يبدو منسجماً مع النتائج التي تمخضت عن التحليل السابق وفي ضوء القابليات والمؤهلات التي اجتمعت في أمير المؤمنين[1] الذي قيل في كثرة فضائله: (لقد أخفى أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفاها أعداؤه حسداً وحقداً، وظهر ما بين ذلك ما ملأ الخافقين)[2]، وعن أحمد بن حنبل: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب)[3].

وكان تميزه واضحاً عن بقية أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بكل صفات الكمال، وكان التفاف الواعين المخلصين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حوله معروفاً في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبعد وفاته (صلى الله عليه وآله)، كسلمان[4]، وأبي ذر[1]،

كتاب البيان في أسماء الأئمة، وفي الميزان لابن حجر ٢٢٤/٤: له كتاب تعيين الخليفة، سماه في الذريعة وغيرها: إثبات الوصية. (معالم المدرستين ج٢).

(١) وأنا إلى هنا أتكلم بشكل موضوعي ووفق الظروف المنظورة بعيداً عن النصوص وأقيم سلوك رسول الله (صلى الله عليه وآله) كمؤسس أمة ومنشئ مجتمع مدني جديد وقائد ناجح حكيم.

(٢) سيرة الأئمة الاثني عشر ج١ علي وبيت المال ص٣١٩ ... القول للحسن البصري في جواب من سأله عما يحدّث الناس عنه.

(٣) مستدرك الحاكم ١٠٧/٣ بحسب كتاب (بنور فاطمة اهتديت)/١٣٦.

(٤) سلمان الفارسي أو المحمدي: كان أكثر أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) علماً وحكمة، وكان والياً على المدائن في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، توفي في المدائن التي كان والياً عليها في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين وقيل أول سنة ست وثلاثين وغسله ودفنه أمير المؤمنين (عليه السلام).

والمقداد[٢]، وعمار[٣]، وعزّز ذلك الرعاية الخاصة والإعداد المركز الذي كان يحيطه به (صلى الله عليه وآله) منذ نعومة أظفاره والتي وصفها أمير المؤمنين نفسه بقوله: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإسلام غَيْرَ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ

---

(١) أبو ذر: جندب بن جنادة: تقدم إسلامه وتأخرت هجرته، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله (صلى الله عليه وآله)، توفي منفياً بالربذة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.

(٢) المقداد بن الأسود الكندي: قال الرسول (صلى الله عليه وآله): (إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة من أصحابي واخبرني أنه يحبهم، فقيل: من هم ؟ فقال: علي والمقداد وسلمان وأبو ذر).. توفي سنة ٣٣ هجرية. (الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥١/٣، والإصابة ٤٣٣/٣ -٤٣٤ عن معالم المدرستين ج١).

(٣) أبو اليقظان عمار بن ياسر: أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان المشركون يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم فمر بهم النبي (صلى الله عليه وآله) فقال (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، فمات ياسر في العذاب وطعنت أمه بحربة أبي جهل، شهد عمار المشاهد كلها مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقتل بصفين مع علي (عليه السلام) وقد جاوز التسعين من عمره.

عَلَيْه (صلى الله عليه وآله) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: (هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ))[1].

وهكذا هو منه (صلى الله عليه وآله) حتى فارقت روحه الدنيا، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله) أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى الله وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا. وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وآله) وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَه (صلى الله عليه وآله) وَالْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ والأَفْنِيَةُ: مَلأٌ يُهْبِطُ، وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ[2] مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً؟)[3].

الدور العلوي في الحفاظ على الدين:

ولقد أدى (عليه السلام) دوره بنجاح بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وحفظ الإسلام من الضياع، وكان وجوده والأئمة من بنيه بحق أماناً للأمة من الانحراف، بحيث يستغيث الخليفة الثاني ويتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن[4]، فكانت خلافة أمير المؤمنين لمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإمامة الخلق من بعده نتيجة طبيعية

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ٢/ ١٥٧.

(٢) الهينمة: الصوت الخفي.

(٣) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ٢/ ١٧١-١٧٢.

(٤) أشار إلى كلمته المشهورة (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن).

ومنطقية لتسلسل التفكير أعلاه لا يسع أي منصف أن يحيد عنها، ولم يكن النص الذي سنشير إليه – وهو حديث الغدير – هو الذي جعل من علي (عليه السلام) إماماً وخليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يناقشوا في دلالته والمراد منه، لا لشيء إلا لتصحيح الواقع الذي حصل بأي ثمن كان وبأية طريقة، ولو بإنكار وجود الشمس في رابعة النهار. فعلي (عليه السلام) هو الإمام بما حمله من صفات الكمال قبل النص وإنما جاء النص للإشارة إليه ولتعريفه ولقطع العذر وإتمام الحجة على المخالفين ولحسم الموقف ووضع النقاط على الحروف – كما يقولون –.

التخطيط للخلافة:

ولعظمة هذه المسألة وأهميتها فقد كان التخطيط والتمهيد لها يؤرق عين رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويقضّ مضجعه، فإنه يخشى ردود الفعل من هذه الأمة وهو خوف محمود كخوف موسى (عليه السلام) الذي ذكره القرآن وأشرنا إليه، ليس شخصياً وإنما على مستقبل الأمة التي هي جديدة عهد بالإسلام وما زالت رواسب الجاهلية لم تنمح من ذاكرتها، ومازال التعصب يتحكم فيها[1]، فكيف يستطيع أن

(١) لاحظ كشاهد على ذلك كيف أن بشير بن سعد وأسيد بن حضير بادرا إلى بيعة أبي بكر خشية أن يفوز بها سعد بن عبادة.

عن كتاب النص والاجتهاد المورد الأول يوم السقيفة ص ٨٠. واجتماع أكثر الأنصار في السقيفة يرشحون سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، لكن ابن عمه بشير بن سعد بن ثعلبه الخزرجي وأسيد بن خضير سيد الأوس كانا ينافسانه في السيادة، فحسداه على هذا الترشيح وخافا أن يتم له الأمر فأضمرا له الحبكة مجمعين على صرف الأمر عنه بكل ما لديهما من وسيلة وصافقهما على ذلك وعويم بن

يضمن ولاءها لهذا القرار الهام الذي يصعب على النفوس الحالمة بالخلافة والقلوب المملوءة حسداً وحقداً على علي (عليه السلام) أن تنصاع إليه، كذاك الفهري الذي ما إن سمع بحديث الغدير وتنصيب علي (عليه السلام) خليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومبايعة المسلمين له حتى جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال له: هذا الأمر منك أم من الله؟ فقال (صلى الله عليه وآله): إنه من الله. فقال: إن كان هذا من الله فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم. فما خرج منه (صلى الله عليه وآله) حتى نزلت عليه صاعقة من السماء. وقد ورد أنه سبب نزول قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (المعارج:١-٢)[1].

ساعدة الأوسي، ومعن بن عدي حليف الأنصار.. وكان مع ذلك ذوي بغض وشحناء لسعد بن أبي عبادة...

(١) روى الثعلبي الذي هو من قدوة مفسري المخالفين في شأن نزولها -انظر هامش ج٨ تفسير الرازي لأبي مسعود ص٢٩٢ والسيرة الحلبية ج٣ ص٣٠٢ ونور الأبصار ص٦٩- أنه لما كان النبي (صلى الله عليه وآله) بغدير خم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي (عليه السلام) فقال من كنت مولاه فعلي مولاه فشاع ذلك وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى... النبي (صلى الله عليه وآله) وهو في ملأ من أصحابه، فقال: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا اله إلا الله وانك رسول الله ففعلناه وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلنا وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان فقبلناه وأمرتنا أن نحج البيت فقبلناه ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه وهذا شيء منك أم من الله، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): والذي لا اله إلا هو من الله، فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء واتنا بعذاب اليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله وانزل الله تعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۞ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (حق اليقين في معرفة أصول الدين ج١ / الآية الثالثة الدالة على أن الإمام بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو علي (عليه السلام).

الإعلان العظيم تكلل في يوم الغدير:

وبالمقابل كان (صلى الله عليه وآله) لا يستطيع السكوت عن إنفاذ هذا الأمر وهو يرى نهايته تقترب، والأعداء يتربصون بدينه الدوائر، فكيف يهدأ له بال ويقرّ له قرار قبل أن تنعقد البيعة لعلي (عليه السلام).

حتى أذن الله تبارك وتعالى له بالتبليغ، بل أمره به وطمأنه من مخاوفه هذه بأنه سيعصمه من الناس، وبين أهمية هذا الأمر بأنه وحده في كفة وباقي الرسالة كلها في كفة، فقال عز من قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧).

فليس غريباً أن تدرج هذه الآية المباركة وآية الولاية التي سبقتها ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٥) في سورة المائدة التي يستشف المتأمل فيها أن غرضها تأسيس المجتمع المسلم، وبيان مميزاته الرئيسية ومقوماته وأسس كيانه، وعرض نقاط الفرق بين المجتمع الذي يقوم على أساس الإسلام والمجتمع الذي ليس كذلك كائناً ما كان وإن سمى نفسه مسلماً، فإنه في مفهوم القرآن (مجتمع جاهلي)، فالبينونة بين المجتمعين كاملة في الأحكام (كآيات أوفوا بالعقود وحرمة الكلب والخنزير وغيرها) وفي من له حق الولاية (فقد تكررت كثيراً آيات ولاية المؤمنين والبراءة من الكافرين)، وفي الشريعة التي تنظم الحياة ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ۞ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّه فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ۞.. هُمُ الظَّالِمُونَ۞.. هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(المائدة ٤٤-٤٥-٤٧-٥٠)

وتمامها وعقد نظامها آية التبليغ وآية الولاية.

أعظم الأعياد في الإسلام:

ثم جعل يوم الحسم هذا أعظم عيد في الإسلام، ففيه كمل الدين وتمت النعمة بعقد البيعة والولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام)، وامتنَّ الله تبارك وتعالى على عباده بذلك فقال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً﴾ (المائدة:٣).

وجلس رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتقبل التهاني بهذا الإنجاز العظيم ويقول لأصحابه: هنئوني هنئوني بابن عمي أمير المؤمنين. وأفرد له خباءً ليسلموا عليه ويبايعوا علياً خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين، واستأذنه شاعره حسان بن ثابت أن يقول شعراً في المناسبة، فأذن له فأنشأ:

يناديهمُ يوم الغدير نبيهم بخمٍّ فأسمع بالرسول مناديا

وفيها يقول:

فقال له: قم يا عليُّ فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

وأول من سلم عليه الشيخان وهما يقولان له: بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[1].

---

(١) أخرج الإمام الواحدي في تفسير (يا أيها الرسول بلغ ...) من طريقين معتبرين عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية يوم غدير خم بعلي بن أبي طالب، فلما بلغ الرسالة بنصه (صلى الله عليه وآله) على علي (عليه السلام) بالإمام وعهد إليه بالخلافة أنزل الله عز وجل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ...﴾ وأول من هنأ علي (عليه السلام) في يوم الغدير هما: أبو بكر وعمر بقولهما: أمسيت يا بن أبي طالب مولى كل

وقد نظم هذه الحقيقة التأريخية الدامغة أجيال من الشعراء جيلاً بعد جيل[١]، ومنهم عمرو بن العاص الخصم الألدَّ لعلي بن أبي طالب في قصيدته الجلجلية التي بعثها إلى معاوية يذكّره ببعض الحقائق التي تناساها، ومما جاء فيها[٢]:

وكم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصصةً في علي
فأنحلَه إمرة المؤمنين ... من الله مستخلف المنحل
وقال: فمن كنت مولىً له ... فهذا له اليوم نعم الولي
فبخبخَ شيخُك لما رأى ... عُرى عقد حيدر لم تُحلل
فقال: وليكم فاحفظوه ... فمدخله فيكم مدخلي

وقد جاء هذا البيان - خطبة الغدير - منه (صلى الله عليه وآله) متوّجاً لبيانات سابقة لا تقل عنه وضوحاً: (إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)[٣]، وإن: (علي مع الحق والحق مع علي)[٤] وإنه (عليه السلام) وأهل بيته كمثل سفينة نوح من

مؤمن ومؤمنة. (أخرجه الدار قطني - الفصل الخامس من الباب الأول من صواعق بن حجر ص٢٦ وأحمد نحو هذا القول عن عمر من حديث البراء بن عازب ص٢٨١ ج٤ من مسنده). (المراجعات ٥٤ وما بعدها).

(١) راجع الموسوعة الفريدة (الغدير) للشيخ الأميني (قدس سره).

(٢)) (راجع كتاب الغدير في ترجمة عمرو بن العاص).

(٣) حديث المنزلة: عن الإمام أحمد في الجزء الأول من مسنده في آخر صفحة ٣٣٠ والإمام النسائي في خصائصه العلوية ص٦ والحاكم في ج٣ من صحيحه المستدرك ص١٢٣ والذهبي في تلخيصه معترفاً بصحته عن عمرو بن ميمون (المراجعات: ٢٦).

(٤) البحار ج١٠ باب ٢٦ ص٤٣٢.

ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك[١]، وأنهم والقرآن صنوان لا يفترقان، وثقلان ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبدا[٢].. وغيرها كثير.

لماذا كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام؟

إن عظمة هذا اليوم لها مناشئ عديدة فهو:

١- **يوم الطمأنينة على بقاء الرسالة واستمراريتها** بعد أن انتقل ارتباطها من شخص رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فيمكن أن تموت بموته، إلى نوع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أي إلى كل من تتجمع فيه صفات وشروط الإمامة فلم يعد وجودها منوطاً بشخصه (صلى الله عليه وآله).

٢- **وهو يوم الانتصار النهائي على مكائد الأعداء** الذين لم يبق في جعبتهم من سلاح إلا موت رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتنتهي دعوته ففقدوا هذا الأمل الشيطاني بتنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) خليفة.

٣- **وهو يوم حماية الأمة من التشتت ومن الضياع بتعيين الحبل الذي إن اعتصموا به بقي ريحهم** وكيانهم وانتشر أمرهم وعلت كلمتهم.

٤- **وهو يوم صيانتها من الانحراف** بعد أن نصب لهم العلم والمحور الذي يلتفون حوله.

٥- **وهو يوم أمان الأرض ومن عليها من الفناء**، لما ورد في الحديث: (إن

---

(١) الوسائل: كتاب القضاء، صفات القاضي، باب٥، حديث١٠.

(٢) الإمام أحمد والترمذي بعدة طرق تجدها في المراجعات: المراجعة ٨٠.

الأرض لا تخلو من حجة ظاهر أو مستور، ولولاه لساخت الأرض بأهلها)[١].

٦- **وهو يوم الهداية إلى الدين** ووضوح الحق بمعرفة الحجة كما في الدعاء: (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني نبيك، فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني)[٢].

٧- **وهو يوم الإمامة التي هي أس الإسلام وسنامه**، فهو لا يقل أهمية عن يوم البعثة النبوية الذي انبثق فيه نور الإسلام.

التشيع يزداد وضوحا بيوم الغدير:

لأجل هذا كله كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام كما نطقت به الروايات الشريفة، وفي ذلك اليوم تبلورت فكرة (التشيع) ونضجت ثمارها وأينعت بعد أن كان قد زرع بذورها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مناسبات عديدة، ابتداءً من يوم الدار وإنذار عشيرته الأقربين في أوائل البعثة الشريفة[٣].

---

(١) البحار ج٣٦، باب٤١، ص٣١٥.

(٢) مفاتيح الجنان: الفصل السادس ، دعاء زمن الغيبة.

(٣) حياة محمد: الفصل الخامس، ص١٤٢، لمحمد حسين هيكل، المراجعات: مراجعة ٢٠ قال فيها حين أنزل الله تعالى على الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فدعاهم إلى دار عمه أبي طالب وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيد رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، والحديث في ذلك من صحاح السنة المأثورة، وفي آخره قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على أمري هذا على أن يكون

ولهج رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهذا الاسم المحبب له ولأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) في مناسبات عديدة، أنقل بعضها من كتب العامة ليكون الخطاب أبلغ في الحجة:

١- في الدر المنثور للسيوطي ج٨/ص٥٨٩: روى بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنّا عند النبي (صلى الله عليه وآله) فأقبل علي (عليه السلام)، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): (والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة)، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة:٧).

٢- ابن حجر في الصواعق المحرقة[١]: عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): (هم أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضاباً مقمحين).

٣- كنوز الحقائق للمناوي الشافعي[٢] قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة)، وروى احمد عن أمّ سلمة قالت: كان النبي (صلى الله عليه وآله) عندي في ليلتي فغدت عليه فاطمة وعلي فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا علي أبشر

أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها غير علي - وكان أصغرهم - إذ قام فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله برقبته وقال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

(١) الباب (١١) الفصل الأول: الآية الحادية عشرة

(٢) كنوز الحقائق للمناوي (ص٨٣)

فإنّك وأصحابك وشيعتك في الجنّة.[١]

أشكال التخطيط النبوي لتعيين الخليفة:

لقد كان تخطيط رسول الله (صلى الله عليه وآله) لهذا الأمر أي تعيين الخليفة والامتداد له على ثلاثة أشكال:

الأول: النص المباشر والواضح عليه، وعدم ترك الأمر مجملاً تتقاذفه التأويلات والتفسيرات، وقد تقدم فيما مضى فكرة عنه، وأنصح بقراءة كتاب (المراجعات) للسيد شرف الدين للاطلاع على المزيد من الأدلة والنصوص ببيان قوي وحجة دامغة، مما لو دخلت فيه سأخرج عن الاتجاه العام الذي رسمته لهذا البحث.

الثاني: الإشادة بالأشخاص المخلصين الواعين الذين يعلم (صلى الله عليه وآله) منهم أنهم ثابتون على الخط وواعون للهدف وراسخون في المبدأ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقولون كلمة الحق مهما كان الثمن، كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار وذي الشهادتين وبلال الحبشي وأم ايمن وأم سلمة، فكان (صلى الله عليه وآله) يردد: (سلمان منّا أهل البيت)[٢] (إن الجنة لتشتاق إلى أربعة: سلمان والمقداد وأبي ذر وعمار)[٣] (ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء ذا لهجة أصدق

---

(١) فضائل الصحابة: ٦٥٤/٢

(٢) البحار ج١، باب٨، ص١٢٣.

(٣) وسائل الشيعة: ج٢٢ خاتمة الكتاب، باب ١٠، ص ٣٢٤.

من أبي ذر)[١] (مُلئ عمار إيماناً من قرنه إلى أخمص قدميه)[٢] و(أم أيمن امرأة من أهل الجنة)[٣] و(بلال من أهل الجنة)[٤] وقال لأم سلمة: (لستِ من أهل البيت، لكنك على خير)[٥].

فكانت هذه الأوسمة تخطيطاً منه (صلى الله عليه وآله) للمستقبل إذا انقلبت الأمة على الأعقاب وتاهت بها السبل في بحر الظلمات، فسيكون هؤلاء أعمدة نور تضيء لطلاب الحقيقة الدرب، وتدلّهم على شاطئ الإيمان وقد أدّوا دورهم وقالوا كلمة الحق فثبتوها في لوح التأريخ[٦] لو كان هناك من يسمع، بينما لم نسمع منه (صلى الله عليه وآله) كلمة واحدة في أولئك الذين انحرفوا عن علي (عليه السلام) وخذلوه، رغم أن منهم من كان له مواقف مشهورة كالزبير بن العوام.

الثالث: وضع ضوابط يُعرف بها المستحقون لهذا الأمر وتمييزهم عمّن هم ليسوا أهلاً له، والذين يستخدمون أساليب لم يقم عليها دليل شرعي من أجل تثبيت استحقاقهم، أو تشويه صورة أهل الحق وإزالتهم عن موقعهم، كما كانوا يقولون: (إن قريش نظرت فاختارت، وإنها أبت أن تجتمع النبوة والخلافة في بني

---

(١) الوسائل ج١٠، باب٢، ص٢٣، سنن ابن ماجه المقدمة باب١١، وسنن الترمذي كتاب المناقب، مناقب أبي ذر، ومسند أحمد، وطبقات ابن سعد. (عن معالم المدرستين).

(٢) الوسائل: ج١٩، باب٦، ص٣٥.

(٣) البحار: ج١٧، باب٤، ص٣٧٨.

(٤) البحار: ج٢٢، باب٣٧، ص١٤٢.

(٥) أخرجه الطبراني في الدر المنثور، وروي عن طريق الخاصة.

(٦) راجع كتاب الاحتجاج للطبرسي.

هاشم)[١] و(إن فلان - وهو الأول - أسنّ من عليّ)[٢] و(إن علياً فيه دعابة)[٣]، والله تبارك وتعالى يخاطبهم ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)، ويقول تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:٧)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص:٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦) فما قيمة رأي أحد واختياره كائناً من كان بعد قضاء الله تبارك وتعالى واختياره ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (البقرة:٩٠).

الضوابط والمعايير لتولي الخلافة:

فبهذه المعايير والضوابط التي سنذكرها إن شاء الله تعالى تستطيع الأمة أن تفرز هؤلاء المتطفلين مهما مارسوا من أساليب الخداع والتضليل، المتقمصين لأمرها بغير حق:

---

(١) ابن أبي الحديد: ص١٠٧ من المجلد الثالث في شرح النهج، ابن الأثير: ص٢٤ ج٣ من كامله. (عن المراجعات: مراجعة ٨٤). سيرة الأئمة: ج١ ص٣٣٢ هاشم معروف الحسني.

(٢) الغدير: ج٢ ص١٢٨.

(٣) شرح النهج: ج١ لابن أبي الحديد عن شيخه أبو عثمان في كتابه السفيانية، سيرة الأئمة: ج١ ص٣٣٨.

(فمنها) قوله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤)، والعهد هو الإمامة؛ لأنها جاءت جواباً على سؤال إبراهيم (عليه السلام) بعد جعله إماماً، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِى﴾، وقد فُسّرت في الروايات الشريفة بمن سجد لصنم يوماً ما[١]، فإن من فعل ذلك سفيه، ولا يكون السفيه إمام التقي كما في الحديث[٢]، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).

(ومنها) قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد:١٠).

(ومنها) قوله (صلى الله عليه وآله): (لا يلي أمر هذه الأمة طليق).

(ومنها) قوله (صلى الله عليه وآله): (فاطمة بضعة مني، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها)[٣].

وقال (صلى الله عليه وآله): (يا عمار تقتلك الفئة الباغية)[٤].

(ومنها) حشدُهُ (صلى الله عليه وآله) المعادين لخط الإمامة، وفيهم شيوخ قريش في جيش أسامة ذي السبعة عشر ربيعاً، ولعنه من تخلف عن جيش أسامة، وأمر

---

(١) روى الفقيه ابن المغازي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): انتهت الدعوة إلي وإلى علي (عليه السلام) ولم يسجد أحدنا لصنم فاتخذني نبياً واتخذ علي وصياً. (حق اليقين في معرفة أصول الدين - الحادي عشر من الآيات الدالة على إمامة علي (عليه السلام).

(٢) الكافي: كتاب الحجة، حديث ٤٣٨، المجلد الثاني.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٤/١، أعلام النساء: ٣١٤/٣. (عن نظريات الخليفتين ج١).

(٤) الكافي: ١١/٥.

بإنفاذه فوراً[1]، وكان ذلك منه (صلى الله عليه وآله) لإخلاء الساحة من الذين لا ينصاعون لإمامة أمير المؤمنين (عليه السلام).

تطبيق الضوابط على المتصدين للخلافة بغير حق:

وبملاحظة هذه المعايير والضوابط تكتشف كيف خطط رسول الله (صلى الله عليه وآله) لحصر الأمر بعلي (عليه السلام)، فبعض المتصدين ممن أغضب فاطمة (عليها السلام) وماتت وهي واجدة عليهم، كما أشهدتهم (صلوات الله عليها) على ذلك، فنالوا بذلك غضب الله تبارك وتعالى، وهل يلي أمر الأمة أحد من المغضوب عليهم، ثم هم من الظالمين الذين سجدوا للأصنام ردحاً طويلاً من الزمن، فلا ينالهم عهد الله تعالى، فكيف يكون أحدهم إماماً لمن كرم الله وجهه عن ذلك -كما يعترفون- وهم أيضاً ممن تخلفوا عن جيش أسامة فينالهم حكمه.

وبعضهم لم يقاتلوا لا قبل الفتح ولا بعده، وهزائمهم في الحروب معروفة، ومنهم من ولّى منهزماً في معركة أحد لا يلوي على شيء ثلاثة أيام، حتى بلغ تخوم الشام، فقيل له: إن الأمر لا يستحق ذلك وقد عاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) سالماً إلى المدينة.

ومعاوية ومروان ممن أسلموا بل استسلموا بعد الفتح، فلا يستوون مع من آمن

---

(١) الشهرستاني في المقدمة الرابعة من كتاب الملل والنحل. (المراجعات: مراجعة ٩٠، النص والاجتهاد - سرية جيش أسامة).

وأنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم من الطلقاء[١] فلا يحق لهم ولاية أمر الأمة. وهم من البغاة، لأنهم قتلوا عماراً في صفين، فكيف يلي أمر الأمة باغٍ أثيم[٢].

فلو كانت الأمة واعية لتلمست طريقها بوضوح، حيث لم يترك لها رسول الله (صلى الله عليه وآله) عذراً، فهل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) عاطفياً وبدافع الحب لابنته حين قال هذا الكلام، وهل سمعت بأحد غيور يرتقي المنبر ويثني على مزايا ابنته ؟! لا طبعاً خصوصاً في مثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي يصفه القرآن ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤). وإنما المسألة أبعد من ذلك، إنه يريد أن ينصب لهم ميزاناً يعرفون به الحق والباطل لو اختلطا عليهم، وإن كان الأمر واضحاً لكن قلبه الكبير ورحمته ورأفته بالأمة أبت إلا أن يوالي الحجج على هذه الأمة وينصب لها العلامات تلو العلامات حتى وهو على فراش المرض في رزية الخميس كما يسميها ابن عباس[٣]. ولأنه (صلى الله عليه وآله) كان يعلم أن أساليب التضليل كثيرة ووسائل الضغط قوية وشرسة، فالنص - وهو الشكل الأول من التخطيط - يُؤوَّل ويُحرَّف، وهذه الثلة المخلصة - وهو الشكل الثاني - يُضيَّق عليها وتحبس أنفاسها، فأبو ذر ينفى إلى الربذة حتى يموت غريباً[٤]، وعمار وعبد الله بن

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: الباب الثاني، كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى معاوية وقوله: (...واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الإمامة...).

(٢) البحار: ج٣٦، باب٤١، ص٣٢٧، النص والاجتهاد: المورد ٩٥ حرب معاوية لعلي (عليه السلام).

(٣) المراجعات: المراجعة ٨٦.

(٤) الوسائل: ج٢٢ باب ١٢ ص٣٩٥، معالم المدرستين ج١ ص٤٥٩.

مسعود[١] يداس بطنه وتوجأُ عنقه، وأم أيمن امرأة أعجمية لا تقبل لها شهادة[٢]، والحسن والحسين طفلان صغيران[٣]، وعليّ يجر النار إلى قرصه فلا تقبل له ولا لولديه شهادة[٤]، والزهراء (عليها السلام) تتجرع الآلام غصة بعد غصة حتى لحقت بأبيها بعد أيام وهكذا ...، لذا كان الشكل الثالث من التخطيط ضرورياً ليكون شاهد عدل مدى الأجيال، تملأ أفواه مزوري الحقائق بالتراب.

ولعلك تعجب مع وضوح هذا التخطيط وقوة الحجج المتوالية التي لم تنقطع حتى وفاته (صلى الله عليه وآله) وإذا بالأمر يزول عن مستقره ويتقمص الخلافة غير علي (عليه السلام)، وهو يعلم أن محل ابن أبي طالب منها محل القطب من الرحى، ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير[٥].

وانه لعجيب فعلاً، ولو لم يكن حقيقة ثابتة أجمع عليها المؤرخون لما صدّقنا به، وقد أوجدت في عين أمير المؤمنين قذى، وفي الحلق شجى، وفي القلوب جمرة لا تطفأ إلى يوم القيامة حتى ينتصف المظلوم من الظالم، ونعم الحكم الله

---

(١) ابن مسعود: أسلم قديماً وأجهر قديماً في مكة فضربوه حتى أدموه وهاجر إلى الحبشة والمدينة، شهد بدراً وما بعدها، وقطع عثمان عطاءه سنتين لإنكاره على الوليد ما ارتكبه زمان ولايته على الكوفة ومات سنة اثنتين وثلاثين. (أسد الغابة: ٢٥٦/٣-٢٦٠، مستدرك الحاكم: ٣١٥،٣٢٠/٣ وراجع أحاديث عائشة ٦٢-٦٥) (عن معالم المدرستين ج٢)، وحول مقتله راجع للتفصيل سيرة الأئمة ج١ ص٣٧٠ وكذلك ضرب عمار بن ياسر.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٨، باب٤، ص٣٠٢، سيرة الأئمة: القسم الأول ص١١٨ لهاشم معروف الحسني.

(٣) سيرة الأئمة: القسم الأول ص١١٩.

(٤) سيرة الأئمة: القسم الأول، ص١١٨.

(٥) من كلمات لأمير المؤمنين (عليه السلام) في الخطبة الشقشقية في نهج البلاغة.

والخصم محمد (صلى الله عليه وآله)[١]، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) بهذا الصدد: (إن حقوق الناس تثبت بشهادة شخصين، وقد أنكر حق جدي أمير المؤمنين وعليه سبعون ألف شاهد كانوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في غدير خم)[٢].

المرجعية الدينية ومسؤوليات التخطيط لإعداد البديل:

وعلى أية حال، فليست هذه الحالة فريدة في التأريخ، بل هي تتكرر كلما تكررت ظروفها الموضوعية، وما دامت النفس الأمارة بالسوء الميالة لاتباع الهوى وإشباع الشهوات والنزوع إلى التسلط وحب الجاه، وقد عشنا مثلها فإلى الله المشتكى[٣].

والذي أريده من هذا البيان ليس فقط ترسيخ هذه العقيدة والدفاع عنها وإن كان هذا مطلباً مهماً، لكني بالإضافة إليه أقول: إن العلماء وعلى رأسهم المرجعية الشريفة هم ورثة الأنبياء[٤]، ليس فقط في الحقوق والامتيازات، وإنما في الوظائف والمسؤوليات والواجبات، خصوصاً وقد أمرنا بالتأسي برسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١).

---

(١) من خطبة الزهراء التي احتجت بها على الصحابة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله). (المصنف). راجع شرح النهج لابن ابي الحديد: ج١٦ ص٢١٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٧ باب٥٢ ص١٥٨.

(٣) يشير (دام ظله) بذلك إلى ما حصل من حركات (انقلابية) على وصية السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) رغم النصوص والإشارات المتكررة.

(٤) الكافي: ٣٢/١.

ومن تمام التأسي والوراثة إعداد البديل بغض النظر عن كونه واحداً أو أكثر، وتربيته وتأهيله لهذا المنصب الإلهي الشريف، وأي تقصير فيه غير مغتفر لا عند الله سبحانه ولا عند رسوله (صلى الله عليه وآله) ولا أوليائه العظام ولا عند المجتمع، وبعد أن يطمئن إلى إكمال إعداد البديل علمياً وفكرياً وأخلاقياً وعقائدياً - وهي المقومات الأربعة لشخصية العالم الديني، بل كل مسلم واعٍ مخلص- يجب أن يشير إليه صريحاً، **وهذا هو الشكل الأول من التخطيط.**

وأما الشكل الثاني فيؤدى بالإشادة بمجموعة من الفضلاء الورعين المخلصين من أهل الخبرة الذين يطمئن إلى استقامتهم على الطريقة وإنصافهم الحق ونزاهتهم في بيانه وبصيرتهم في الأمور، حتى يرشدوا المجتمع بإخلاص وبلا لبس وإجمال وغموض إلى المرجع البديل.

وأما الشكل الثالث ففيه صنفان من الضوابط والمعايير والشروط، **فمنها شروط ثابتة، وهي الاجتهاد والعدالة وغيرها** من المذكورات في الرسائل العملية، **ومنها شروط متحركة بحسب الزمان والمكان والظروف الموضوعية** التي تعيشها المرجعية الشريفة، وهذه يجب طرحها بحسب الحاجة وفي وقتها المناسب. وهذا الكلام كله على نحو الإشارة والإجمال، وللتفصيل محله المناسب.

مسؤولية الأمة في البحث عن المرجع البديل:

هذا بالنسبة لتكليف المرجعية، وفي مقابله توجد مسؤولية على الأمة يجب أن تعيها وتؤديها، وهي سؤال المرجع عن البديل، فإذا عينه كان من واجبهم الالتفاف

حوله والإشادة به ودلالة المجتمع عليه، وقد تكاملت هذه التربية عند أصحاب الأئمة (عليهم السلام)، فكانوا يسألونهم: (مَنْ الحجة بعدك)[١] و(إلى من المفزع إذا حدث حادث)[٢] وهكذا، وإذا ذهب إمام فلم يكونوا يصدّقون كل من يدعي الإمامة، بل يجرون له الامتحانات التي لا ينجح فيها أي إمام[٣]، كامتحانهم لجعفر أخي الإمام العسكري (عليه السلام) الذي ادعى الإمامة بعد أخيه (عليه السلام).

(١) أصول الكافي: كتاب الحجة باب الإشارة والنص على الأئمة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع كتاب أصول الكافي/كتاب الحجة.

﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران:﴿١٤٤﴾﴾

إنقلاب الأتباع عند غياب القائد

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٤٤﴾).

تثير الآية الكريمة قضية مهمة وتؤشر مرضاً خطيراً يصيب اتباع الديانات والمشاريع الإلهية وهو ذوبانهم في شخصية القائد ذاته وليس في الرسالة التي حملها اليهم مما يؤدي إلى انهيارهم وانحرافهم وتشتتهم عند غيابه عنهم بموت أو قتل والآية الكريمة تؤسس لحقيقة يجب أن يعيها المؤمنون اتباع الرسالات الإلهية العظيمة في كل الأجيال وهي أن يكون ارتباطهم بالرسالة نفسها لأنها تمثل المبادئ التي أرادها المرسل تبارك وتعالى، والارتباط بالرسول وحامل الرسالة مهما عظمت مكانته لابد أن يكون على هذا الأساس وليس على أساس الشخصنة التي تؤدي الى الصنمية وعبادة الذات والذوبان فيها بمعزل عن المبدأ بحيث اذا مات أو قتل فكأنه ينتهي كل شيء.

وهذا من أخطر الأمراض التي تُصيب اتباع الرسالات والمشاريع الإلهية لأنه يؤدي إلى اندثار الرسالة وانحرافها وتفرق الاتباع عند موت القائد[1]، والصحيح أن يعتقدوا أن الرسالة باقية خالدة اما الرسول أو القائد عموماً فأنه معرَّض للموت

---

(١) راجع قبس/٩٢ ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ (مريم:﴿٥٩﴾) من نور القرآن: ٣/ ١١٥.

أو القتل ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر:٣٠) وان الله تعالى يقيِّض لهذا الدين من يستمر بتبليغه وحفظه من التحريف والدّس وإقامته في حياة الأمة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (يا أيها الناس: ان الله تبارك اسمه وعزّ جنده لم يقبض نبياً قط حتى يكون له في أمته من يهدي بهداه ويقصد سيرته ويدلّ على معالم سبيل الحق الذي فرض الله عباده، ثم قرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ..﴾)[1].

فالمؤمنون الصادقون هم الذين ذابوا في المبدأ - وهو الدين - واستوعبوه وجعلوه منهج حياتهم فلا تؤثر عليهم غيبة الرسول والقادة عموماً بل هم لا يرون انه قد غاب عنهم لأنه حاضر بينهم بالمبادئ التي أسسها لهم والمنهج الذي وضعه لهم فهم ينظرون إلى الرسالة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم:٢٤-٢٥).

وهذه الآية دليل على صدقه (صلى الله عليه وآله) وان القرآن كتاب منزل من الله تعالى، لأن دعوته (صلى الله عليه وآله) لو كانت لمنفعة شخصية له لعمل على تكريس ذاته كما يفعل الطواغيت ((اذا متُّ ضمآناً فلا نزل القَطر)) بينما كان (صلى الله عليه وآله) يعمل على تذويب ذاته في المبدأ والشواهد على ذلك من سيرته الشريفة كثيرة كقوله (صلى الله عليه وآله) لمن ارتعدت فرائصه لما نظر إليه وهو يكلّمه (هوِّن عليك.. فأني لست بملك.. إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد)[2]، وقد حكى الله تعالى هذا الموقف عن جميع أنبيائه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ

(١) تفسير العياشي: ١/ ٢٠٠.

(٢) سنن: ابن ماجة: ٤/ ١٦ كتاب الاطعمة، باب القديد/ ح٣٣١٢، والطبراني في الأوسط: ٢/ ٦٤/ رقم١٢٦٠، والحاكم في المستدرك: ٣/ ٥٠/ رقم ٤٣٦٦ وصحّحوه

لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران:٧٩).

والآية تحكي فصلاً من احداث معركة أُحد فأنه لما نودي في جيش المسلمين من بعض المشركين أو المتآمرين والمنافقين وذيول قريش بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد قتل انهزموا ((فجعل الرجل يقول لمن لقيه: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد قتل، النجاء النجاء - أي انجوا بأنفسكم-))[١] ودخل اليأس على أكثر المسلمين والقوا سلاحهم وأيقنوا بأن كل شيء قد انتهى بحيث ((قال أهل المرض والارتياب والنفاق حين فرَّ الناس عن النبي (صلى الله عليه وآله) قد قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول))[٢] أي الشرك والجاهلية، وأخرج ابن جرير أيضاً ان بعضهم قال ((ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن ابي - زعيم المنافقين في المدينة - فيأخذ لنا أماناً من ابي سفيان، يا قوم ان محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم))[٣] ومن كلامهم يظهر انهم من المهاجرين.

فالآية توبّخهم وتقول بأن محمداً (صلى الله عليه وآله) ليس الا رسول مبلغ عن الله تعالى ما فيه هدايتكم وصلاحكم ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران:١٥٤) وقد مضى من قبله رسل كُثُر على ذات المنهج والدعوة إلى الله تعالى، وكلهم مضوا إلى ربّهم بعد أن ادّوا ما عليهم من دون أن تموت المبادئ التي حملوها إلى أممهم فلماذا - والاستفهام هنا استنكاري - هذا الانقلاب منكم

(١) البرهان: ٢/٢٨٠/ ح١، عن تفسير القمي: ١/١١٩.

(٢) تفسير الطبري: ٧/ ٢٥٨.

(٣) تفسير الطبري: ٧/ ٢٥٥.

والنكوص والرجوع عما أنتم عليه من الحق الى جاهليتكم الأولى والتخلي عن مواصلة اعتناق الرسالة والمضي على ما مضى عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمجرد أن صيح بكم بموته أو قتله (صلى الله عليه وآله) وهذا يعني ان رواسب الجاهلية ما زالت فيكم ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات:١٤)، وأن ارتباطكم بالنبي (صلى الله عليه وآله) شخصي لاجل الدنيا وليس مبدأياً، وتعلّل آية أخرى هزيمتهم من المعركة بأنها انعكاس لهزيمتهم الروحية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ (آل عمران:١٥٥).

وتضيف الآية: واعلموا إن انقلابكم هذا لن يضرّ الله تعالى ولن يؤثر على استمرار الرسالة وخلودها لأن الله تعالى يأتي بمن يواصل حملها وحمايتها والانطلاق بها كما يشهد لذلك ما حصل في كل حالات الانقلاب التي وقعت فيها الأمة وإنما يخسر المنقلبون على اعقابهم لأن الدين جاء لإسعادهم في الدنيا والآخرة فاذا تخلّوا عنه فان حياتهم ستكون نكدة وشقية ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (إبراهيم:٨).

وقد ثبت في المعركة قلة من الافذاذ احاطوا برسول الله (صلى الله عليه وآله) يقونه بأنفسهم يتقدمهم أمير المؤمنين (عليه السلام) واستشهد أكثرهم رُوي عن ابن عباس (أن علياً (عليه السلام) كان يقول في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن الله عزوجل يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد اذ هدانا الله، ولئن مات أو قتل لأقاتلنّ

على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لاخوه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني)[١].

وقد اعتبر الله تعالى ثباتهم على الرسالة والمبدأ شكراً فقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ لأن الشكر على النعمة هو استعمالها فيما يريده المنعم واستحضار ما يقتضيه حق الربوبية وان ثباتهم وتمسكهم شكر عملي على نعمة الايمان.

روى[٢] ابان بن عثمان عن ابي جعفر (عليه السلام) (أنه أصاب علياً يوم أُحُد ستون جراحة وروى الشيخ المفيد في الاختصاص أنها ثمانون تدخل الفتائل من موضعّ وتخرج من موضع بحيث خاف المداوي من معالجته لأنه كلما عالج جزءاً انفتق جزء آخر من بدنه فدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة فجعل النبي (صلى الله عليه وآله) يمسحه بيده ويقول: ان رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأعذر وكان القرح الذي يمسحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) يلتئم فقال علي (عليه السلام): الحمد لله اذ لم أفرّ ولم أوليّ الدبر فشكر الله تعالى له ذلك في موضعين من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤)، ﴿وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٥).

---

(١) البرهان: ٢/ ٢٨٠/ ح٤، عن آمالي الشيخ: ٢/ ١١٦، الرياض النضرة: ٣/ ٢٠٦ فوائد السمطين: ١/ ٢٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤١/ ٣، المناقب لابن شهرآشوب: ٢/ ١١٩، تفسير البرهان: ٢/ ٢٨٢/ ح٢، نور الثقلين: ١/ ٢٠٣.

أقول: تصرّح الرواية بأن المقصود بالشاكرين هو أمير المؤمنين، ويمكن الاستدلال عليه بأن الثبات في المعركة كان شكراً حقيقة وقد ثبت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) جمع مبارك من أصحابه، ولو أريد ذكر موقفهم لكان الأنسب في التعبير أن يكون (وسيجزّي الله الذين شكروا) في إشارة إلى فعل محدد وحالة معينة وبمقتضى المقابلة مع الفعل ﴿انقَلَبْتُمْ﴾.

أما وصف الشاكرين فلا ينطبق الا على أمير المؤمنين (عليه السلام) لأنه يدل على ثبات الصفة عند الموصوف واستمرارها وهذا الوصف الثابت يلازم وصف المخلصين، لأنه اذا علمنا بأنه ما من شيء الا وهو نعمة من الله تعالى فقد ((بان ان الشكر المطلق هو ان لا يذكر العبد شيئاً ـ وهو نعمة ـ الا وذكر الله معه ولا يمس شيئاً – وهو نعمة – الا ويطيع الله فيه – لأن الطاعة حقيقة الشكر فهو دائم الشكر والذكر – ، فقد تبيّن ان الشكر لا يتم الا مع الإخلاص لله سبحانه علماً وعملاً، فالشاكرون هم المخلصون لله، الذين لا مطمع للشيطان فيهم، ويظهر هذه الحقيقة مما حكاه الله تعالى عن ابليس، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٢-٨٣) فلم يستثن من اغوائه أحداً الا المخلصين، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧) فقد بدّل المخلصين بالشاكرين، وليس الا لأن الشاكرين هم المخلصون الذين لا مطمع للشيطان فيهم، لأن الشاكر متعلق بالله تعالى ولا مطمع له في سواه تبارك وتعالى وبذلك فقد سدَّ على الشيطان منافذ اغوائه وإضلاله فكان من المخلصين، واتحدّ الشاكر والمخلص في المصداق وان

اختلفا في المفهوم. اما المنقلبون فهم الذين قال عنهم إبليس﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:﴿١٧﴾) ((وإن المقابلة بين الشاكر والمنقلب تشير إلى أن الثبات محصول الشكر وأن تثبيت كل فرد لموقعه الايماني يُعدُّ سبباً لارتقائه في درجات الشكر، ومن هنا يمكننا معرفة خطورة الشكر، وهذا الاهتمام هو الذي أدى الى التصريح بلفظ الجلالة في الآية بينما كان يمكن الاكتفاء باستعمال الضمير))[١] وكذا لم تذكر ماهية الجزاء للاشعار بعظمته وأنه يفوق التصور.

روى ابن هشام في السيرة (انتهى أنس بن النضر - عم انس بن مالك وبه سمي - إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد القوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل)[٢].

والظاهر ان الانقلاب في الآية هو الرجوع عن الدين الى الكفر وليس مجرد الفرار من المعركة كما في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٤٩﴾) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأنعام:﴿٧١﴾)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾

(١) تفسير تسنيم للجوادي الآملي: ١٥/ ٦٥٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٣٠.

(البقرة:﴿١٤٣﴾)، وقد وصفت آية أخرى هذه الحالة بأنها كانت بسبب عدم استقرار الايمان في قلوبهم عودة إلى الجاهلية تعرضوا لها بسبب وفاة أو قتل رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران:﴿١٥٤﴾).

هذا هو حال الكثير من الصحابة الذين كانوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم أحد، قال ابن هشام في بيان ما نزل من القرآن في معركة أحد بعد أن ذكر هذه الآية ((﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ رجعتم عن دينكم كفاراً كما كنتم، وتركتم جهاد عدوكم ، وكتاب الله، وما خلف نبيّه (صلى الله عليه وآله) من دينه معكم وعندكم، وقد تبيّن لكم فيما جاءكم به أعني أنه ميت ومفارقكم﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ﴾ أي يرجع عن دينه﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي ليس ينقص ذلك عز الله تعالى ولا ملكه ولا سلطانه ولا قدرته،﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي من اطاعه وعمل بأمره))[1] .

والآية وان نزلت في حادثة وقعت الا انها تتحدث عن حالة انقلابية مستقبلية أيضاً شارك فيها جمع ممن انقلب على عقبيه يوم أحُد ولم تستطع السنوات التالية من مصاحبة رسول الله (صلى الله عليه وآله) من القضاء على ادران الجاهلية في قلوبهم، فكان ما وقع يوم أحُد تدريباً وإعداداً للمسلمين لكي يتحملوا تلك الصدمة الحقيقية ويتخذوا الموقف الحازم الذي أمرهم الله تعالى به، فيحذرهم من الانقلاب على الاعقاب عند موت أو قتل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والا فان المسلمين فرّوا من المعارك

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٥١.

في مرات عديدة وان آياتٍ أخر ذكرت الفرار من دون هذه التعابير كقوله تعالى في هزيمتهم يوم حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة:٢٥).

بل يخبرهم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) اذا مات أو قتل فعلاً في الزمان الآتي فأنكم ستنقلبون على اعقابكم وترجعون عن طاعة ما أمر به ربكم، والفرق ان ما وقع يوم أحُد من بعضهم كان ارتداداً عن الدين كما صرحوا في كلماتهم اما انقلابهم عند موت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعلاً فهو في الدين وليس عن الدين والكفر به كفر بالنعمة التي أنعم الله تعالى بها بإكمال الدين بالولاية لأمير المؤمنين(عليه السلام)، واستعمال صيغة الماضي ﴿انقَلَبْتُمْ﴾ لافادة التحقق القطعي كما في الحكاية عن أحداث يوم القيامة بصيغة الماضي، وقد حذرهم النبي (صلى الله عليه وآله) من هذا الانقلاب في يوم الغدير حين أمر المسلمين ببيعته ولياً لأمورهم بعده، فقال (صلى الله عليه وآله) (معاشر الناس أنذركم اني رسول الله إليكم قد خلت من قبلي الرسل، ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ، الا وان علياً هو الموصوف بالصبر والشكر، ثم من بعده ولدي من صلبه)[1] .

(١) نور الثقلين: ١/ ٢٥٣/ ح٣٨٦، عن الاحتجاج: ١/ ١٥٠.

وقال في الحديث المشهور لدى الفريقين (ستفترق أمتي بعدي ثلاث وسبعين فرقة)[١].

وقد وقع هذا الانقلاب باتفاقهم على اقصاء من نصبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) إماماً وخليفة من بعده، وأشار أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى هذا الرجوع على الاعقاب بقوله في خطبة الوسيلة (حتى إذا دعا الله عز وجل نبيه ورفعه اليه، لم يك ذلك بعده إلا كلمحة من خفقة، أو وميض من برقة، الى أن رجعوا على الأعقاب، وانتكصوا على الأدبار، وطلبوا بالأوتار، وأظهروا الكتائب، وردموا الباب، وفلوا الديار، وغيروا آثار رسول الله، ورغبوا عن أحكامه، وبعدوا من أنواره، واستبدلوا بمستخلفه بديلا، اتخذوه وكانوا ظالمين، وزعموا أن من اختاروا من آل أبي قحافة أولى بمقام رسول الله ممن اختار رسول الله لمقامه، وأن مهاجر آل أبي قحافة خيرٌ من المهاجري الأنصاري الرباني ناموس هاشم بن عبد مناف)[٢].

وقال (عليه السلام) في حديث طويل (وليس كل من أقرَّ أيضاً من أهل القبلة بالشهادتين كان مؤمناً، ان المنافقين كانوا يشهدون ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويدفعون أهل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما عهد به من دين الله وعزائمه وبراهين نبوته إلى وصيه، ويضمرون من الكراهية لذلك والنقض لما

(١) بحار الأنوار: ٢٨/ ٤، عن الخصال: ٥٨٥، كنز العمال للمتقي الهندي: ١/ ٢١٠، الدر المنثور: ٢/ ٢٩٠، دلائل النبوة للبيهقي: ٦/ ٢٨٨.

(٢) نور الثقلين: ١/ ٢٥٢/ ح٣٨٤، عن روضة الكافي: ٨/ ٢٩، ضمن حديث٤.

أبرمه منه عند امكان الأمر لهم فيه بما قد بيّنه الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾[1].

وطبّقت السيدة الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) الآية الكريمة على فعلهم فقالت في خطبتها لما سلبوها فدكاً وانتهكوا حرمة دارها (أتقولون مات محمد (صلى الله عليه وآله) فخطب جليل استوسع وهنه واستنهر فتقه وانفتق رتقه وأظلمت الأرض لغيبته وكسفت الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته وأكدت الآمال وخشعت الجبال وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتكم وفي ممساكم ومصبحكم يهتف في أفنيتكم هتافا وصراخا وتلاوة وإلحانا ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم:﴿ وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً﴾ مطلق ينفي كل اشكال ومراتب الاضرار والتأثير، فهذا وعد من الله تعالى بأن كل اشكال الانقلابات لا تضرّ الله شيئاً لذا نرى ولاية أهل البيت (عليهم السلام) بقيت ثابتة وظل عَلَمُهم خفاقاً رغم كل الظلم والاضطهاد والقتل والتعذيب الذي انزله الطغاة بهم وبشيعتهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام : ٤٥).

---

(١) نور الثقلين: ١/ ٢٥٣/ ح٣٨٨، عن الاحتجاج: ١/ ١٠٣.

(٢) نور الثقلين: ١/ ٢٥٣/ ح٣٨٧، عن الاحتجاج: ١/ ١٠٣.

ملحق

ماذا خسرت الأمة حينما ولت أمرها من لا يستحق[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي؛ لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق؛ والحمد لله الذي جعلنا من الموفين بعهده، وميثاقه الذي واثقنا به، من ولاية ولاة أمره والقوّام بقسطه، ولم يجعلنا من الجاحدين المكذبين بيوم الدين، وصلى الله على رسوله والأئمة الميامين من آله وسلم تسليماً كثيراً.

رزية الخميس:

كانت وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) يوم الاثنين، الثامن والعشرين من صفر على ما هو المشهور[2]، فتكون رزية يوم الخميس كما سماه عبد الله بن عباس[3]، يوم الرابع والعشرين من صفر - أي في مثل يوم أمس-، وكانت رزية حقاً؛ إذ انقطع في

---

(١) محاضرة ألقاها سماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على حشد من فضلاء وطلبة الحوزة العلمية، يوم: ٢٥/ صفر/١٤٢٣هـ- المصادف: ٨/آيار/٢٠٠٢م، في مسجد الرأس الشريف، مجاور الصحن الحيدري المطهر، بمناسبة ذكرى وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٥٣٤/٢٢.- تأريخ الطبري- الطبري: ١٩٧/٢.- سيرة بن هشام- ابن هشام: ٤/ اليوم الذي قبض الله تعالى فيه نبيه الأكرم (صلى الله عليه وآله).

(٣) أنظر: بحار الأنوار- المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات- السيد شرف الدين: ٣٥٢._ وتأريخ الطبري أيضاً المجلد الثاني السنة الحادية عشر.

ذلك اليوم آخر أمل لتمسك الأمة بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الإمام والخليفة من بعده، وأعلنوا معارضتهم الصريحة والواضحة لهذا التعيين، لذلك قال (صلى الله عليه وآله) لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)[1]، وأوصى أمته بهم خيراً، ولو كان يعلم أن الأمر يؤول إليهم لما احتاج إلى الوصية بهم، وفي حديث للإمام الصادق (عليه السلام) يُعبر فيه عن ألمه العميق من تضييع الأمة لبيعة يوم الغدير ولحق أمير المؤمنين(عليه السلام) فيقول: (أحدكم يشهد له شاهدان بحق، فيأخذ بحقه، وإن جدي أمير المؤمنين(عليه السلام) شهد له يوم الغدير بحقه ستون ألفا، ولم يقدر على الأخذ بحقه)[2].

النزاع بين الخط الإلهي والخط البشري:

ولا أُريد أن أناقش أسباب هذا التضييع، وإهمال الأمة؛ لهذا الحق، الذي أخذه الله على كل المؤمنين، - فلهذه المناقشة محل آخر-، لكنني أعتقد أن أحد هذه الأسباب، والذي لا زال في ذهن الناس مما يقلّل من وعي خطورة هذا التضييع هو القصور في فهم النزاع، فقد فهموه على أنه نزاع بين شخصين، هما علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومن نازعه الأمر.

فهم لا ينكرون فضل علي (عليه السلام) وسابقته، وجهاده، وعلمه، وقربه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وشجاعته، وفناءه في الله؛ لكنهم يرون أن المُقابل أيضاً من السابقين إلى الإسلام، وثاني اثنين، إذ هما في الغار، وصهر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وبدريّ،

---

(١) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق: ٧٩- الإرشاد- الشيخ المفيد: ١/١٨٤.

(٢) نهج الإيمان- بن جبر (من أعلام القرن السابع)- تحقيق السيد أحمد الحسيني: ٥٧٧.

وأحديّ.

بل حاولوا تلفيق بعض المناقب ليساووه بأمير المؤمنين (عليه السلام)، أو يقتربوا منه (عليه السلام)، وإزاء هذه المقارنة، لم يجدوا المسألة مهمة بهذه الدرجة، ولا تستحق أن ينشق المسلمون إلى طائفتين عظيمتين، ولا جدوى في البحث فيها، فقد أكل عليها الدهر وشرب.

ولو فهموها بصورتها الصحيحة، لغيروا عقيدتهم، ولما وجدوا أي تردد في قبول المذهب الحق؛ لأن الخلاف ليس بين شخصين - وإن كان بحد ذاته دليلاً كافياً لسمو علي (عليه السلام) على غيره كسموّ الثريا على الثرى- وإنما بين مبدأين وخطين كان علي (عليه السلام) رمز الأول، ومنافسه رمز الثاني.

الخط الأول: مبدأ وخط رسمه الله تبارك وتعالى خالق السموات والأرض العالم بخفيات الأمور، وبواطن النفوس، وبما كان وسيكون، واختاره للأمة، لتصل إلى كمالها المنشود، وبلّغه رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) في يوم الغدير.

يقف في أول الخط، علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومن بعده الحسنان (عليهما السلام) سبطا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومن بعدهما الأئمة الطاهرون (عليهم السلام)، الذين أطبقت الأمة على نزاهتهم، وعلمهم، وتمثيلهم الكامل للشريعة الإلهية، ومن بعدهم العلماء العارفون، الأتقياء الصالحون، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الخط الثاني: خطٌّ يصنعه البشر، بأهوائهم، وأساليبهم الشيطانية، من قهر وإذلال، أو إغراء بالمال، أو ظلم وتعسف، أو تضليل وتمويه وادعاءات باطلة، وكان الآخر رأس هذا الخط، فقد اختارته قريش -كما يقول الخليفة الثاني-

وليس الله الذي اختاره.

ويتتابع على هذا الخط، معاوية ابن أبي سفيان، الذي يقول: (إني والله ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك. وإنما قاتلتكم، لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك، وأنتم كارهون)[1].

ومن بعده يزيد بن معاوية، شارب الخمر على منابر المسلمين، والذي أحرق الكعبة بالمنجنيق، وقتل ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)[2].

ومن بعده الآخرون، الذين سفكوا الدماء وهتكوا الأعراض ونشروا الفساد وضلّوا وأضلّوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف:٣٨).

مع الوعي في الطرح:

عندما تعرض المقارنة بهذا الشكل، ولو استوعبها الصحابة والأجيال جميعاً، بهذا الشكل، لما ترددوا في الإيمان بصحة الخط الأول، والتمسك به، على أنهم غير معذورين من أول الأمر، لأن القرآن صريح ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

(١) مقاتل الطالبيين- أبو الفرج الأصفهاني: ٤٥.

(٢) أن يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين، وأظهر الفتك، وشرب الخمر. الأغاني- أبو فرج الأصفهاني: ٣٠١/١٧.- وللمزيد أنظر: تأريخ الطبري المجلد الثالث- سيرة الأئمة- هاشم معروف الحسني: ٢. منتهى الآمال- عباس القمي: ١/الباب الخامس.- معالم المدرستين- مرتضى العسكري: ٥/يزيد في أفعاله وأقواله.

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص:٦٨)، بل إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفسه لم يكن له هذا الحق، حينما عرض عليه بنو عامر أن يسلموا مقابل أن يجعل لهم الأمر من بعده، فقال (صلى الله عليه وآله): (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)[١]، وفي رواية أخرى (ان الله تعالى اختارني وأهل بيتي عن جميع الخلق، فانتجبنا، فجعلني الرسول، وجعل علي بن أبي طالب الوصي، ثم قال: ما كان لهم الخيرة، يعني ما جعلت للعباد ان يختاروا، ولكني اختار من أشاء، فأنا وأهل بيتي صفوة الله وخيرته من خلقه)[٢].

ومحل الشاهد، أني اعتقد، أن طرح الموضوع بهذا الشكل يكون أجدى وأوضح.

ماذا خسرت الأمة؟

ولكي نزيده وضوحاً نطرح سؤالاً، وهو: ماذا خسرت الأمة، بتضييعها وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الخليفة من بعده؟؛ وماذا ترتب على هذا الإهمال من نتائج سلبية؟

وحينما أتناول هذا البحث، فإني لا أريد فقط أن أناقشها كقضية تأريخية، وإن كانت من الأهمية بمكان؛ لابتناء أصل من أصول الدين، وهو أصل الإمامة عليها.

---

(١) السيرة النبوية- ابن هشام: ٤٢٥/١، من طبعة مصطفى البابي. وفي طبعة المدني: ٢٨٩/٢.- تاريخ الطبري- الطبري: ٣٥/٢.- سير أعلام النبلاء- الذهبي: ٣٥/١.

(٢) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ٢٢٠/١.

ولكن الذي أريده، هو الاستفادة من هذا الدرس، واستخلاص العبرة؛ لأن الإمامة بالحمل الأولي، وإن كانت مختصة بالأسماء المعينة، إلا أنها بالحمل الشايع - أعني النيابة العامة عن الإمام، وولاية أمر المسلمين، المتمثلة بالمرجعية الشريفة الجامعة لشروط القيادة- مستمرة إلى أن يرث الأرض ومن عليها الإمام المنتظر(عجل الله تعالى فرجه الشريف).

فإذن يبقى باب هذه النتائج السلبية التي سنتعرض لها، بإذن الله تعالى، مفتوحاً لها كلها، أو بعضها، كلما ولت الأمة أمرها إلى من لا يستحق، فيكون من الضروري الالتفات إليها، فنعود إلى أصل السؤال:

وهو ماذا خسرت الأمة عندما ولّت أمرها غير صاحب الحق الشرعي؟

وماذا ترتّب على ذلك من نتائج سلبية؟

النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة

النتيجة الأولى: تصدي غير المؤهلين للإمامة:

فمن المعلوم أن أية رسالة، وأية آيديولوجية - بتعبير اليوم - لا بدَّ أن يكون حاملها مستوعباً لها بشكل كامل، فهماً وتطبيقاً، بحيث تكون هذه العقيدة، هي الموجهة له في كل سلوكه، وتصرفاته، وأفكاره، وعلاقاته، ولم يكن القوم كذلك، وإنما هم أناس عاديون، كبقية أفراد المجتمع، ويوجد كثير غيرهم ممن استوعب الرسالة وجسَّدها في حياته خيراً منهم.

وقد كانوا يعترضون على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حياته ويتمردون على أوامره[١]، حتى آخر حياته؛ بتخلفهم عن جيش أسامة[٢]، وعدم تلبية أمره (صلى الله عليه وآله) حينما طلب قرطاساً في رزية يوم الخميس[٣].

وكانت الجاهلية تعيش في نفوسهم، حيث قضوا أكثر أعمارهم فيها، وقد كشف عن عدم أهليتهم، جهلهم، وتخبّطهم في الأمور، ويصف أمير المؤمنين إمرتهم المنحرفة في الخطبة الشقشقية: (فَيَا عَجَبا بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا[٤]، فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدِّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا[٥]! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ

---

(١) أنظر: بحار الأنوار - المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات - السيد شرف الدين: ٣٥٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج٤/ أمر الرسول بإيفاد بعث أسامة.

(٣) أنظر: الطبقات الكبرى - ابن سعد: ٢٤٢/٢. بحار الأنوار - المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات - السيد شرف الدين: ٣٥٢_ وتأريخ الطبري أيضاً ج١٢/ السنة الحادية عشر.

(٤) يَسْتَقِيلها: يطلب إعفاءه منها.

(٥) تشطرا ضرعيها: اقتسماه فأخذ كلّ منهما شطراً، والضرع للناقة كالثدي للمرأة.

كُلاَمُهَا[١]، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا. وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ[٢]، فِيهَا. وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا. فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ[٣]، إِنْ أَشْنَقَ[٤]، لَهَا خَرَمَ. وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ[٥]، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللّهِ بِخَبْطٍ[٦]، وَشِمَاسٍ[٧]، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ[٨])[٩].

حتى قال الثاني: (كل الناس أفقه من عمر، حتى ربات الحجال)[١٠]، بعد أن نهى عن زيادة المهر عن حد معين، فأجابته امرأة: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (النساء:٢٠).

وقد أشكلت عليهم الكثير من المسائل، حتى الاعتيادية منها[١١]، التي كانت تتكرر في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) كالصلاة على الجنائز، ولما سئل الثاني عن

---

(١) كَلْمُها: جرحها، كأنه يقول: خشونتها تجرح جرحاً غليظاً.

(٢) العِثار: السقوط والكَبْوَةُ.

(٣) الصّعْبة من الابل: ما ليستْ بِذَلُول.

(٤) أشْنَقَ البعير وشنقه: كفه بزمامه حتى ألصق ذِفْرَاه (العظم الناتىء خلف الاذن) بقادمة الرحل.

(٥) تَقَحّمَ: رمى بنفسه في القحمة أي الهلكة.

(٦) خَبْط: سير على غير هدى.

(٧) الشِّماس ـ بالكسر ـ: إباء ظَهْر الفرس عن الركوب.

(٨) الاعتراض: السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عَرْضاً في حال سيره طولاً.

(٩) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ١٥١/١.

(١٠) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ١٨٢/١.

(١١) أنساب الأشراف- البلاذري: ١٠٠/١.- الفتح الرباني- الإمام الشوكاني: ٨٠٠/٨.

سبب قلة استفادتهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ألهانا الصَّفْقُ بالأسواق)[١]، وكانوا يشككون حتى بنبوة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعصمته، فيقول له أحدهم وجهاً لوجه: (أنت الذي تزعم أنك رسول الله)[٢]، أو يقولون عنه: (إن الرجل ليهجر)[٣].

الإعداد النبوي للخليفة الحق:

في مقابل ذلك كان هناك شخص، يعدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إعداداً خاصاً، لكي يتسلم هذا الموقع، ذاك هو علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فاستمع إليه يتحدث عن هذه التربية الخاصة: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ).. إلى أن قال(عليه السلام): (وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله)، وَخَدِيجَةَ، وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ، حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (صلى الله عليه وآله)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ

(١) كنز العمال- المتقي الهندي: ٥٦٩/٢.- إتحاف المهرة- ابن حجر العسقلاني: ٣٢٢/١٢.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٢٥٤.- مسند أبي يعلى- أبو يعلى الموصلي: ٢٢٩/١٢.

(٣) الطبقات الكبرى- ابن سعد: ٢٤٢/٢.- صحيح البخاري- البخاري: ٣٤/١/ح ١١٤.

بِنَبِيٍّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلى خَيْرٍ)[١].

وفي نهاية خطبة مماثلة أخرى يسأل(عليه السلام) مستنكراً: (فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنّي، حَيّاً وَمَيِّتاً؟)[٢].

آثار خطيرة:

هكذا كان يتم تهيئة الإمامة البديلة، أما هؤلاء، فلم يتلقوا شيئاً من ذلك، لذا فقد أفرز تصدي هؤلاء غير المؤهلين عدة آثار خطيرة:

١- **تشوّه صورة الإسلام نفسه**؛ لأن كثيراً من الأمم والشعوب دخلت الإسلام بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فهي لم تأخذه من مصدره، وإنما نقل لها عبر كلام وسلوك أصحابه، ولما كان هؤلاء غير مؤهلين لتمثيل الإسلام بصورته النقية الكاملة، ولم يعرف المسلمون الجدد غير هذه الصورة المعروضة أمامهم فَتَبنّوها على أنها الإسلام الحقيقي، وتزايد هذا البعد عن الإسلام بمرور الزمن، حتى صرتَ ترى أقواماً لا تفقه من الإسلام شيئاً غير الاسم وبعض الشكليّات.

٢- **تجرّي أعداء الإسلام خصوصاً اليهود عليه**، وما كانوا يستطيعون أن يظهروا شيئاً منه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لعدم وجود ثغرة يمكن أن يدخلوا منها، أما وقد تصدّى لهذا الموقع العظيم ناس غير مؤهلين لهذا الموقع، ويمكن التغلب عليهم وإحراجهم، فمن السهولة إذن هزّ ثقة المسلمين بدينهم، بتكرر

---

(١) نهج البلاغة- الشيخ محمد عبده: ٢/ ١٥٧.

(٢) نهج البلاغة- الشيخ محمد عبده: ٢/ ١٧١.

الفشل من قادتهم.

وبالنتيجة تخليهم عن هذا الدين، فلم يكن من الغريب حصول هذه الهجمة العنيفة من الامتحانات العسيرة والمتنوعة، التي أحرج بها اليهود الخليفة الاول، والثاني، وتزعزعت ثقة المسلمين، وشعروا بالإحباط، وكادوا يرتدون لولا وجود أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمرصاد، الذي كان يجيبهم على كل أسئلتهم ويردّ كيدهم إلى نحورهم[1].

٣- **انفتاح باب الطمع بهذا المنصب الشريف، لكلّ محبي الرئاسات، والجاه، واتباع الهوى**، بعد أن أصبح نيله ليس بالاستحقاق، وفق معايير الرسالة، وإنما هو لمن غلب وقهر، ولو بالسيف، حتى أصبح مستساغاً أن يولي معاوية ابنه يزيد، المعروف بالفسق، والفجور، على رقاب المسلمين.

النتيجة الثانية: فتح باب الاجتهاد مقابل النص:

أي الحكم والتشريع بالآراء الشخصية، خلافاً للنص الإلهي الحكيم، وهو يعني أن الإنسان يُنصّب نفسه مشرعاً، وإلهاً، يُطاع في مقابل ألوهيّة الله تبارك وتعالى، الذي هو وحده له حق التشريع والحاكمية، وهو ما رفضه الله تبارك وتعالى، رفضاً قاطعاً، وجعل كل حكم وتشريع ليس مستنداً إلى الشريعة المقدسة، جاهلية، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وفي آية أخرى ﴿الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، وفي ثالثة

(١) أنساب الأشراف- البلاذري: ١/ ١٠٠.- الفتح الرباني- الإمام الشوكاني: ٨/ ٨٠٠- الغدير- الاميني: ٧/ ١٧٧.

﴿الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧).

وكان من شروط الإيمان الكامل: التسليم، والإذعان، لحكم الله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)، لكن القوم فتحوا باب الاجتهاد واسعاً، ولم يكترثوا كثيراً للنص الشرعي لعدة أسباب:

١- **جهلهم، وعدم اطلاعهم الكامل على أحكام الشريعة**، فراحوا يستنبطون من أنفسهم، ما يسدّ نقصهم.

٢- **لأجل المحافظة على الأغراض، والمصالح** التي أرادوها، فلا بد من تعطيل النصوص، التي تتعارض مع المنهج الذي اختطوه، وتبرير الأفعال المخالفة بصراحة لحكم الله تبارك وتعالى.

٣- **تغييب الممثل الحقيقي واللسان الناطق بالشريعة.**

وقد عطل هذا الاجتهاد الكثير من التشريعات، التي كانت مصدر خير للأمة، ومنها الزواج المؤقت، الذي قال عنه أمير المؤمنين (عليه السلام): (لولا نهي فلان عن المتعة، ما زنى إلا شقي)[١].

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٥/ ٤٤٨.

وبالمقابل برّر هذا الاجتهاد أشنع المنكرات، فمثل مالك بن نويرة[١] الذي شهد له رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالجنة يُقتل، ويدخل خالد بزوجته في نفس الليلة، ويأتي جواب الخلافة ببرود: (تأوّل خالد فأخطأ)[٢].

ويخرجون لقتال إمام زمانهم بكل المقاييس التي عندهم في معارك طاحنة في الجمل، وصفين[٣]، وكله اجتهاد يؤجرون عليه وإن أخطأوا فلهم أجر واحد.

وقد تأصل هذا الاجتهاد فيما بعد، وتعمق، ووضعوا له أصولاً وقوانين، وأصبحت مذاهب في مقابل مذهب الحق.

النتيجة الثالثة: عرقلة تربية الأمة وتكاملها:

فقد شاءت الإرادة الإلهية، أن تنقذ البشرية بهذه الرسالة المباركة من حضيض الجاهلية النكدة، إلى سمو التوحيد، وطهارة الإيمان، وسعادة الدارين، وقد قُدر لهذه المسيرة أن تتكامل، لتنشأ أمة، متكاملة، على يد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والأئمة المعصومين من آله، لكن إبعاد الأئمة (عليهم السلام)، عن موقع قيادة المجتمع،

---

(١) مالك بن نويرة، الحنفي، اليربوعي، من أرادف الملوك، ومن شجعان عصره، وفصحائهم، وكان من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومن خُلّص أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)، انتظر بقومه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى أن يتبين موقف أمير المؤمنين عليه السلام فأرسل أبو بكر إليهم خالد بن الوليد فغدر بهم وقت الصلاة وأمر بقتل مالك حين رأى جمال امرأته. الكنى والألقاب- الشيخ عباس القمي: ١/ ٤٢.

(٢) الطبقات الكبرى، متمم الصحابة، الطبقة الرابعة- ابن سعد: ٥٣٥.- أسد الغابة- ابن الأثير: ٢/ ٩٥.- البداية والنهاية- ابن كثير: ٦/ ٣٥٤.

(٣) الفصول المهمة في معرفة الأئمة- ابن الصباغ: ١/ ٣٤٨.- تاريخ الطبري- الطبري: ٣/ ٥٤٣.- الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٣/ ٢٧٦.

أدى إلى عرقلة هذه المسيرة، وبطئها، من عدة جهات:

١- **إن من العناصر المهمة في التربية، هو القدوة، والأسوة الحسنة، على تعبير القرآن**؛ لأنه يُمثل التطبيق للأفكار التربوية، فإذا غاب القدوة، أو كان القدوة منحرفاً، فلا ينفع الكلام مهما كثر، ويبقى مجرد حبر على ورق.

والقوم لم يكونوا يمثلون قدوة حسنة، ولم يستطيعوا عكس صورة نقية للسلوك الإسلامي، بل إنه على مرور الأيام كان النموذج المعروض مناقضاً تماماً لتعاليم الإسلام، فكيف نتوقع منه أن يربي الأمة ويقودها نحو التكامل؟

ففي حين يقرأ المسلم في أخلاق الإسلام (وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى)[١]، يجد في التعامل تفضيل العرب على غيرهم، الذين يسمونهم الموالي، ويعتبرونهم مواطنين من الدرجة الثانية، وبينما يقرأ في القرآن ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣)، يجد الخلافة تُلاحق أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، تحت كل حجر ومدر، قتلاً، وتشريداً، وسجناً، وبينما يقرأ حرمة شرب الخمر في القرآن، يجد حاكم المسلمين يشربه على منابر المسلمين، ويتقيأه في محرابهم[٢].

٢- **فرص الانحراف الكثيرة التي توفرت للناس في ظل الخلافة المنحرفة**، والنفس بطبيعتها ميالة للشهوات، مع غياب الرادع الذي يحصّن الأمة

---

(١) مسند احمد- احمد بن حنبل: ٥/ ٤١١.- تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٣٤.

(٢) صحيح مسلم - مسلم النيسابوري: ٣/ ٣٣١/ ح٣٨.- الفتوح- ابن أعثم الكوفي: ٥/ ١٢.

من الانحراف، وهم الذين عناهم الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران:١٠٤).

وقد بدأت هذه النفوس الأمارة بالسوء تظهر في أيام الخلافة الأولى، في وقت مبكر، وبدأت الدنيا تنمو في قلوبهم، وأصبحت هذه الامتيازات، والمصالح، واقعاً ثابتاً، لا يرضون بتغييره، بحيث أن عبد الرحمن بن عوف، الذي جُعل حكماً في أمر تعيين الخليفة، من بين الستة أهل الشورى، يشترط على عليٍّ (عليه السلام) أن يبايعه بشرط، أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله)، وسيرة الشيخين[1].

فما هي: سيرة الشيخين التي يضمّها عبد الرحمن إلى كتاب الله، وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله)؟

إنها: هذه الامتيازات الطبقيّة، وهذه الدنيا المحضة، التي وفرتها لهم الخلافة الأولى، بحيث أن عبد الرحمن[2]، هذا وأمثاله، كزيد بن ثابت[3] وغيرهم، تركوا من الذهب ما يُكسّر بالفؤوس - حسب ما ينقل التأريخ- ولم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ليوافق على هذا الشرط، فيكون منه إمضاءً، واعترافاً، بهذه السيرة؛ لأن

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣١/ ٣٩٩.

(٢) في الطبقات الكبرى: (إنّ عبد الرحمن بن عوف تُوفّي، وكان فيما ترك ذهبٌ؛ قُطّع بالفؤوس حتى مَجِلَت - أي ثخُن جلدُها وظهر فيها ما يشبه البَثَر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة- أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة، فأُخرجت امرأة من ثُمنها بثمانين ألفاً). الطبقات الكبرى- ابن سعد: ٣/ ١٣٦.- أُسد الغابة- ابن الأثير: ٣/ ٤٨٠.- البداية والنهاية- ابن كثير: ٧/ ١٦٤.

(٣) قال المسعودي: (خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال، والضياع، بقيمة مائة ألف دينار). مروج الذهب:١/ ٤٣٤.- الغدير- الأميني: ٨/ ٢٨٤.

هذه السيرة، إن كانت موافقة للكتاب والسنة، فلا داعي لذكرها، وإن كانت مخالفة، فارمِ بها عرض الجدار، فما الوجه لضمِّها إلى أصلَي التشريع.

٣- الصورة المشوهة للشريعة، التي كانت معروضة للأمة، من خلال العلماء، والرواة، المتزلفين للخلفاء، والطامعين بما في أيديهم، فكيف نتوقع من شخص لم يشاهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولم يطّلع على مواقف علي (عليه السلام) مباشرة، أن يوالي علياً، ويتبعه، وهو يسمع صحابيّاً يروي، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إن الآية الشريفة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة:٢٠٥) نزلت في عليّ بن أبي طالب)[1].

فلا نتوقع من أغلب المسلمين في الأرض، إلا أن يحملوا هذه الصورة المشوهة للإسلام، لأنهم لم يسمعوا غيرها، ولم يشاهدوا غيرها، فكان طبيعياً أن يعتقدوا جازمين، أن هذا هو الإسلام.

---

(١) (أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مئة ألف درهم حتى يضع حديثا في أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ ﴿البقرة:٢٠٤-٢٠٥﴾، إنها نزلت في عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وأن الآية الثانية، نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ ﴿البقرة:٢٠٧﴾، فلم يقبل، فبذل له مئتيّ ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمئة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمئة ألف فقبل، وروى ذلك). شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ٤/ ٧٣.

ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية، أن تُغيّب الإمام الثاني عشر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) هذه المدة الطويلة، إلى أن يأذن الله تعالى له بالظهور، كل ذلك لتستمر تربية الأمة مدة أطول، ولتمر بتجارب، وابتلاءات، وتمحيصات أكثر، حتى تصل إلى مستوى النضج، والكمال المطلوب، الذي يؤهلها لمواصلة مسيرة الكمال مع الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، بينما لو قُدّر لهذه الأمة أن تتربى في أحضان الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، لوصلت إلى درجة الكمال قبل هذا التأريخ بكثير.

النتيجة الرابعة: تمزق الأمة وتشتتها:

وتفرقها شيعاً، وأحزاباً، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣٢)، وهذه نتيجة طبيعية، للابتعاد عن الإمامة الحقيقيّة؛ لأن سر تشريع الإمامة، هو تحصين الأمة، من التمزق، والانحراف، كما قالت الزهراء (عليها السلام) في خطبتها الشهيرة بعد وفاة أبيها (صلى الله عليه وآله): (وَجَعَلَ إمَامَتَنَا نِظَاماً للمِلَّةِ)[1]، أي تنتظم بها أمورهم وتستقر، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) ﴿ولا تَنَازَعوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦)، وحبل الله الممّدود من السماء إلى الأرض، هما الثقلان، كتاب الله، وعترة رسوله (صلى الله عليه وآله) - كما بينتُ في شكوى القرآن[2] - مضافاً إلى أن هذا الموقع، بعد أن خرج عن مستقره، وأُبعد عنه أهله، أصبح مطمعاً لكل حالم به.

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٦/ ٣١٥.

(٢) أنظر: محلق القبس/١٠٩ ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا﴾ ﴿الفرقان:٣٠﴾ من نور القرآن: ٣/ ٢٨٤.

وشهوة التسلط أقوى الشهوات، وفيها استجابة للأنانية، واستكبار النفس، فمن الطبيعي أيضاً، أن تكثر الصراعات حول هذا المنصب، وتداس في خضم هذا الصراع كل القيم والأخلاق.

وتكفي وقفة تأمل، واستطلاع بسيط للتأريخ، لنقرأ بكل أسف، وألم يفتت القلوب، المآسي التي جرَّها التنازع على السلطان، والخسائر الفادحة في الأنفس، والأعراض، والأموال، التي هدرت في هذا الصراع، فمن الذي يتحمل هذه المسؤولية؟

ومن الذي فتح هذا الباب على المسلمين؟

وماذا يجني من يُحدث هذا الفتق في أمة الإسلام؟

وخير معبر عن هذه الآلام، وهذه الخسائر، أحد الأدعية الواردة في لعن، أعداء آل محمد (صلى الله عليه وآله) والبراءة منهم، إلى أن يقول: (اللهُمَّ اِلْعَنْهُمْ بِعَدَدِ كُلِّ مُنْكَرٍ أَتَوْه، وَحَقٍّ أَخْفَوْه، وَمَنْبَرٍ عَلَوْهُ، ومُنافِقٍ وَلَّوْه، وَمُؤْمِنٍ أَرْجوه، وَوَلِيٍّ آذَوْه، وَطَرِيدٍ آوَوْه، وصادِقٍ طَرَدوه، وكافِرٍ نَصَروه، وَإِمامٍ قَهَروه، وفَرْضٍ غَيَّروه، وَأَثَرٍ أَنْكَروه، وَشَرٍّ آثَروه، وَدَمٍّ أَراقوه، وَخَبَرٍ بَدَّلوه، وَحُكْمٍ قَلَّبوه، وَكُفْرٍ أَبْدَعوه، وَكَذَبٍ دَلَّسوه، وَإِرْثٍ غَصَبوه، وَفَيْءٍ اقْتَطَعوه، وَسُحْتٍ أَكَلوه، وَخُمْسٍ اسْتَحَلُّوه، وَباطِلٍ أَسَّسوه، وَجوْرٍ بَسَطوه، وظُلْمٍ نَشَروه، وَوَعْدٍ أَخْلَفوه، وَعَهْدٍ نَقَضوه، وَحَلالٍ حَرَّموه، وَحَرامٍ حَلَّلُوه، وَنِفاقٍ أَسَرُّوه، وَغَدْرٍ أَضْمَروه، وَبَطْنٍ فَتَقوه، وَضِلْعٍ كَسَروه، وَصَكٍّ مَزَّقُوه، وَشَمْلٍ بَدَّدُوه، وَذَليلٍ أَعَزوه، وَعَزيزٍ أَذَلُّوه، وَحَقٍّ مَنَعوه، وإمامٍ خالَفوه، اللهُمَّ الْعَنْهُما، بِكُلِّ آيَةٍ حَرَّفوها، وَفَريضَةٍ تَرَكوها، وَسُنَّةٍ غَيَّروها، وَأَحْكامٍ

عَطَّلوها، وَأَرْحامٍ قَطَعوها، وَشَهاداتٍ كَتَموها، وَوَصِيَّةٍ ضَيَّعوها)[١].

ولو شئنا لذكرنا أمثلة، وشواهد، على كل فقرة، لكنها مما لا تخفى على المطلع على التأريخ، فأي قلب لا يذوب أسىً، على ما سببه ذلك التضييع للحق الصريح؟!.

النتيجة الخامسة: عزل الدين عن إدارة الحياة بكل أبعادها وتفاصيلها:

واقتصاره على الطقوس التعبدية، والشؤون الفردية فقط، فإن القوم وإن استطاعوا بالترغيب والترهيب أن يسلبوا السلطة الدنيوية من الإمام (عليه السلام)، إلا إنهم لا يستطيعون بأي حال من الأحوال أن يسلبوا مكانته من القلوب، وهيبته في النفوس، ورجوع الناس إليه في شؤونهم الدينية.

هذا الانفصال الذي عبر عنه هارون الرشيد - كما يسمونه- لولده المأمون حينما استغرب من تكريمه للإمام الكاظم(عليه السلام) بما لا نظير له، فقال: (هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده فقلت: يا أمير المؤمنين أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟! فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) مني، ومن الخلق جميعاً، ووالله لو نازعتني هذا الامر، لاخذت الذي فيه عيّناك، فان الملك عقيم)[٢].

والإمام وإن سكت عن المطالبة بحقه في السلطة الدنيوية، من أجل حفظ

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٨٢/ ٢٦٠.- المصباح- الكفعمي: ٥٥٢.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي: ٤٨/ ١٣١.

الإسلام، وكيان المسلمين، إلا أنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال التنازل لهم عن الإمامة الدينية، أو الاعتراف بهم، وإمضاؤهم كممثلين لهذه السلطة، فإن في ذلك خيانة لله ولرسوله وللإسلام، على أن هذا الحق لا يتصور التنازل عنه، فإنه ليس امتيازاً أو موقعاً حتى يتخلى عنه، بل هو علم لدنّي بالمعارف الإلهية، وما يرتبط بصلاح العباد، وقدرة وقابلية على تلبية احتياجات الأمة.

فكل من كان قادراً على ذلك ووجدت الأمة حاجتها، وآمالها، وطموحاتها عنده، أصبح إماماً، وهكذا كان علي (عليه السلام)، فما سمعنا انه احتاج إلى أحد في شيء، بل على العكس كانوا يرجعون إليه، في مسائلهم ومشاكلهم وقراراتهم، حتى اشتهر قول الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)[1]، ولذا استدل بعضهم على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) باحتياج الناس إليه واستغنائه عن الناس[2].

وهذا الفصل بين السلطتيّن ترسخ وتعمق، وانعكس على الدين نفسه، فأصبح مرتكزاً في الأذهان، أن إدارة شؤون الحياة ليس من شؤون الإمامة الدينية، وأن دورها يقتصر على العبادات وبعض الأحكام الشخصية، والتقوا بذلك مع نظرة

---

(١) انساب الأشراف- البلاذري: ١٠٠.- مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ١/ ٣١١.- الفتح الرباني- الإمام الشوكاني: ٨/ ٨٠٠.

(٢) نسب الاستدلال إلى الخليل الفراهيدي (رحمه الله). أنظر: الأعلام من الصحابة والتابعين- حسين الشاكري: ٨/ ٦. وقريب من ذلك ما رويَّ عن الحارث بن المغيرة قال: (قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): بأي شيء يُعرف الإمام؟ قال بالسكينة والوقار،... وتعرفه بالحلال والحرام، وبحاجة الناس إليه، ولا يحتاج إلى أحد) كتاب الغيبة- النعماني: ١/ ٢٤٧.

الجاهلية، ومع مقولة: (ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)[١]، وهذا هو الشرك بعينه، فإن الملك كله لله وحده، والحكم كله لله وحده، وما من واقعة إلا ولله فيها حكم[٢].

أترى أن الشريعة التي لم تغفل عن تنظيم أبسط التصرفات الحياتية، كالتخلي، والنوم، والاكل، والجماع، ووضعت لها أحكاماً، وآداباً، فهل تغفل عن وضع أنظمة، وقوانين، تنظم حياة المجتمع من جميع الجهات؟ وهذه حقيقة دامغة لا تقبل الشك، إلا أنهم لا يذعنون لها لعدة أمور:

١- إن الشريعة لا تنسجم مع أهوائهم، وأنانيتهم، وحبهم للاستئثار بالفيء، وسائر الامتيازات، وتتعامل مع الجميع على حد سواء.

٢- إن تحكيم الشريعة فيه إظهار لجهلهم، وقصورهم، وتقصيرهم، وهو ما تأباه نفوسهم الأمارة بالسوء.

٣- إن ذلك أيضاً، يعني احتياجهم للإمامة الدينيّة، وبالتالي يعني تفوق أولئك عليهم، واستحقاقهم لهذا الموقع بدلاً عنهم.

النتيجة السادسة: حدوث الانفصال بين الأمة والخلافة:

لأن الأمر لم يعد في نظر المتصدين، أمر إصلاح، وهداية، وتكميل النفوس، ونيل رضا الله تبارك وتعالى، حتى تتعلق بهم الأمة، وتهفو إليهم القلوب، بل زعامة، وملك، ومصالح، واستئثار، واستعلاء، وقد عبر عنه القوم من أول يوم، وهم

---

(١) نص (إنجيل برنابا)- سيف الله أحمد فاضل: ٧٦.

(٢) أنظر: جامع أحاديث الشيعة- السيد البروجردي: ١/ ١٣٤.

بعد في السقيفة فكان لسانهم: إنما السلطان سلطان قريش فلا ينازعنا فيه أحد[١]، وكانت المسألة أوضح بالنسبة للأقوام الأخرى، التي دخلت الإسلام، وقد أشعروهم بأن الخلافة ملك للعرب، فإذا كانت ملكاً عضوضاً، وهم المستفيدون منها، فما الذي يشد سائر قطاعات الأمة إليهم؟

وما الذي يحثهم على الدفاع عنهم؟ وما هي العلقة التي تربطهم بهم؟

بل على العكس، سادت روح الكراهية، والحقد، والانتقام، كما حصل لأبي لؤلؤة الفارسي، غلام المغيرة بن شعبة، الذي سأم من كثرة التعيير لقومه الفرس، والاستهزاء بهم، فثار لعنصريته ولعصبيته الجاهلية[٢].

بالمقابل كان هناك علي بن أبي طالب (عليه السلام):

كان علي (عليه السلام) وبنوه (عليهم السلام) قد ملكوا القلوب، فاستجاب الله تعالى بهم دعوة جدهم إبراهيم ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم:٣٧)، والذي لم تستطع الخلافة بكل جبروتها، أن تنتزعه منهم، وقضية هشام بن عبد الملك، واضحة في أذهانكم، عندما عجز عن الوصول إلى الحجر؛ لازدحام الناس، فتنحى إلى زاوية في البيت الحرام، وما أن قدم الإمام السجاد (عليه السلام) حتى انفرج عنه الناس سماطين، فمشى بكل وقار وهيبة، حتى وصل إلى الحجر

(١) أنظر: الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٢/ ٣٢٩.- خلاصة عبقات الأنوار- حامد النقوي: ٣/ ٣٠٠.

(٢) أنظر: البداية والنهاية- ابن كثير: ٧/ ١٢٧.- تاريخ الطبري- الطبري: ٣/ ٢٢١.

الأسود، وهشام ينظر[١].

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) رغم تواضعه بين أصحابه، حتى كأنه أحدهم، إلا أن له هيبة، عظيمة، في نفوسهم، كما وصفه ضرار بن ضمرة لمعاوية[٢].

وذاب أصحابهم في حبهم، قربة إلى الله تعالى، ووفاء لجدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعرفاناً لحقهم عليهم، وتحملوا في سبيل ذلك ما تقشعر منه الأبدان، فهذا ميثم بن يحيى التمار تُقطع يداه، ورجلاه، ويُصلب على جذع نخلة، فيَطلب من الناس الاجتماع، حتى يحدثهم بفضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلم يمهله

---

(١) (أن هشام بن عبد الملك حج في بعض السنين فطاف حول البيت وحاول أن يلمس الحجر الأسود فلم يجد لذلك سبيلاً من كثرة الزحام.. وفي ما هو ينظر إلى الناس إذ أقبل الإمام زين العابدين وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً.. فانفرج له الناس عنه ووقفوا له إجلالاً وتعظيماً حتى إذا استلم الحجر وقبله والناس وُقّفٌ ينظرون إليه وكأنما على رؤوسهم الطير فلما مضى عنه عادوا إلى طوافهم، هذا وهشام بن عبد الملك ومن معه من أهل الشام يرون كل ذلك ونفس هشام يعبث فيها الحقد والحسد.، وفي هذه الحادثة قال: الفرزدق أبياته المشهورة والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... هـذا ابن خيرِ عادِ اللهِ كلهمُ

والبيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرمُ ... هذا التقي النقي الطاهر العلمُ

أنظر: اختيار معرفة الرجال– الطوسي: ١٢١.– الإختصاص– الشيخ المفيد: ١٩١. والإرشاد: ٢/ ١٥٠.– المناقب– ابن شهرآشوب: ٤/ ١٦٩.– الأغاني– أبو الفرج الأصفهاني: ١٥/ ٢١٧.

(٢) نقل الرواة عن ضرار بن ضمرة، أنه دخل على معاوية يوماً، (فقال له: يا ضرار صف لي علياً، فقال له: اعفني يا معاوية، فقال له: لا أعفيك، فقال له ضرار: أما إذا كان ولا بد من ذلك، فقد كان والله بعيد المدى شديد القوى... إلى أن قال: ونحن والله مع قربه منا ودنوه إلينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا...). بحار الأنوار– المجلسي: ٣٣/ ٢٧٥.

الفسقة، حتى قطعوا لسانه[١].

وهذا حجر بن عدي، يُؤخذ مقيّداً إلى الشام، ويحفر له القبر، ويفرش له النطع، ويُؤمر بسب أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإلا فالقتل، ومعه ابنه، فيختار ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، ويُقدّم ابنه، ليحتسبه عند الله تبارك وتعالى، ولئلا يعظم على الابن قتل أبيه فيتراجع، ثم قُدّم فقُتل صابراً محتسباً[٢].

---

(١) إن عبيد الله بن زياد قال لميثم التمار بعد أن قبض عليه: تبرأ من علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقال له: فإن أنا لم افعل؟ قال: إذن والله لأقتلك، قال: لقد أخبرني مولاي أنك ستقتلني مع تسعة أخر على باب عمرو بن حريث، قال ابن زياد: لنخالفنه كي يظهر كذبه، قال ميثم: كيف تخالفه، فوالله ما أخبر إلا عن النبي (صلى الله عليه وآله)، عن جبرئيل، عن الله تعالى، فكيف تخالف هؤلاء؟ ولقد عرفتُ الموضع الذي أصلب فيه وأين هو من الكوفة وأنا أول خلق الله أُلجم في الإسلام، فلما رُفع على الخشبة، اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث، قال عمرو: قد كان والله يقول: إني مجاورك، فأمر جاريته بكنس تحت خشبته ورشه وتجميره، فجعل ميثم يحدث بفضائل أهل البيت (عليهم السلام)، ومثالب بني أمية وما سيصيبهم من القتل والانقراض، فقيل لابن زياد قد فضحكم هذا العبد، فقال: ألجموه، فألجموه كي لا يتكلم، فجاءه في اليوم الثالث، لعين بيده حربتين، وهو يقول: أما والله لقد كنت ما علمتك إلا قوّاماً صوّاماً، ثم طعنه في خاصرته فأجافه- أي حصل جوف في خاصرته من الطعنة- ثم انبعث منخراه دماً في آخر النهار فخضب لحيته بالدماء واستشهد قبل قدوم الإمام الحسين (عليه السلام) إلى العراق بعشرة أيام. بحار الأنوار- المجلسي: ٤٢/ ١٢٤.

(٢) حجر بن عدي الكندي الكوفي من أصحاب أمير المؤمنين ومن الإبدال كان أميراً على بني كنده من قبل أمير المؤمنين عليه السلام في معركة صفين وكان أمير الجيش يوم النهروان، وقد استشهد حجر وجمع من أصحابه بسعاية زياد بن أبيه وبحكم معاوية بن أبي سفيان سنة إحدى وخمسين للهجرة.

وهذا عمار بن ياسر[١]، يقاتل في صفين على كبر سنه، ويقول: (والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل)[٢].

وأصحاب الحسين (عليه السلام) - وما أدراك ما أصحاب الحسين (عليه السلام)-، الذين لم يُر لهم نظير في الولاء، والصدق، والإخلاص، والتضحية، يُقدم أحدهم على الموت، وهو مبتسم، فيقال له: ما عهدناك هازلاً قبل اليوم، قال: (والله لقد علم قومي اني ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا ولكن والله اني لمستبشر بما نحن لاقون والله ان بيننا وبين الحور العين الا ان يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت انهم قد مالوا علينا بأسيافهم)[٣].

---

(١) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوذيم ابن ثعلبة بن عوف بن حارثة بن عامر الأكبر، يرجع نسبه الى يعرب بن قحطان، ويكنى أبا اليقظان: تقدم إسلامه ورسول الله (صلى الله عليه وآله) بمكة، وهو معدود في السابقين الأولين من المهاجرين، وممن عُذب في الله بمكة. أسلم هو وأبوه وأمه سمية، وهي أول شهيدة في الإسلام، طعنها أبو جهل بحربة في قبلها فقتلها، ومر النبي (صلى الله عليه وآله) وهم يعذبون. فقال: (اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة). وشهد عمار مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بدراً، وأحداً، والخندق، ومشاهده كلها، ونزل فيه آيات من القرآن. شهد عمار صفين وهو ابن تسعين سنة، وأنه يوم صفين أتى بلبن فشربه ثم قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لي: (هذه آخر شربة تشربها من الدنيا). ثم تقدم فقاتل حتى قتل "من قبل جيش معاوية بصفين وكان" مع علي بن أبي طالب سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث وتسعين سنة ودفن هناك. تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي: ١٦١/١.

(٢) الاختصاص- الشيخ المفيد: ١٤.

(٣) وهو برير بن خضير الهمداني: كان زاهداً عابداً سيد القراء ومن أشراف الكوفة. أنظر: مقتل الحسين (عليه السلام)- أبو مخنف: ١١٥.- أعيان الشيعة- السيد محسن الأمين: ٣/ ٥٦١.

النتيجة السابعة: تأخر ركب الحضارة الإنسانية:

بحيث احتجنا إلى أربعة عشر قرناً، لكي نصنع الطائرة، والكومبيوتر، ونغزو الفضاء، وكان يمكن لهذه الأمور، وغيرها مما لم يصل إليه العقل الإنساني إلى الآن، أن تتحقق قبل مدة طويلة؛ لأن اليد الإلهية واضحة التأثير في قيادة ركب الحضارة البشرية، بفضل ما بثه الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) من علوم، أو من خلال الإلهام والإيحاء، ولولا الرعاية الإلهية لما استطاع الإنسان أن يهتدي إلى أبسط الأمور، حتى دفن موتاه في التراب لا يعرفه، حتى بعث الله له غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه[1].

وإن القرآن الكريم ليضم أسرار ومفاتيح العلوم كلها، فيه ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩)، فيشير إلى غزو الفضاء بالوسائل العلمية، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إلا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن:٣٣)، وهو سلطان العلم، والتكنولوجيا، كل هذه الأسرار، ومفاتيح العلوم، كانت عند أمير المؤمنين (عليه السلام)[2] علّمه إياه رسول الله

---

(١) إشارة إلى قصة ابني آدم (عليه السلام)، هابيل وقابيل، وذلك عندما قتل قابيل هابيل، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ ﴿المائدة:٣٠-٣١﴾.

(٢) وإن شئت الاطلاع على ما كان يمكن أن يقدمه، علي وبنوه (عليهم السلام) ليقدموا ركب الحضارة الإنسانية، وليوفروا لها السعادة، والحياة الطيبة، فراجع عدة كتب ألفت في هذا المجال، أنظر: مثلاً

(صلى الله عليه وآله) (فحدثني بألف حديث يفتح كل حديث ألف حديث، حتى عرقت وعرق رسول الله (صلى الله عليه وآله))[١].

ولم يكن يحتاج إلى تطبيق معادلات، وقوانين احتمالية، أو يخوض تجارب طويلة حتى يصل الى الحقيقة، بل كانت الحقائق العلمية كلها حاضرة في ذهنه، يراها بالبصيرة، والوجدان رأي العين.

فحفر الكثير من الآبار، والعيون، وأوقفها للمسلمين في وقت كان الآخرون يعجزون عن التعرف على مواقع وجود الماء، فأين علم الجيولوجيا من هذه المعرفة الدقيقة، بطبقات الأرض، وما تحتها، من كنوز ومعادن.

وكان يقول: (لو شئت لجعلت لكم من الماء نورا وناراً)[٢]، يقصد توليد الطاقة الكهربائية من شلالات الماء، وغيرها الكثير، في مختلف حقول العلم، والمعرفة.

ثم جاء أولاده (عليهم السلام) من بعده، ليبثوا ما تسمح به الحال، من علوم الكيمياء، والرياضيات، والفلك، والفيزياء، والنبات، والحيوان، وغيرها.

فإن قلتَ: إذن ما الذي حبسهم عن إعطاء هذه العلوم التي يحملونها إلى البشرية، وهي مسألة لا تتعلق بتسلمهم موقع القيادة والإمامة وعدمها؟.

بحوث في الملل والنحل- جعفر السبحاني: ٦/ ٥٢٥/ الفصل الثاني عشر (دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية وازدهار العلوم).

(١) الخصال- الشيخ الصدوق: ٦٤٢.- بحار الأنوار- المجلسي: ٢٦/ ٢٩.

(٢) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)- الريشهري: ١٠/ ٣٠٢.

قلتُ: إن التقدم المادي مرتبط تماماً بالتكامل الروحي، من خلال البناء الصحيح للعقيدة، ولا بد أن يتقدّما معاً.

وإن الأول بدون الثاني يصبح وبالاً على البشرية ويقودها نحو الدمار، كالذي نشاهده اليوم ممن يسمون أنفسهم بالقوى العظمى، والدول الكبرى، ولما كانت البشرية قد تخلفت، وتدنت في الجانب الثاني، وهو العقائدي والأخلاقي، فلا يمكن إعطاؤها من الجانب الأول، إلا بالمقدار الذي لا يكون خطراً عليها، هكذا اقتضت الإرادة الإلهية أن يلهم الإنسان بعض الأفكار، التي طورت حضارة البشر، ودلته على اكتشافات، وحقائق علمية مهمة في أوقاتها المناسبة، وبالشكل الذي يحفظ توازن المجتمع الإنساني ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩)، ولو كانت مستحقة للمزيد بالتزامها بخط الخلافة الإلهية، لما بخل عليها الله تبارك وتعالى بالعطاء، فلا يغتر الإنسان ويظن أنه هو الذي يحقق ذلك، بل هو من إلهام الله تبارك وتعالى وإيحائه، وللعلماء والمكتشفين كلمات تدل على ذلك، ولو خليّ إلى نفسه لما عرف كيف يتخلص من موتاه بالدفن حتى علمه الغراب –كما ذكرنا–.

لماذا نحتفل بعيد الغدير؟

هذه بعض النتائج التي أفرزها عدم التزام الأمة بحديث الغدير، وإذا كانت الأمور تُعرف بأضدادها كما قالوا، فيمكن أن نعرف سمو المعاني والآثار التي نالها الملتزمون بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، فحق لهم أن يحتفلوا بهذا العيد الأغرّ، –أعظم عيد في الإسلام–، عن عبد الرحمن بن سالم، عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله

(عليه السلام)، هل للمسلمين عيد، غير يوم الجمعة، والأضحى، والفطر؟ قال: نعم أعظمها حرمة، قلت، وأي عيد هو، جعلت فداك؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[١].

وفي حديث أبي نصر عن الرضا (عليه السلام) قال: (يا بن أبي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين (عليه السلام)، فان الله تبارك وتعالى يغفر لكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة، ذنوب ستين سنة، ويعتق من النار ضعف ما أعتق في شهر رمضان، وليلة القدر، وليلة الفطر، والدرهم فيه بألف درهم لاخوانك العارفين، فأفضل على إخوانك في هذا اليوم، وسرَّ فيه كل مؤمن ومؤمنة، ثم قال:... والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)[٢].

لنأخذ الدرس في فهم أشكال المرجعية الدينية:

ونحن كما تعودنا في مثل هذه الكلمات، لا نستهدف فقط تثبيت العقيدة وترسيخها والدفاع عنها، وإن كان هذا في نفسه نفيساً، إلا أنه مما لا يقل عنه أهمية أخذ الدروس، والعبر منه، وهنا تكمن روح العلم والمعرفة، فالعلم بلا عمل وبلا استفادة منه في الحياة، لا قيمة له.

ونحن إذا توسعنا في فهم هذا الموضوع، فسنطبق هذه التجربة على كل رسالة إصلاحيّة، تعمل على هداية الناس، وتكميل نفوسهم كالمرجعية الشريفة،

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٤/ ١٤٩.

(٢) تهذيب الأحكام- الشيخ الطوسي: ٦/ ٢٥.

وهي لها شكلان:

الأول: المرجعية الفردية، التي يُقتصر عملها على استنباط الحكم الشرعي، من دون العمل على تطبيقه، ودفع المجتمع إلى امتثاله، والأمر راجع إلى المكلف، إن شاء طبق أو لا، ولا تتدخل إلا في حدود الشؤون الفردية، وما يبرئ ذمم المكلفين، كأفراد، وهو عمل ليس بالهين، وقد قاموا بجهود مضنية، حفظت لنا فقه آل محمد (عليهم السلام)، لكن هذا الشكل خارج عن موضوعنا، لانحسار دورها عن الإمامة الاجتماعية أصلاً.

الثاني: المرجعية الاجتماعية، التي لا تكتفي بمستوى النظرية، - أي مجرد التقنين والتشريع-، وإنما تعمل على تهيئة كل الفرص، واتخاذ مختلف الأساليب؛ لإقناع الناس بتطبيق الشريعة في كل تفاصيل حياتهم، وإذا لم تنفع وسيلة جربت أخرى.

وقد شبهت الأولى بالأمّ التي تهيئ الطعام لولدها المريض وتترك الباقي عليه، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وقد لا يَعرف مصلحته فيموت جوعاً.

والثانية تشبه الأمّ التي لا تكتفي بإعداد الطعام، بل تُطيّبه وتعمل كل المرغبات، والمحفزات، لولدها كي يأكل، ويحفظ حياته، ويستعيد عافيته، ولا شك أن الثانية أرحم، وأرأف، وأكرم، وأصبر، من الأولى، أو قُل إنها أكثر اتصافاً بالأسماء الحسنى، التي ورد الحث على التخلّق بها.

المرجعية الحركية هي الأجدر:

وهذه المرجعية الثانية، هي الأكثر التصاقاً بالناس، وأعمق تأثيراً فيهم، والأكثر تعلقاً بهم، وهي الأجدر بتمثيل دور المعصومين (عليهم السلام)، فلا غرو أن تكون عرضة لطمع المتنافسين، فإذا تصدى لها غير المؤهل لها، وصنع (سقيفة) ثانية، لإبعاد مستحقيها، ترتبت كل أو بعض الآثار التي ذكرناها، ولا بدَّ أن نستفيد من تلك التجربة، لنكون واعين، وحذرين من تكرارها.

وقد ذكرنا في محاضرتين[1]، بمناسبة عيد الغدير عام (١٤٢١هـ)، الأشكال الثلاثة، التي خطط بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) للخليفة من بعده، وكيفية تأسي المرجعية به (صلى الله عليه وآله) في هذا المجال، ومسؤولية الأمة في صيانة هذا الموقع الشريف، والتمسك بأهله.

فيكون هذا البحث مكملاً له، ومما ذكرنا هناك، أن لهذا الموقع شروطاً، صنفتُها إلى ثابتة ومتحركة، والأولى، هي التي دأبت على ذكرها الرسائل العملية، أما المتحركة فتتغير تبعاً للظروف الموضوعية، التي تعيشها المرجعية.

---

(١) تقدم (ص ١٨٠) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة:٦٧)، وقد طبع كمقدمة لكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ كاشف الغطاء، أيضاً.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿سورة الزمر:٣٠﴾

دروس وعبر من وفاة رسول الله

خطاب موجه الى النبي (صلى الله عليه وآله) ولجميع البشر استعمل فيه لفظ الفعلية بصيغة الصفة المشبهة (ميّت) رغم انهم مازالوا أحياء ولم يقل انك ستموت لافادة التحقق القطعي وانهم صائرون اليه لا محالة، قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

ان الموت لا يعني الفناء بل التحرر من البدن والانتقال من عالم الدنيا الى عالم الاخرة الذي ستكون فيه الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت:٦٤) وستظهر للإنسان حينئذ حقيقة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ (العنكبوت:٦٤)، وسيندم على عدم اخذه من حياته الدنيا الزائلة ما ينفعه في تلك الحياة الباقية ويقول ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:٢٤)، وقوله هذا اعتراف صريح بأن الاخرة هي الحياة ولكنه لم يقدم لها شيئاً.

وقد عقدنا هذا القبس لبيان دلالات موت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وآثاره، منها

الأول: كانت وفاته شهادة من الله تعالى على أن البقاء لله وحده قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر:٣٠) وقال الإمام الحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء لأخته العقيلة زينب (عليها السلام): (إن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون)[1] ولو استحق أحد أن يبقى لكان رسول الله لأنه أكمل الخلق وأفضلهم وجعل الكون

(١) الارشاد للمفيد: ٢/ ٩٤.

بما فيه طوع إرادته وهو عند الله تعالى أكرم من نبيه سليمان بن داود الذي قال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام): (ولو أن أحداً يجد إلى البقاء سلّماً، أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود (عليه السلام)، الذي سُخّر له مُلك الجن والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفة. فلما استوفى طُعمته، واستكمل مدّته، رمَته قِسيُّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة، وورثها قومٌ آخرون)[1] وفي ذلك موعظة للخلق جميعاً.

الثاني: هوان الدنيا على الله تبارك وتعالى حين يُخليها من رسول الله فما قيمتها بدونه فأصبحت الدنيا بفقده مظلمة، والآخرة بنوره مزهرة، وفي ذلك عبرة لمن تطمح عينه إلى الدنيا ويجعلها هدفاً لحياته، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ولقد كان في رسول الله كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قُبضت عنه أطرافها، وَوُطّئت لغيره أكنافها، وفُطِمَ عن رضاعها، وزوي عن زخارفها) (فتأسَّ بنبيِّك الأطيب الأطهر فإن فيه أسوةً لمن تأسّى، وعزاءً لمن تعزّى. وأحبُّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيه والمقتصّ لأثَره) (عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلمَ أن الله سبحانه أبغضَ شيئاً فأبغضه، وحقَّر شيئاً فحقّره، وصغّر شيئاً فصغّره. ولو لم يكن فينا إلا حبُّنا ما أبغضَ اللهُ ورسولُه وتعظيمُنا ما صغّرَ اللهُ ورسولُه، لكفى به شقاقاً لله، ومحادَّةً عن أمر الله)[2]

الثالث: انقطاع جملة من البركات كانت مرتبطة بشخصه المبارك ووجوده بين الناس (منها) الوحي المباشر الذي كان ينزل عليه (ومنها) ارتفاع ألوان من

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢، ص٢٦٢، شرح د. صبحي الصالح، بيروت ١٩٦٧م.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠، ص ٢٢٦-٢٢٨.

العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣) وورد في أخبار الفريقين أن رسول الله قال: (أنزلَ الله عليَّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة)[١] ومع ذلك فإن خيره وبركاته متواصلة حتى بعد وفاته، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله: مقامي بين أظهركم خير لكم فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ومفارقتي إياكم خير لكم. فقالوا: يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خير لنا؟ فقال: أما مفارقتي لكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض علي كل خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها، وما كان من سيئة أستغفر الله لكم)[٢].

الرابع: انفتاح باب الظلم والعدوان على آل بيت النبي (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وقد قال لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)[٣] وحصل ما حصل على دار علي وفاطمة (صلوات الله عليهما وآلهما) - لذا لا يكاد ينفك الحديث عن وفاة رسول الله من الحديث عما تعرضت له الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام)- مخالفين بذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، في ذيل الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٩/ ٨٦.

(٣) بحار الأنوار: ٤٦٩/٢٢ عن كتاب (إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٤٠-١٤٣. والإرشاد: ٩٦-١٠٠. وأورد الحديث الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا: ٢/ ٧٢/ باب ٣١/ ح٣٠٣.

أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:﴿٢٣﴾) ووصايا نبيه الأكرم الكثيرة.

الخامس: الانقلاب على الأعقاب ومخالفة وصية رسول الله في أمير المؤمنين (عليه السلام) بالإمامة والخلافة، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٤٤﴾) وهذه أهم قضية بلّغها رسول الله وأدّاها عن ربه بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:﴿٦٧﴾).

وكل واحد من هذه الأمور يستحق أن نطيل الوقوف عنده والتأمل فيه، ولكن الوقت لا يسع لذلك فنقتصر على الأخير لأهميته.

إن قضية الإمامة والخلافة أعظم قضية في الإسلام فهي مفتاح كل خير لو أن الأمة اهتدت إليها وأخذت بها، ومفتاح كل شرّ - والعياذ بالله- من سفك دماء وتخريب ديار وانحرافٍ عن الدين، عندما يتخلفون عنها، وقد كان النبي بدأ التصريح بها والدعوة إليها منذ أيام الإسلام الأولى عندما نزلت الآية الشريفة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:﴿٢١٤﴾) فقد روى الفريقان أن النبي جمع بني عبد المطلب وكانوا أربعين رجلاً ودعاهم إلى الإيمان ومؤازرته واختار علياً ليكون وصيه وخليفته[1] ثم والى الإعلان والتبليغ بها حتى دعاه الله تبارك وتعالى إلى إكمال الدين وإتمام النعمة بإلزام المؤمنين بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام)

(١) الميزان في تفسير القرآن: ذيل تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

في غدير خم قبل وفاته بشهرين وعشرة أيام، لكن بعض الصحابة ولأسباب معلومة نكثوا البيعة، وعندما حاول تأكيدها قبل وفاته بأربعة أيام أي يوم الخميس الذي سبق وفاته يوم الاثنين حصل لغط وخلاف بين الصحابة فقال لهم:قوموا، ثم أوصى أهل بيته بالاستعداد للبلاء واتخاذ الصبر جلباباً، هذه الحادثة التي أطلق عليها عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: (رزيّة يوم الخميس)[1] لأنها أساس المصائب والانحراف عن خط الرسالة.

الانحراف الذي -كأي خط مائل عن الصراط المستقيم- يزداد بعداً كلما تقدم الزمن فبدأت عُرى الإسلام تُنقَض، ومقدساته تنتهك ولم تبق حرمة له حتى آلت الخلافة إلى أناس يقتلون أولاد النبيين ويحرقون الكعبة ويشربون الخمر ويفعلون المنكرات جهاراً على منابر المسلمين، ونشأت أجيال من المسلمين لا تفقه من أحكام الإسلام شيئاً لأن الناس على دين ملوكهم، ولا سبيل للوصول إلى الأئمة الهداة الحقيقيين فهم معتقلون ومعذبون ومحاصرون، وكان الداخلون الجُدد في الإسلام من الأمم التي غزاها المسلمون لا يرون من الإسلام إلا ما يظهر على سلوك الأمراء، ولولا جهاد وجهود الأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) والثلة المباركة من أصحابهم لما بقي للدين عين ولا أثر[2] كأبان بن تغلب الذي قال فيه الإمام الصادق (عليه السلام) لما بلغه موته: (لقد اوجع قلبي موت أبان)[3]، وقال (عليه السلام) في بعض أصحابه لعله زرارة او محمد بن مسلم (لولا فلان لمات فقه أبي)

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٠/ ٥٣٦.

(٢) أنظر: وسائل الشيعة (آل البيت): ١٤٢/٢٧

(٣) رجال النجاشي: ١٠، الفهرست للشيخ الطوسي: ٥٧

وكان لهذا الانقلاب على وصية رسول الله في مستحقي الإمامة والخلافة من بعده وإقصاء القادة الحقيقيين للأمة آثار[1] كارثية وويلات عظيمة على الأمة:

منها:تصدي غير المؤهلين للخلافة بل الفاسدين من بني أمية وبني العباس وأضرابهم مما أدى إلى:

١- تشوّه صورة الإسلام نفسه لأن أي دين أو نظام أو آيديولوجية تُقيَّم من خلال سلوك القائمين عليها لعدم التفكيك بين النظرية والممارسة والتطبيق، فلما يتصدى للحكم باسم الإسلام قتلةٌ ومجرمون وفاسدون فإنهم يشوّهون صورته.

٢- طمع أعداء الإسلام في الكيد له واستئصال قواعده وتعاليمه حيث وجدوا لهم منفذاً بل حظوة لدى أولئك المتسلطين الجبابرة.

٣- ضياع مقاييس ومعايير الاستحقاق لهذا المنصب العظيم فأصبحت هدفاً لكل الطامعين في السلطة والحكم ولو بالقهر والسيف ما دام الحكم لمن غلب.

ومنها: ابتداع وسائل من صنع الإنسان للوصول إلى التشريعات كالقياس والشورى وأمثالها لابتعادهم عن مصادر التشريع الأصلية ولحاجتهم إلى قوانين تؤصّل لسلطتهم وتعطيهم الشرعية، لذا تبدلت الأحكام وصارت القوانين التي تحكم الحياة وضعية وليست إلهية.

ومنها: عرقلة تربية البشرية وتكاملها، لأن المعلم يجب أن يكون عالماً والواعظ متّعظاً والمصلح صالحاً فكيف يربي الأمة من يتبع هواه ويطلق لنفسه الأمارة بالسوء العنان وقد جعل الشيطان ولياً له من دون الله العظيم فافتقدت الأمة

---

(١) تجد تفصيل هذه النقاط في ص٢٣٢، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران:١٤٤).

الأسوة الحسنة والمربي الصالح الحنون إلا القليل ممن اهتدى إلى الحق ورزقه الله اتباعه، وعلى العكس من ذلك فقد شجعت تلك السلطات الفساد والانحراف وكانت تمارسه علناً وتوفّر أسبابه.

ومنها:تمزّق الأمة وتشتتها إلى فرق وأحزاب وطوائف متناحرة يستحل بعضهم دماء البعض الآخر ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون:٥٣) ولم يلتفتوا إلى وصية الله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦) وقد فسّرت الأحاديث الشريفة حبل الله بالقرآن الكريم وعترة النبي وأهل بيته[1].

ومنها: انحسار دور الدين عن التأثير في حياة الأمة، فبعد أن كانت رسالته تنظيم شؤون الحياة كلها اقتصر أثره على عدد من المتدينين من خلال طقوس وعبادات يؤدونها، وقد عمل الطغاة على ذلك لأنهم يعلمون أن إعطاء دور شامل للدين يعني الحاجة إلى الرجوع إلى القيّمين الحقيقيين عليه مما يعني خسارة الحكام الجائرين لسلطتهم ومواقعهم فقرروا عزل الدين ليعزلوا أئمته والأدلاّء عليه.

ومنها: تأخر ركب الحضارة الإنسانية، لأن أوصياء النبي كان لديهم كل ما تحتاجه البشرية من علوم وقد احتوت المصادر على نظريات علمية في الفيزياء والفلك والرياضيات والفسلجة والكيمياء والطب وغيرها لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) (راجع كتاب قضاء أمير المؤمنين (عليه السلام) وتوحيد المفضّل ورسائل جابر بن حيّان

(١) أنظر: تفسير العياشي: ١/ ١٩٤.

في الكيمياء) فلو أُتيحت الفرصة لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) لإظهار علومهم وثنيت لهم الوسادة، لما احتجنا إلى أربعة عشر قرناً لنصنع الطائرة والكومبيوتر والإنسان الآلي والتكنولوجيا النووية وغيرها مما يضمن للبشرية حياةً أفضل وأهنأ وأسعد.

وعلى أي حال فقد كانت خسارتنا برسول الله عظيمة بعظم النتائج التي حصلت بوفاته فما أصيبت البشرية بمثل رسول الله وعلى مثله فليبك الباكون ولينذب النادبون:

أنسَتْ رزيّتُكم رزايانا التي سلفتْ وهوّنت الرزايا الآتية[1]

(١) بيت من قصيدة مطولة للشيخ عبد الحسين الأعسم، أنظر أدب الطف- السيد جواد شبر: ٢٨٩/٦

الحمد لله رب العالمين

الفهرس

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ﴿الأحزاب:٥٦﴾ ٥
فضل الصلاة على النبي وآله وآثارها المباركة ٥
لا تتم الصلاة على النبي الا بالصلاة على آله: ٨
﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] ١٥
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾ ﴿آل عمران:١٦٤﴾ ٢٢
السيدة الزهراء (عليها السلام) تذكّر الأصحاب بنعمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢٢
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿القلم:٤﴾ ٣١
معجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخلاقه ٣١
تطبيق: معجزة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) تبيّن أخلاقه ٤١
ما الذي نستفيده؟ ٤٢
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ﴿الأحزاب:٢١﴾ ٤٦
دعوة الى التأسي برسول الله (صلى الله عليه وآله) ٤٦
ملحق (١) ٥٨
كراهة عدم الاتيان بسنن النبي (صلى الله عليه وآله) ولو مرة واحدة في العمر ٥٨
ملحق (٢) ٦٤
حاجتنا الى الاسوة الحسنة ٦٤
لا قيمة للعلم إذا لم يقترن بالعمل: ٦٦
أهمية الأسوة الحسنة: ٦٩

مسؤوليتنا اليوم أضخم من الماضي: ٧١
الحرب التي يعيشها الإسلام اليوم: ٧٣
علينا ألاَّ نتبوّأ موقعاً إلا بجدارة: ٧٥
ما هي الأمور التي يمكن أن نتأسى بها؟ ٧٦
الإعراض عن الدنيا المحللة: ٧٨
﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ ﴿يوسف:١٠٨﴾ ٨٩
البصيرة بوصلة السلوك الإنساني ٨٩
فقدان البصيرة سمة المجتمع غير الإيماني: ٩٥
التحذير من فقدان البصيرة: ٩٦
تصحيح المفاهيم المقلوبة: ٩٦
السيدة زينب (عليها السلام) تبين من هو المنتصر الحقيقي: ٩٧
علينا أن نستفيد من الدرس الزينبي: ٩٩
أبواق المساواة بين الرجل والمرأة: ٩٩
فلسفة التمايز بين الرجل والمرأة: ٩٩
مصطلح سن اليأس: ١٠٠
﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ﴿الحجر:٩٣﴾ ١٠٢
إعلان الهوية ١٠٢
التماهي في الذوبان: ١٠٢
الضعف في إبراز الهوية: ١٠٣

التعايش مع الآخر لا يعني التنازل عن المبادئ: ١٠٣
الآية الكريمة تصر على تحمل مسؤولية الانتماء: ١٠٣
لنتحدث عمّا يجب فعله لا ما فعلوه بنا: ١٠٤
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ﴿المُدّثّر:٢﴾ ١٠٦
﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿التوبة:١٢٨﴾ ١١٣
﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ ﴿طه:١١٤﴾ ١٢٠
أدب طلب العلم ١٢٠
التأسي بطلب العلم: ١٢٠
في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾ ١٢١
في معنى أن الآية لسانها الدعاء: ١٢١
لا تغفلوا عن العلم الغيبي: ١٢٢
مصادر العلم الغيبي: ١٢٣
في معنى قوله تعالى: ﴿زِدْنِى﴾: ١٢٦
في معنى قوله تعالى: ﴿عِلْمًا﴾: ١٢٧
الدعوة الى أن تكونوا من حملة العلم: ١٢٨
﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ﴿سورة القلم:٩﴾ ١٣٠
لا مساومة على المبادئ الحقّة ١٣٠
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿سورة الحجر:٩٧﴾ ١٣٤
القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين ١٣٤

﴿ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف:١٥٧) ١٣٩

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ﴿سورة الإسراء:٧٩﴾ ١٤٥

صلاة الليل وسيلة الإعداد لتحمل المسؤوليات الكبيرة ونيل المقامات الرفيعة. ١٤٥

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿الفتح:١﴾ ١٥٧

الفتح السلمي ١٥٧

وكان من مظاهر هذا الفتح: ١٦٤

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ﴿الفتح:٢﴾ ١٦٧

الله تعالى يتكفل بمعالجة تبعات العمل الرسالي ١٦٧

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران:١٥٩﴾ ١٧٦

الرحمة بالمؤمنين ١٧٦

دروس من الرحمة النبوية: ١٧٦

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ ﴿سورة الأنبياء:٩٤﴾ ١٨٠

النبي (صلى الله عليه وآله) مكفور النعمة ١٨٠

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿سورة المائدة:٦٧﴾ ١٨٨

يوم الغدير عيد الله الأعظم ١٨٨

ملحق: كيف خطط رسول الله (صلى الله عليه وآله) للخلافة من بعده() ٢٠٢

الإمامة ضرورة عقلائية: ٢٠٢
ضرورة الإمامة في الشرع: ٢٠٣
المصالح المهمّة من تعيين الخليفة: ٢٠٤
شرفية موقع الإمامة في الفكر الإسلامي: ٢٠٦
(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى): ٢٠٧
خطر الاعتراض من الداخل الإسلامي: ٢٠٨
نموذج من الانحراف الإسلامي: ٢١١
حملات اليهود بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله): ٢١١
العدو الخارجي والكيد بالإسلام: ٢١٢
التحديات الجسيمة أمام النبي (صلى الله عليه وآله): ٢١٣
عقيدة العامة في الإمامة: ٢١٤
عقيدة مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في الإمامة: ٢١٨
الدور العلوي في الحفاظ على الدين: ٢٢١
التخطيط للخلافة: ٢٢٢
الإعلان العظيم تكلل في يوم الغدير: ٢٢٤
أعظم الأعياد في الإسلام: ٢٢٥
لماذا كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام؟ ٢٢٧
التشيع يزداد وضوحاً بيوم الغدير: ٢٢٨
أشكال التخطيط النبوي لتعيين الخليفة: ٢٣٠
الضوابط والمعايير لتولّي الخلافة: ٢٣٢

تطبيق الضوابط على المتصدين للخلافة بغير حق: ٢٣٤
المرجعية الدينية ومسؤوليات التخطيط لإعداد البديل: ٢٣٧
مسؤولية الأمّة في البحث عن المرجع البديل: ٢٣٨
﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران:١٤٤﴾ ٢٤٠
إنقلاب الأتباع عند غياب القائد ٢٤٠
ملحق ٢٥١
ماذا خسرت الأمة حينما ولّت أمرها من لا يستحق ٢٥١
رزية الخميس: ٢٥١
النزاع بين الخط الإلهي والخط البشري: ٢٥٢
مع الوعي في الطرح: ٢٥٤
ماذا خسرت الأمة؟ ٢٥٥
النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة ٢٥٧
النتيجة الأولى: تصدي غير المؤهلين للإمامة: ٢٥٧
الإعداد النبوي للخليفة الحق: ٢٥٩
آثار خطيرة: ٢٦٠
النتيجة الثانية: فتح باب الاجتهاد مقابل النص: ٢٦١
النتيجة الثالثة: عرقلة تربية الأمة وتكاملها: ٢٦٣
النتيجة الرابعة: تمزق الأمة وتشتتها: ٢٦٧
النتيجة الخامسة: عزل الدين عن إدارة الحياة بكل أبعادها وتفاصيلها: ٢٦٩
النتيجة السادسة: حدوث الانفصال بين الأمة والخلافة: ٢٧١

بالمقابل كان هناك علي بن أبي طالب (عليه السلام): ٢٧٢
النتيجة السابعة: تأخر ركب الحضارة الإنسانية: ٢٧٦
لماذا نحتفل بعيد الغدير؟ ٢٧٨
لنأخذ الدرس في فهم أشكال المرجعية الدينية: ٢٧٩
المرجعية الحركية هي الأجدر: ٢٨١
﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿سورة الزمر: ٣٠﴾ ٢٨٢
دروس وعبر من وفاة رسول الله ٢٨٢
الفهرس ٢٩١